الموسوعة الذهبية في نصائح الأسرة

النصائح الذهبية للشباب

بقلم

الدكتور موسى الخطيب

دار الجيل

بيروت

الطبعة الأولى
١٤١٤هـ - ١٩٩٤م

النصائح الذهبية للشباب

إهداء

إلى ريحانتيَّ في هذه الحياة: عمرو ومحمد

إلى البارّة أُمي

إلى روح أبي



تقديم

الحمد لله أحسن الخالقين، ﴿الذي أَحسَن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين * ثم جعل نسله من سُلالة من ماء مهين * ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون﴾.

والصلاة والسلام على سيدنا محمد، نبي الرحمة، سيّد الهُداة المرشدين، وإمام المربين المصلحين، الذي أخرج الناس بواضح هديه، وعظيم خُلقُه من غمرات الجهالات، ومتاهات الضلالات، إلى نور العِرْفان، ومناهج الهدى، وعلى جميع الأنبياء والمرسلين ومن اتبع هديهم إلى يوم الدين.

* * *

أما بعد فقد علمت من معاينتك واختبارك في الحياة، أن الإنسان مع كونه أشرف مخلوق في الأرض وأكبر ما دبَّ على ظهرها، وآثرهم بالسؤدد والسلطان فيها، وأحقهم بعمارتها، وتسخير جميع حيواناتها ونباتها ومعادنها، في مرافقه، وتصريفها في مصالحه، قد خُلِقَ ضعيفاً في جسمه وعقله، ناقصاً في إدراكه وفطنته، لا يؤتى الكمال دفعة، ولا يبلغه طفرة، وإنما يصل إليه رويداً بالتربية والتأديب والتمرين والتهذيب، وهذا الكمال فيه نسبي، تتفاوت درجاته بتفاوت درجات استعداده، فالكمال المطلق لله وحده، وهو من نشأته إلى بلوغ غايته، قد فُرِض عليه بخطاب ربه، وبمقتضى فطرته أن يسعى ويكدح لتقوية ملكاته، وتحقيق معنى الكمال في نفسه، لأنه خُلِق مستعداً له،

وجميع ما في الكون يدعوه إلى الاعتبار والانتفاع به، فمن قصّر في أداء هذا الغرض، وقنع من حياته بالمعيشة الحيوانية فقد سفه نفسه وأنزلها في دركات الهون ورضي لها بالدون.

* * *

من أجل ذلك كان حقاً واجباً، وحتماً لازباً على كل ذي عقل سليم أن يتعهد نفسه بتربيتها، وتقويم أخلاقها، وتنمية ملكاتها، وأن يفعل ذلك بمن يعنيه أمرهم من أهله وأبناء وطنه ما استطاع إليه سبيلاً، ولا يتأتى له ذلك إلا باستعمال ما أوتي من وسائل الإدراك وهي حواسه الظاهرة والباطنة فيما خُلِقت له، والاهتداء بما يرشده إليه عقله من نتائج الفكر في مدلولاتها، والرجوع إلى هُدى النبيين، ووحي المرسلين، فيما يعجز العقل عن إدراك كُنهه لخروجه عن متناوله ضناً بنفسه أن يستعبدها الهوى فتردى، وبعقله أن يعشق فيشقى.

* * *

وقد عني عقلاء كل جيل، والعلماء من كل قبيل في جميع العصور، بالبحث في أنجح الطرق وأحسنها لتهذيب النفوس، وتثقيف العقول، وألفوا في ذلك الكتب الجمّة، والمصنفات النافعة فكان لها من الفوائد الغزيرة، والعوائد الرائعة ما هو كالشمس ظهوراً.

* * *

من أجل ذلك أيضاً، فإننا نرى أن من الحق علينا، والواجب المحتم الذي تفرضه علينا طبيعة عصرنا، وتُمْليه علينا ظروفنا الحاضرة والمستقبلة، النظر بكل تَمَعُّن فيما وضعه علماء كل جيل من الكتب القيّمة في مختلف العلوم، خصوصاً علم التربية، والأخذ بأحسن ما كتبوا، وأقربه إلى الدين، وبثه في الناس ليروِّضوا نفوسهم به، ويقوِّموا نفوسهم به، ويقوِّموا أخلاقهم بأدبه، فتحمد فيه آثاره، ويعمهم نفعه. ولن يتم لهم ذلك إلا بالإخلاص والصبر ودوام العمل، والله المستعان وبه الحول والقوة.

دكتور موسى الخطيب

الفصل الأول

رسائل في تربية الشباب

الشباب والمجتمع

«التربية العصرية الحديثة»

(أ)

رسالة إلى أبي

بداية مشواري الجامعي وحياتي في القاهرة

والدي العزيز:

انتظمت في سلك الجامعة بعد اجتيازي امتحان القدرات بنجاح، ولقد أسعدني وأثلج صدري كما أسعدك أني حصلت على أعلى الدرجات وأني حرصت على عدم إخبارك بموعد الامتحان حتى لا يكون للتعاطف الشخصي بما يُمليه واجب الأبوة نحو أبنائهم، أي دخل في هذا الموضوع، وأسعدني أن السادة الأساتذة القائمين على الامتحان، وهم زملاؤك؛ لم يكن عندهم سابق معرفة بي، فكنت كباقي زملائي الطلاب في هذه الناحية، مبرَّزاً عليهم بفضل الله واجتهادي.

لقد كان هدفك دائماً في تربيتي أنه لكي أكون رجلاً، لا بد أن أعتمد على نفسي في شق طريقي في الحياة والحمد لله فقد صدق ظنك فيّ وصحّت عزيمتي، ولله الشكر والمنّة ومنه التوفيق.

* * *

وهكذا فقد انخرطت في دراسة القسم الأول من السنة الأولى بكلية الطب، وسيعقد امتحان في نهاية هذا القسم ووعد السادة الأساتذة بتوزيع الجوائز على المتفوقين بحضور الأستاذ الدكتور عميد الكلية.

من المفروض علي أن أكاشفك بشيء من تفاصيل معيشتي وأنا في القاهرة، أما نهاري فأصرفه في تلقي دروسي في الكيمياء الحيوية، والفيزياء

الحيوية، والتشريح وعلم الأنسجة وعلم وظائف الأعضاء واللغة الإنجليزية وغير ذلك. وأما ليلي فأقضيه في مسكن استأجرته ستة أشهر بنحو. . .، وأما طعامي فأتناوله على مائدة الجامعة مقابل مبلغ رمزي مثل باقي الطلبة المغتربين، وبعد العشاء تارة آوي إلى حجرتي وتارة أختلف إلى معهد اللغات، لتعلّم دروس اللغة الألمانية التي طالما قرأت كثيراً منها في الكتب، وطوراً أتنزه في مدينة القاهرة ولم أحرم نفسي من رؤية آثارها المختلفة فهي تاريخ لنا يحكي عن القدماء وآثار حضارتهم الماضية. ولم أطلع على أسرار طائفة الشباب كلها لكوني ريفياً يخطو خطواته الأولى نحو عالم المدينة.

* * *

على أن أحد الشبان قد أخذني معه ذات ليلة لحضور وليمة في بيته قيل إنها حفل عيد ميلاده، وهي ليست عادة عندنا في الأرياف.

* * *

فما فتح لي باب شقته حتى رأيت جمعاً من الطلبة والطالبات الذين حضروا خصيصاً لهذا الحفل وهم ملتفون حول تورته كبيرة وقد غرسوا فيها عدداً من الشمع تماثل عدد سني عمره، وهم يهتفون جميعاً ويرددون في نَفَس واحد، عبارة باللغة الإنجليزية معناها «عيد ميلاد سعيد. . .» وأخذوا يتدافعون لإطفاء الشمع، وثم اقتسام التورتة وتوزيعها بمعرفة صاحب الحفل بمساعدة اثنين من زملائه (طالب وطالبة)، مصحوباً بأكواب العصائر والمثلجات، وصاحب ذلك أيضاً تدخين السجائر لأغلب من كانوا في الحفل، ورأيتني تائهاً مغموراً بسحاب مركوم من الدخان حال بيني وبين رؤية جدران المكان وسقفه بل رؤية المكان برمته، وكان يُخيل إليّ أنه يمتد إلى غير نهاية وكنت أسمع أصواتاً وأغاني وقهقهات ولا أبصر شيئاً من الصور الحية، وأرى أضواء حمراء تبدو في بعض جهات هذا المكان يغشاها ذلك السحاب كأنما تسبح فيه في بحر لجي، وكنت أمشي كضابط ليل وراء الدليل وعلى مقربة منه بين صفين من الموائد خُيّل إليّ أنها تعوم في الضباب، ورأيت عليها رؤية غير مستبينة آنية من القصدير كان لمعانها المعدني يجهد في صدع حجاب الظلام الدخانيّ المنسدل على القاعة كلها. ثم لمحت من

خـلال هذه الآنيـة وجوهـا آدمية لأن بصـري كان يتـدرج في اعتياد هـذا الجو الغريب والأنس به ولم يكشف عني الحجاب كشفاً تاماً إلا عندما بلغت نهـاية القـاعة حيث أقيم مصـطلى عظيم، فـرأيتني في جـمع حـافل من الشبـان في أيديهم أكواب الجعة[1] والعصائر وفي أفواههم السيجار، وبين هذا التشـويش واللغط عثرت على حلقة من الطلبة قامت بينهم مناظرات في مسائل مهمة ولم تعقهم عن الشرب والتدخين.

لم تعتد أذني سماع الأصوات القاهـرية التي تنتهي عـادة بلازمـة واحدة تقلب القــاف همـزة، ولا وجـود للجيم المعطشـة في حديثهم مـطلقاً، فهم ينطقونها كما ننـطق القاف في بـلادنا، على أني فهمت من فحـوى ما سمعتـه أنهم يتنـاظرون في مقـاصد ووسـائل بعضهـا أسمى من بعض تتعلق بإصـلاح أحـوال البشر، وكـانت البراهين والنكت والمعـاني تنبعث من أفواههم كـأنهـا سهام نارية تنقذف بين أنفاس الدخان. ولما انتصف الليل غادر القاعة جميـع الشبان ورأيت بعض من لاحظت فيهم الحميّـة والغيرة على مصـالح الإنسـان منصرفين إلى بيوتهم، وقد جعلوا يغنون جهاراً في وسط الشارع أغاني مبتذلـة ولم يبد عليهم حينئذ ما يدل على أنهم ذاكرون لما تعـاهدوا عليـه من إصلاح شؤون الكون.

* * *

أخصُّ غاية للطلبة من ذهابهم إلى الجـامعة هنـا بحسب ما سمعت هي أن يلوا عمـلاً من أعمال الحكـومة، فكلهم يؤمـل أن يكون خـادمـاً لهـا على تفاوت بينهم في ذلك، فإذا حصل أحـدهم على لقب دكتور مثـلاً رأيته يتقـدم إليها حاملاً شهادته راجياً أن توليه أحـد الأعمال الخـالية في إدارتهـا، ومعظم هـذه الأعمال لا يـولى إلا بالامتحـان ولا ينالـه إلا أصحاب الـوسائط القـويـة معولين همتهم على المثل القائل: «اللي له ظهر ما ينضربش على بطنه» وهـو يُطبق بحذافيره على اختلاف المستويات وفي كـافة الأعمـال الحكوميـة، وثبتاً

(١) البيرة.

لقوة هذا الظهر[1] فإن هؤلاء المحظوظين يظهرون أنهم أعلم من غيرهم، وإن كانوا أقل كفاءةً!!

وحينئذ يعوّل الـذين يخيبون فيـه على الاشتغال بـالأعمال المستقلة، ولا أدري أهذه الحالة وهي فرط الرغبة في تقلد المناصب العامـة هي التي ينبغي أن يُنسب إليها التغيُّر الذي يحصل في عقول شبان الدكاترة عند خـروجهم من الجامعة أم له سبب آخر.

* * *

الطلبة هنا في القاهـرة مختلفون عن نـظائرهم من أهـل الريف، وكثيـر منهم يتظاهرون بافتخار الإنسان بأكثـر مما عنـده وبالشـذوذ والعربـدة، ويُخيل إلى من يرى غيرهم أنهم ممتلئون سكينة بل جموداً وبلادة.

وبعضهم يميلون إلى الثـورة وبعـدم المبـالاة بـالخـوض في أي بحث نـظري وبالهجـوم على جميع المسـائل سيـاسية كـانت أو دينية أو قـومية بمـا يدهش من جرأة الجنان.

وبقيـة الأمة يـظهر عليهم التشـدد في الاستمساك بـالعـوائـد القـديمـة، ويتنـدرون بمـا يشبـه الحسـرة على أيـام الملكيـة، ومـا كـان فيهـا من رخص الأسعار والقيم والمبادىء بين الناس، وينكرون على الثورة ما فعلتـه من تغيير في البنية الأساسية للسلم القيمي للمجتمع، فرفعت بذلك أقواماً كانوا في ذيل القائمة وأذلت آخرين كانوا على رأسها بعد أن استتب لهم الأمر فكانوا صـرحاً شامخاً على طريق نهضة الأمة ورخائها.

* * *

ويذكرون مثلاً للرجال الذين يحق للأمة أن تفخر بهم: زكي عبـد العال باشا الـذي جعل الغـطاء الذهبي للجنيـه المصري أيـام الملكية يضـاهي أكبر الدول الرأسمالية في ذلك الوقت حتى صار الجنيه الاسترليني يساوي ما قيمته (٩٧,٥) قـرشـاً مصـريـاً.. وخـرج الملك من مصـر وهي دائنـة لبـريــطانيـا

(١) كناية عن الوسائط والمعارف.

العظمى. ومات جمال عبد الناصر، قائد ثورة ٢٣ يوليو، وخزائنها خاوية، فلما مات السادات كانت ديون مصر قد بلغت (١٢) مليار دولار!

* * *

فلما هدمت الثورة هذا الصرح الشامخ، لم يكن الهدف هو إصلاح حال الأمة كما ادعى قادتها، وإنما كان الهدف هو التغيير لمجرد التغيير جرياً على قاعدة خالف تُعرف ونتج عن هذا كله تنفجّ المجتمع عن شلة من النفعيين والوصوليين وأصحاب الدخول الطفيلية الذين لا همّ لهم سوى مصالحهم الشخصية؛ وقد أولتهم الثورة عنايتها، فجعلتهم أصلح من غيرهم من ذوي الكفاءات في تولّي المناصب العامة وقيادة المجتمع...

وهم يعوّلون على هذا التغيير ما تعانيه الأمة الآن من الأزمات وغلاء الأسعار الذي لا ينتهي.

* * *

وترى الطلبة يتباهون باحتقارهم جميع المميزات التي لا منشأ لها إلا اتفاق النسب على حين أن أواسط الناس يجلون ألقاب الشرف إجلالاً لا حدّ له. فترى الفريقين كأمتين متمايزتين.

وليس للطلبة في الحقيقة ارتباط بباقي الأمة إلا رغبتها العظمى في أن يلوا لهم بعد مبارحة الجامعة أعمالاً رسمية على أن هذا الارتباط كاف في عدم اكتراث الحكومة كثيراً بما يبدونه من حدّة أفكارهم الحرّة.

* * *

دعتني سيرة هؤلاء الشبان إلى التفكير في سيرتي، فإني قد بلغت التاسعة عشرة من عمري ولا مقام لي بين الناس، بل لم يقف بي الاختيار حتى الآن على صناعة نافعة أشتغل بها، وإذا أردتني على الإقرار لك بما أجده قلت: إني أحياناً آنس من نفسي فتوراً في الهمّة وضعفاً في العزيمة وأسائلها عما أصلح له من الأعمال وأنا ضائق بذلك صدراً، نعم إنك قد رأيت مني تقدُّماً سريعاً مناسباً لحالي في العلوم، ودرس كتب المتقدمين في أربع سنين أو خمس مضت، وما ذلك ولا شك إلا من الطريقة التي أهّلتني

بهـا وأنت ووالدتي للعمـل العقلي، وهي مراقبـة الأمور والأسفـار ومـا تلقيتـه منكما من الدروس النـافعة، ولا أشـك أن لي طمعاً في العلم، ولكني أجهـد فكـري في استقصاء مـا يعوزني من الخصـائص، فآونـة أتوهم أني أحسُّ في نفسي بروح إلهي بقدرتي على كـل شيء. وساعـات يخيّل إليّ أني قـد فنيت في عجزي وتجردت من حولي وقوتي، وتارة تملكني الأفكار.

وطوراً يستحوذ عليّ وجدان الحاجـة إلى العمل، والـذي أراه يقيناً أني لم أجد إلى الآن استقامةً واستقراراً فيمـا لنفسي من القوى إن صـحّ أن يُطلق ذلك على ما لشاب مثلي من الشهوات القـوية التي تـدعوه إلى السعي لإدراك مقام له في هذه الدنيا.

* * *

لمّا بلغت ليما منذ شهرين كنت أعتقد أني على علم باللغة الألمانية لما قـرأته منهـا في الكتب فما لبث أن تبيّن لي خـطأي في ذلك، عنـدمـا ذهبت لتعلّم دروس اللغة الألمانية في المعهد المسائي بالقاهرة والـذي حدثتـك عنه آنفاً.

يقوم على تعليم اللغة. . . أساتذة ألمان حضروا خصيصاً لهذا الغـرض وهم يستخدمون في المعهد وسائل سمعية وبصرية حـديثة لتسهيـل تعلم اللغة وأسلوب المحاورة على المتلقي.

والمعهـد يضم جنسيات مختلفـة من العالم أغلبهم من أبنـاء السفارات والجاليات الأجنبيـة ممن اعتادوا زيـارة ألمانيـا أو كان لهم شـرف المولـد بين ربوعها الجميلة.

* * *

من الصعب على مثلي أن يفهم أسلوب المحـاورة الآن، فـإذا جــرت حولي المحاورات أصغيت إليهـا وما كنت أسمـع إلا أصواتـاً لا أفقه شيئـاً من معانيها وكنت مـطلق البصر أسيـر السمع لأن من الأسـر المعنويّ الحقيقي أن يعيش الإنسان بين قوم لا يفهم لغتهم. .

* * *

في المعهد قابلت غلاماً في الثالثة من عمره، وقد ولد في ألمانيا ـ وهو في هذه السن لا يعرف من تلك اللغة إلا التلعثم ببعض ألفاظها ـ يعرف منها أكثر مما أعرف حتى أني لما كنت أحاول مخاطبته كان ينفض إليّ رأسه استهزاءً كأنه يقول: «إليك عني فلست أفقه لك قولاً».

كنت بين أولئك القوم كالأصمّ الأبكم الذي فقد كل وسيلة للتفاهم حتى لغة الإشارات. فهل يمكن أن ينشأ عن الأمواج الصوتية إذا اختلف انتقالها إلى الأذن اختلافاً يسيراً باختلاف كيفية تحريك الشفتين مثل هذه الحوائل والحجب التي تبعد الناس بعضهم عن بعض.

* * *

استأت جداً من هذه العُزلة فجاهدت جهاداً عظيماً في التجرد من الانكماش الذي أجده من حيائي الطبيعيّ، وأنشأت اليوم أنطق بالألمانية نطقاً مفهوماً وأني لأعلم أنه لا يزال يعوزني تحصيل الكثير منها ولكن من هو في مثل سني قد يبعد أن لا يحصل في قليل من الزمن لغةً هو لا ينفك يسمع أصواتها ويرددها مثل باقي زملائه في المعهد. وليس أصعب ما في هذه اللغة التكلّم بها فيما أرى بل هو في فهم ما يُسمع من التحاور بها بين اثنين، فقد كنت ذات مرة في قاعة المعهد، قابلت اثنين من أبناء الجاليات التي زارت ألمانيا ومكثت بها بعض الوقت، كانا يتحاوران فما استطعت في سرعة تحاورهما أن أفهم كلمةً منه اللهم ما كان من تحية المساء وهي ليلتك سعيدة.

* * *

مثل اللغات الأجنبية إن لم أكن واهماً كمثل دخان التبغ[1] الذي حدثتك عنه في كونه كان يحجب عني بادىء بدء رؤية ما كان في الحفل من الأشياء والأشخاص فهي حجاب سيزول على التعاقب وآمل أنه سيظهر لي النور عما قليل.

* * *

---

(١) السجائر.

أرجوك أن تنوب عني في تقبيل أختي أسماء، وأود لو أدري هل هي مواظبة على سقي الأزهار وتمام العناية بالطيور، وتنسيق مجاميع الأعشاب، وطوابع البريد والنقود، وآمل منك إيصاءها بأن تذكرني كما أذكرها.

* * *

إذا أنا كتبت إليك يا والدي العزيز فقد كتبت إلى والدتي فأنتما في قلبي لا تفترقان ولهذا لا أزيدها شيئاً إلا أسفي على حرماني من حجرتي الصغيرة التي كنت أسمع منها حركة غدوكما ورواحكما في البيت، وعلى أنس بقربكما عند اصطلاء النار للتدفئة ليلاً، فإني هنا في وحشة أيّ وحشة. أختم لك هذا المكتوب في الساعة الحادية عشرة من الليل على ضوء مصباح كهربي يعلوه عاكس ضوئي يسقط منه نور ضارب إلى الخضرة، وفي إحدى زوايا حجرتي ساعة دقاقة من الصنف الذي يصوّت تصويت الطائر المعروف بالكوكو، وعند انقضاء كل ساعة تكرر تكتكتها التي لا تتغير، وبجواري مدفأة كهربية بها شمعتان، أوقد منها واحدة فقط اقتصاداً مني في استهلاك الكهرباء وثمنها الذي يزداد مع الأيام. وكم كنت أتمنى أن أسمع حسيس احتراق الحطب في التنور في مدفأة بيتنا؟!

* * *

ويداعب سمعي الآن صرير الباب من صفق الريح إيّاه، وأرى البدر خارج الحجرة شاحب الوجه يرنو إليّ من خلال ستارتين كبيرتين موشاتين بصور الأشجار والأزهار ما بين بيضاء وحمراء، وقد أحسست بإغريراق عينيّ مع أن هذه الأشياء لا تدعو إلى الحزن، ولكن لا تلمني فإني ما زلت طفلاً، ولست آسي على بلادي، وإنما آسي على مفارقة مهدي فإني أحبكما وأرجو من هذه الجهة على الأقل أن أعيش طول عمري طفلاً.

* * *

حاشية: في نهاية خطابي هذا أزفّ إليك خبراً من السماء[1]، وهو أن الدولة قد قررت مشكورةً إيفاد بعثات من الطلبة المتفوقين لدراسة العلوم

---

(١) كان بين الوالد وابنه حديث جرى بينهما في الريف كعادتهما. وأراد الابن أن يُسمع أباه خبراً =

المختلفة في الجامعات الأوروبية والأمريكية... وقد وقع الاختيار عليّ مع بعض زملائي الطلبة لدراسة الطب في إحدى جامعات ألمانيا وبالتحديد في مدينة بون، ومدة البعثة سنتان نعود بعدها لاستكمال دراسة الطب في القاهرة. وعندما يصلك خطابي أكون قد حزمت أمتعتي استعداداً للسفر غداً باكراً بمشيئة الله تعالى.

أطلب دعواتكما الحارة ولكما قُبلاتي.

* * *

= ساراً، فقال إنه «خبر بمليون جنيه» نزلت هذه العبارة على الوالد كصاعقة ونفر منها نفوراً شديداً، فعاتب ابنه على مقولتها، وأراد استبدالها بعبارة تدل على نبل المعنى وسمّوه وتنزيه الغرض عن المطامع الدنيوية، فعلمه أن يقوم هذه العبارة «إنه خبر من السماء» وهو يقصد أن الله تعالى وفقه إلى تحقيق مطلبه ومناه.

رسالة إلى أبي

والدي العزيز:

كلفتني أن أجعلك على علم بدروسي، فموافاةً لرغبتك أقول: الجامعة التي أذهب إليها، بناءٌ في غاية الجِدّة، وتفتح قاعاتها للتدريس في فصل الصيف من الساعة السابعة صباحاً إلى الساعة الواحدة ظهراً، ومن الساعة الثالثة بعد الظهر إلى الساعة السادسة مساء.

وتنقسم دروس الأساتذة فيها إلى عامة وخاصة، فالأولى تُلقى بالضرورة مجاناً، ويدفع الطلبة في مقابل تلقّي الثانية... مبلغاً من المال، وتنقسم الجامعة إلى عدد من الكليات يقوم على الدراسة فيها أساتذة متخصصون.

* * *

الجامعة تخلي بيننا وبين حرية التصرف في وقتنا إما بإضاعته أو الانتفاع به، لأني لا أرى لأحد منها أدنى تفتيش ولا أقل هيمنة علينا في سيرتنا، على أني أعتقد ما قلته لي كثيراً من أن النظام التأديبيّ الناجح هو ما يفرضه الإنسان على نفسه ويلتزم اتباعه.

* * *

لا مراء في أن أساتذة جامعاتنا ضالعون في العلوم، غير أني كثيراً ما شقّ عليّ أن أتتبّع سلسلة أفكارهم في الدروس لسببين:

أولهما: أن هذه الأفكار ليست في ذاتها واضحة.

وثانيهما: أني لقلة تعوّدي تصوير فكري بالألمانية حتى الآن أجد من الصعوبة في فهم تلك الأفكار أكثر مما يجده غيري من المتعودين.

ويدهشني من أمر هؤلاء العلماء أنهم على سموّ مكانتهم في العلم، وبُعْد صيتهم مغبونون في أجر عملهم إذا استدللت على هذا بما يبدو عليهم من رقّة الحال، وبقناعتهم باليسير من العيش، ورثاثة ملبسهم الذي يكاد يكون قذراً، وفقرهم هذا يؤلمني، ويزيدهم في نفسي إجلالاً على إجلالاهم الذي تدعوني إليه معارفهم، فأولئك رجال يحبون العلم لا لكسب المال، ولا للتمتع بالحُطام، وإنما يحبونه لما يُحصِّله العقل من لذته وصنوف اغتباطه.

* * *

ثم إن بعض الأساتذة يرتجلون الدروس مطنبين فيها، وبعضهم وهم الأكثرون يأتون بها مكتوبة فيلقونها على الطلبة، وهؤلاء يصغون لما يُلقى عليهم ويكتبون ما يعلق بأذهانهم منه، وقد وضعت لنفسي نمطاً في اختزال الكتابة وهو وإن كنت لا أشك في قصوره ولكنه يمكنني من إثبات الحدود الأساسية لما أسمعه من الجُمل.

* * *

ينقسم الطلبة باعتبار مذاهبهم إلى كاثوليكيين وبروتستانتيين متشددين يُعدّ بعضهم نفسه للأعمال الخطابية، وحكماء يجتهدون في تأويل المذاهب تأويلاً مطابقاً للعقل، وماديين وهم قليل يصرحون بأن زمن الديانات قد انقضى وأنه لا ينبغي إضاعة الوقت في العكوف على ما لا حقيقة له من هواجس القرون الوسطى وأحلامها.

* * *

نحمد الله أننا مسلمون موحدون، ومنذ تركتكم وأنا أُحافظ على أداء الصلوات في وقتها، مستعيناً ببوصلة في تحديد القبلة ومواعيد الصلاة، وأذهب إلى المسجد الجامع يوم الجمعة، والذي يجتمع فيه المسلمون في هذه البلاد كل أسبوع لأداء صلاة الجمعة، ويقوم على الإمامة فيه عالم فاضل تركي الأصل تلقّى تعليمه بالأزهر الشريف في القاهرة.

والمسلمون متوادون متحابون في هـذه البلاد التي تجـلّ جميع الأديـان وتحترم عباداتها بما حباها الله من نعمة الحرية والديمقراطية التي ترفرف فـوق ربوعها الجميلة.

* * *

جميع الطلبة يمارسـون الريـاضة على اختـلاف أنواعهـا وأهمها ريـاضة الـدفاع عن النفس وأنـا مقتد بهم في ذلـك، فلي كل يـوم ساعـة أو سـاعتـان أقضيهما في ممارستها لأن في هذه الممارسة تمريناً مفيـداً في تقويـة الأعضاء وتنميتهـا، ومع أني لا أرجـو مطلقـاً أن أبلغ حدّ الأبـطال أو الفرسـان، أودُّ لو أثبت في قـاعة الممـارسة ثبـوتاً كـافياً أني على علم تـام بريـاضة الـدفاع عن النفس، حتى يحسب الـطلبة حسـابي، فلا يستخفـون بإغضـابي، فكثيـراً مـا تحـدث بينهم مشاحنـات، وهم يخـرجـون فيهـا أحيـانـاً على حـدود اللبـاقـة والأدب، ولكن ينـدر والحمـد لله أن يقـع بين صفـوفهم حـادث قتـل فهم بطبيعتهم مسالمون.

أختم مكتوبي راجياً أن تثق بدوام محبتي لك وتعلُّق قلبي بك.

* * *

رسالة إلى أبي

والدي العزيز

غادرت مدينة بون ونقلت كتبي ـ وهي كل ما أملكه ـ تقريباً إلى مدينة هيدلبرج»، ومن نظام الجامعة في ألمانيا أنه يجوز لطلبتها مطلقاً أن ينتقلوا من إحداها إلى الأخرى من غير أن يكون في ذلك ضياع لحقوقهم فيما نالوه من الدرجات. على أن هذا التنقل يمكن الطلبة من الذهاب إلى درس أنبغ الأساتذة وأشهرهم في كل فرع من فروع العلوم البشرية.

* * *

أخالني تعلمت كثيراً من دروس هؤلاء الأساتذة المفيدة، ولكني كل يوم أتبين أن تعليم المدارس بجملته لا يمكن أن يقوم لطالب الحق مقام عمله الذاتي الذي يجري فيه على ما ترشده إليه سريرته.

* * *

أرى مذهبين يتنازعان عقول البشر أعثر عليهما إينما وجّهت فكري فأجدهما في العلم والحكمة والدين والسياسة. ومقتضى المذهب الأول أن العالم خلق مقسوراً أي أن كل ما فيه خصّص بإرادة أزلية، وأن صور الحياة في الكائنات الحية ثابتة لا تتغير فتندمج الأصول بعضها في بعض وتنتج الفروع ناقلة مخصصات كل نوع عن مثال أزليّ له. ومقتضى المذهب الثاني أنه وُجد مختاراً بمعنى أن الكائنات لم توجد من العدم بل استحالت من طور إلى طور، وأن القوى لم تسبق في الوجود بل نمت وأن الأنواع النباتية

والمعدنية والحيوانية مستمرة البقاء غير أنها تتغير وترتقي على مقتضى نواميس طبيعية.

* * *

وإذا انتقلت من العلم إلى التاريخ وجدت هذا الاختلاف بعينه في آراء الناس، فيرى بعضهم أن التمدن قديم وُجد مع الإنسان، يعني أن الاجتماع أوجدته قدرة أعلى من قدرة البشر. وأن أية أمة من الأمم ليس لها أن تختار قوانينها وأوضاعها، وأن للحكومة مُثُلاً لا تحيد عنها الأمم حتى تسقط في مهاوي الفوضى. ويرى فريق آخر خلافاً للأولين أن الإنسان نشأ متوحشاً أي أنه كان قرداً متقن الخِلْقة ففرّ من بين الحيوانات وأنشأ على التعاقب قوانينه ومعايشه ومكانته في البرية...... وأن الأمم قد مرت في أطوار نموها ببداية أوضاع لم تلبث أن ابتعدت عنها بتأثر الترقي الذي لا راد له، فكما أن الأرض كانت بنفسها يكون الإنسان بنفسه ويؤلف مجتمعه بقواه الذاتية. وإذا رجعت إلى الديانات وجدت أنها كلها موحاة من عند الله سبحانه وتعالى... فإذا سألت خصومهم عن رأيهم فيها قالوا إنها أمور طبيعية تدخل في قوانين إدراك الإنسان المألوفة.

وما أشد التباين وأوسع مسافة الخلف إذا سألت أهل وطن عن آرائهم السياسية! وقد استخلصت من اختلاف طرق النظر هذه نتيجة هي أني مع بحثي في أفكار غيري وآرائه لا ينبغي لي أن أعوِّل إلا على شهادة عقلي وسريرتي. هذه هي السبيل التي صممت على سلوكها وهي التي أوضحتها لي أنت أيضاً، ويبعد كل البعد أن تكون هذه الضرورة الملجئة لي إلى الحكم بنفسي على الأمور مدعاةً إلى الكبر والصلف، بل هي تبعث في نفسي الذلّة والاستكانة لأني أكون مضطراً في كل وقت إلى الاعتراف لنفسي بأني لا أعرف شيئاً، وأنه يجب عليّ أن أتدرّج بالإقدام وأن أوسع نطاق معارفي، واختلس من النظر في الحوادث مقدمات اقتناعي، وأما البراهين الخطابية التي كنت اعتقد في ساعة من الساعات أني أدرك بها ما لا حد له من العوالم فقد تبين لي أنها شبيهة بتلك الأهداف التي يتناقلها الأطفال في أيديهم، ويضعونها على آذانهم متخيلين أنهم يسمعون فيها اصطخاب البحر.

* * *

على أني لا أدرس وأبحث من أجل أن أكون عالماً، فكل ما ينتهي إليه طمعي ينحصر في فهم حاجات العصر الذي أعيش فيه، والأخذ بناصر الحق، وهيهات أن أنسى بلادي، أو أعيش غير مبالي بمجاهداتها، فإني وإن كنت في بلاد أجنبية أجد مصر حيثما نظرت فإنها تبدو لي في انتصارها الكثير الذي انتشر في أرجاء الدنيا، وأراها حتى في مصائبها التي نزلت بها عقاباً لرجل من رجالها على تغطرسه وتجبره، وهو الآن ـ سامحه الله على ما فرّط في حق نفسه ووطنه، في قبضة الحق، وحسابه عند ربه.

* * *

هذا الوطن وهو أُمي الثانية، فلا يُذكر أمامي وأنا في غربتي إلا ويقشعرّ جلدي لذكره، ولا يُنتقص إلا ويثور دمي كله انتقاماً له، وليس الذي يُثير إعجابي منه هو انتصاراته في معاركه الحربية فقط، وإنما هو تاريخ مكافحاته ووثباته الباسلة في طريق الحرية، وإني أحب مفكريه الذين يعملون فيه وهم يضحكون. وأعجب بكتّابه الذين يهيجّون القلوب وهم لنور العلم يبثون، فأنا من صميم قلبي ملكٌ له، وبما في نفسي من الأمل في خدمته يوماً ما تجدني مغتبطاً ومعتزاً بالانتساب إليكما يا أبي.

* * *

الفصل الثاني

الشباب والحب

رسالة إلى أمي

أميّ الحبيبة

إني منذ عرفت نفسي أبثك جميع ما يسوءني وما يسرني، وما أكره وما أحب وأكاشفك بالخير والشر ولا أكتم عنك شيئاً، حتى أني لما كنت بحضرتك ما كنت في حاجة إلى البيان، لأنك كنت تطالعين أفكاري في عينيّ، وتبصرينها تجول على جبيني، وهذه أول مرة لي في حياتي أسررت فيها سراً... وليت شعري.... هل أبوح به؟ أم أبثه إلى القمر؟ لا! فقد سمع كثيراً من أمثاله، أم أكنُّه في قلبي؟ أو أكتمه في طيّات سريرتي، ما أنا بفاعل شيئاً من ذلك بل أريد أن أودعه صدركِ الحنون يا أمي!

* * *

على أن الإفضاء به ليس من السهولة بمقدار، يبدو أني كنت واهماً!

فإني ما أنشأت أخط هذه السطور الأولى من خطابي، حتى ارتعشت يدي، وخفق قلبي، ولست أخالك إلا ساخرةً مني، ولكن أقل ما أنا واثق به منك إنكِ لن تغضبيّ عليّ، فقد أصدقتك في خبري. وإذا كان ولا بد من إفشائه فهو: أني أحب!!

وأراكِ الآن تسألينني: من هي التي تحبها؟ وأين رأيتها؟ وأين عرفتها؟ وفي كل هذه الأسئلة ما يزيدني حيرة وارتباكاً! وهذه قصتي....

* * *

في مدينة بون مسرح من الدرجة الثانية، غير أنه مشهور بحُسن اختيار مسرحياته التي يعرضها لبعض كبار الكتّاب، وهو يعرض الأغاني والأوبريت في يومين أو ثلاثة من أيام الأسبوع، وأنا أذهب إليه في بعض الأحيان لسببين: أولهما ترويح نفسي من عناء الدرس، وثانيهما لأتعود على سماع اللغة الألمانية.

فمنذ شهر، بدأت مطربة بافارية شابة تعزف على البيانو، ثم غنّت أغنية عاطفية، فبلغت من الإجادة حداً لا يوصف، وكان جميع الحاضرين وبينهم لفيف من طلبة الجامعة، يلهجون بذكرها كأنها آية من الآيات، فجريت معهم في مساق الإعجاب بها، ولما انطلقت إلى المسرح ورأيتها داخلة، كان كلي عيوناً تبصر، وآذاناً تسمع، وليس صوتها الساحر هو الذي شدّني إليها مع كونه من أندى الأصوات وأندرها، بل الذي ملأني إعجاباً هو ما في غنائها من الروح، بل ما في جمالها من الحُسن والإتقان، فلم أملك نفسي وكنت أردد، سبحان الله خالق هذا الجمال ومبدعه، سبحان الخلّاق العظيم.

* * *

فبت ليلي كله أحلم بها يا أمي، ولا يفارقني طيفها، وكنت أراها بين الأفلاك السماوية، وأسمع صوتها الملائكي على أنغام الكواكب الموسيقية، ها هو آتٍ عبر الفضاء... يملأ الدنيا بنور الحب.. أشعر أن كل شيء حولي يحب.. وأن الدنيا كلها تشاركني هنائي بهذا الحب وما أنا فيه من النعيم.

* * *

ولخوفي من انقضاء إعجابي بها في الأيام التالية، عاهدت نفسي أن لا أذهب إلى المسرح في الأيام التي تغني فيها، ولكني ما استطعت أن أوفي بعهدي!

وقد ذهب عني خوف إفراطي من التحمُّس في حبها بما اكتشفته فيها على توالي الأيام من الخصائص الجمّة والتي لم أكن لاحظتها من قبل، ولا بد من الاعتراف لكِ بأني كنت أجلس في الصف المواجه لها عندما كانت تغني، بحيث تراني، وأحسب أن عيوننا قد تلاقت مرة أو مرتين.. وآه من

لحظ العيون! ومع أنها كانت تطيل الغناء. . . كنت دائماً أجده في غاية القصر وأغادر مقعدي في ختامه وقلبي مفعم بما لا يوصف من الاضطراب.

* * *

خطر في ذهني أن أخاطبها بأبيات من الشعر أنظمها وأرسلها غير موقعة مني على يد خادمها الهرم، ففعلت، وكنت أقول في نفسي وقت نظمها: أقل فائدة لي منها أن تعلم أن واحداً من الناس يحبها، ولكنها كانت أبياتاً متواضعة، وأقرّ بأنها ما كانت تؤدي نصف ما كنت أضمره لها من عواطف الميل، وهذا ما دعاني إلى عدم اعتقاد صحة ما قيل: من أن الشعر من لوازم الحب! كما قرأته ذات مرة في بعض الكتب.

وليس في قدرة أحد ـ حاشا المصطفين من الخلق ـ أن يعبر عن كل ما يجده في نفسه، ويا ليتني كنت واحداً من هؤلاء النوابغ الممتازين!

* * *

كنت في مساعيّ للتقرّب من هذه الفتاة واقفاً عند الحد الذي بينته لكِ، فبينما أنا في يوم من أيام الآحاد أجوب المنتزه الذي تجتمع فيه نساء المدينة في نحو الساعة الثانية بعد الظهر إذا بها أقبلت آخذةً نحوي في شارع موازٍ ضيق، فخطر ببالي أولاً أن أتنكب هذا الشارع بسلوك إحدى السبل المقاطعة له لأنه كان يخيل لي أني سأصعق مما قام بنفسي من ضروب الانفعال والاضطراب، فلم استطع المقاومة، غير أني تثبت ومشيت مشية الجندي الباسل الذاهب إلى حومة الوغى فرأيتها في حُلّة بالغة من الرونق غايته على بساطتها، واربـاه! كم وددت لو كنت في تلك الساعة منديلاً أو زهرة في يدها؟! أو مظلتها التي تقيها حرّ الشمس؟!

أقول ذلك وأنا أعلم أنه كان مني قبيحاً ولكن لا ينبغي أن أكتم عنك شيئاً من مواطن ضعفي.

* * *

في لغة العيون. . خاصة الجذب فإني كنت أشعر من لحظي إذا دنوت إليها أن كله إقرار وتصريح بالحب، ولمّا مرّ كل منا بجوار صاحبه جرى على

وجهي لآلاء حُسنها كما يجري لمعان البرق، ولم أجسر على الالتفات خلفي إلا بعد أن جاوزتهـا بثلاثين خـطوة فرأيتهـا قد بعـدت عني مهرولـة، غير أني بصرت في المسافة التي بيني وبينها بشيء أبيض يخفق خفقان جناح الحمامة من صفق الريح إياه، فما تريثت في التقاطه فإذا هو منديلها قد سقط منها، أو تعمدت إسقاطه. . لا أدري.

فعدوت خلفها ودفعته إليها، فأظهرت الدهش من ضياعه، وتلطفت في إسـدائي الشكـر على رده، وراقني أن سمعتهـا تُحسن الكـلام بمـا ينمُّ عن سعادتها بوجودي، فلاح في ذهني أن أعرّفها إلى صاحب الشعـر الذي أرسـل إليهـا ولكني كنت من شدة الاضـطراب الـذي استـولى على نفسي بحيث لم أستطع تحريك شفتي بكلمة وخشيت أن تكون حسبتني أبله!

* * *

يـزعم العارفـون بطبـائـع الإنسـان أن الـذاكـرة لا تحفظ الـروائـح. . . وعـذرهم في ذلك أنهم لم يحبـوا في حياتهم، فـإن منديلهـا وهـو قـطعـة من النسيـج الرقيق كـان يتضوع عن عـطر لطيف لن أنسـاه ما دمت حيـاً. . . وفي اليوم التالي لهذا اللقاء انطلقت إلى ما حول المدينة من الرُّبى الزاهرة فجنيت باقةً من ألـطف ما وجـدته من الـزهور البـريّة وأدلّهـا على العفاف، ولمـا حان موعدها في الغناء، خبأتها داخـل لفافـة واحتفظت بهـا، وأخذت مجلسي في المسرح أول الصفوف بين المتفرجين، فغنّت كعادتهـا بصوت يسمـو بسامعيـه إلى السحـاب، ولكن كان يخيّـل إليّ أن هذه المـرأة التي لاقيتها في الـطريق هي أجمل ما رأيت بل أجمل ما في الدنيـا كلها، وكم كـان استعدادهـا للغناء مثيراً للإعجاب!

وبعد أن انتهت من غنائها وانصرفت استعادها جميع السامعين، فهطلت حولها باقات الزهور. . .

. . . وآن لي أن أُلقي إليها باقتي فاهتممت غاية الاهتمام بأن تراني عند إلقائها مع تظاهري بالاختفاء خلف جيراني من الحاضرين.

وما أدراك ما فعلته حينئذٍ؟ لقـد أهملت كل مـا ألقاه غيـري من الزهـور النـادرة مثـل زهـر الكـاميليـا والتين الهنـدي والـورد. . . وعمـدت إلى بـاقتي

المتواضعة. . . . . . . فتناولتها وضمتها إلى قلبها. . أفلا ترين في ذلك برهاناً على حبها لي؟

* * *

ستقولين لي: أنت لا تعرفها وقد تكون مخالفة تمام المخالفة لما تخيلته منها، وأنه كان ينبغي لك قبل أن تعلل نفسك بالأماني والأوهام أن تكون على بيِّنة من خُلُقها وكيفية معيشتها؟ فأجيبك أن هذا أيضاً لم يفتني، وأقرّ بأني لم أقف من تحرّي سيرتها إلا على أخبار لا يزال فيها شيء من الغموض، ولم يجتمع لديّ في هذا الصدد إلا أقوال في غاية التعارض والتناقض، فأنت تعلمين مقدار ما للشباب فيما بينهم من القسوة على النساء ولا سيّما الممثلات والمطربات!

* * *

فقد بلغ الحسد من إفساد خُلُق الإنسان إلى حد أن جعل من لذّاته تمزيق أعراضهن مع ما لهن من الملكات التي هي مناط الاستحسان العام، ولست بمخف عنك شيئاً مما يقولون: فبعضهم ينسب لها من هنّات الشباب ما يغيّر دمي ويثير غضبي، وبعضهم يقول: إنها تعيسة مع أمها في حي منعزل عن المدينة، وقد أراني الطلبة هذه الأم تصحبها ليلاً عند خروجها من المسرح فلم أجد بينهما مشابهة ما، وإن أردتِ الوقوف على شيء من نعتها فتخيّلي امرأة ضخمة من عامة النساء قد ذرّ شاربها، وإني لمتألم من تصوّر أن مثل تلك الزهرة قد نبتت من هذه المذرة!

ومهما يكن من وضاعة أصل هذه الفتاة، فمن الفضل أن تُعامل بجميع ما يجب لفتاةٍ مخلصة مثلها من صنوف الرعاية والتكريم.

* * *

على أننا إن سلمنا حصول أسوأ ما يتأتى حصوله منها وفرضنا أن سيرتها لم تكن دائماً مرضية، أفلا يكون الذنب في ذلك على مهنتها وعلى من يعاشرونها من الناس؟ إني أراها بالغةً من الظَّرْف والكياسة مبلغاً استبعد معه أن لا تكون لها نفس ذكية، وربما لم يتفق لها في حياتها أن تمثل لها الحُبّ الصحيح المطهّر للنفس بشراً فاضلاً كريماً.

واأرباه! أي فخر أناله لو أُتيح لي أن أمدّ يدي إلى تلك الروح الملكية فانتشلها من درك الانحطاط الذي هبطت فيه لتعود إلى نور الهُدى والفضيلة.

ها أناذا قد كشفتُ لكِ مكنون سِرّي، ونجوت بهذا الاعتراف من شديد زجر سريرتي، والآن دعيني أُقبِّل يديك راجياً منك غفران خطيئتي.

* * *

رسالة إلى ولدي الحبيب

وجوب عدم تدخل الوالدين في حب ولدهما وتلطف الأم في نصحه وبيان انخداعه

بنيَّ الحبيب

لقد راقني منك يا بني العزيز صراحتك وموافقة سرِّك لعلانيتك وأني مجتنبة كل الاجتناب ممازحتك في غانيتك التي تظن بها أمانيك ومع اعترافي بأن ماقصصته عليَّ من شأنها لا يخلو من أمور تدعوني إلى التفكير وتبيح لي أن أنبهك في أمرها إلى تفاصيل أخالها مريبة، أتحامى أن أجرِّد تلك الأمانيَّ من زهورها وأعرِّيها من روائها، فليس عليك إلا أن تتذكر أنك شاب غرٌّ لم تختبر شيئاً من أمور الدنيا، وأنك وأسفي: لسرعان ما تتعلم أن لا تغترَّ بالظواهر. وعسى الله أن لا يجعل في ذلك خساراً عليك.

* * *

قد تعاهدت، أنا وأبوك على عدم التدخل في حُبِّك بحال من الأحوال فأنت حينئذ تأمن ضروب عذلي وتأنيبي، ولكنك بما صرت وليّ نفسك مسؤول عن جميع ما يقترفه قلبك في سبيل الحب من الآثام، وأعلم أن من هو في مثل سنك يكون شديد الارتياح إلى عدم الاغترار والانخداع فكم بشاب يحسب من الحب ما ليس هو إلا اضطراباً في مشاعره وسراباً يبدو لحواسه لأن الحب الصحيح هو الاستيلاء على نفس المحبوب ولا يبلغه إلا من كان حقيقاً به وأهلاً له.

* * *

لم يعلق بنفسي أدنى أثر مما للناس في الممثلات والمطربات من الأوهام، وإنهم لظالمون في حكمهم على كثير منهن، وحاشا أن أحكم على تلك المطربة التي فتنتك بمحاسنها وأنا لا أعرفها، وإنما أنبهك إلى أنك ليس لك حتى الآن أدنى وجه صحيح في أن تستنتج من بعض أحوالها معك أنها تفضِّلك على غيرك من عُشَّاقها، فمن غرور الشبان أن يعتقدوا أنهم محبون لأنهم محبوبون. على أني أسلّم لك أن قلبها ملبّ لعواطفك فالذي تعرفه منها والذي تتلمسه من وراء حبها ليس من الخصائص المقوّمة للمرأة في شيء، لأنك إنما تعشق منها غناءها وحسنها ودعابتها وهي مزايا تستفيد العامة منها أكثر مما يستفيده الرجل الذي قد تصير صاحبة له، فهل تدري ما يبقى لتمثال حبك الذي تعبده من المحاسن إذا زال عنه زخرفه ورونقه وغرور العشق وخداعه؟

* * *

أنت نفسك فيما يظهر لي مرتاب من ماضيها لأنك تتمنى لو أُتيح لك إنقاذها من الدرك الذي هي فيه، وهي فكرة كريمة جعلها أدباء العصر بدعة من البدع، ومعاذ الله، صيانة لشرف المرأة نفسه، أن أعتقد أن ذنوبها لا تُغتفر، بل أسلم ما قلته من أن الحب قد يمحو بعض الأدناس، ولكنا لا نعلم كثيراً من أمثال النساء أُبْنَ إلى الرُّشد، وتُبْنَ بعد الغيّ.

* * *

ثم إني لا أظنك فكرت فيما يعترض مقصدك الدال على نُبل أخلاقك من الصعوبات والعوائق، فإن إنقاذ الخاطئات الذي يحسن الطيش لبعض الشبان ماهو إلا غروراً يدّعونه لأنفسهم يلابسه في معظم الأحيان من الكِبْر والعُجْب أكثر مما يصاحبه من الإخلاص الحقيقي، فكأنهم بهذا يعتقدون أن ملائكة العشق اللاتي هبطن إلى حضيض الرذيلة ليس لهم من الصلف والإباء مثل ما لهم.

* * *

إن من يحاول ذلك العمل يجب أن يكون بالغاً من قوة النفس، ولطف الذوق مبلغاً عظيماً يسمو به عن الغض من المرأة الخاطئة وإذلالها. ثم هل

أنت في سنِّك هذه تـأنس من نفسك قـوة وأقداماً على كتمان الغيـرة؟! فإنهـا تبكيت ومؤاخـذة للمـرأة التي لم تكن طـول حيـاتهـا عفيفـة؟! وهـل لـك من السلطان على نفسك ما يكفي لإخفاء ما يكون في معظم الأحيـان مثاراً للريبـة منك؟ وهو ندمك على إجلالك لمثـل تلك المرأة م أنـه لا يُسْمَحُ بـه عادةً إلا للذكيَّة الطاهرة؟!

فإذا كنت لم تستكمل هذه الصفات، فخـلِّ الجهاد عنـك لأنه لا يكـون من ورائه إلا زيادة من تزعم إنقاذها خُسْراً.

* * *

من الأمهات من يكتبن لأبنائهن في هـذا الموضـوع على أسلوب مغايـر لهذا تمام المغايرة، فقد يؤنبنهنّ ويجتهـدن في تخويفهم من عواقب طيشهم، وغيـر الأمهات ربمـا لا يرين كـل هذا إلا مقـدمةً لـواقعة من الـوقائـع الشائـع حصولها بين الشبان، وهفوة عادية من هفـوات الطلبـة، وربما قلن فـوق ذلك وهن مبتسمات:

تهوينا تهوينا فمن الواجب إقالة عثرات الشبان. وأما أنا فأعلم أنك جاد فيمـا كتبت وإلاّ لما أفضيت إليّ بسـرك ولهذا أجبتـك بالجـد، ولست أخـاف عليـك إلا أن تكون خـدعت لما في خيـالك من التـوقد الـذي هـو من لـوازم سنِّـك، ومن العبث القول بـالتسـامح في أمـر الحب فليس أحـد يسلمٍ عليـه بـالاستخفاف بـه، لأنه إذا لم يرفـع النفس ويُزكيهـا فإنـه يسفِّلهـا ويُـدَنِّيهـا، وحسبي ما قلته في هذا الموضوع فلا أزيدك عليه شيئاً.

* * *

أستـودعـك الله يـا بنيّ العـزيــز، وأوسـع صـــدري على الـدوام لتلقي أسـرارك، ومشاركتـك في آلامك، وأبعثٍ لـك في هـذا قُبْلَةَ الحُبّ الـذي لا يتغير، آلا وهو الحُبّ الذي لك في قلب أمك.

* * *

رسالة إلى أمي

والدتي العزيزة

لقد كان قولك حقاً أيتها الوالدة العزيزة فإني قد خدعت نفسي، ولا حق لي في الشكوى، على أي حال؛ ممن كنت أحبها لأنها لم تكن التزمت لي شيئاً، ولا وعدتني الصدق في حبي بل هي بما كانت مغمورة فيه من ضروب التبجيل والتكريم تفضّلت فقبلت مني اعتباطاً صنوف إجلالي، ودلائل إعظامي، وقد كان هذا منها لي تشريفاً كبيراً وأظن أن من كفران نعمتها أن أتهمها بخيانتي فإنه لم يكن من ذنبها أن كنت جاداً فيما لم يكن يأتيه غيري ألا هازلاً.

* * *

غير أني إن قلت لك إني كنت أفكر في أمرها دائماً على هذا النحو كنت كاذباً، فإن الصدمة التي هدمت صرح غروري بها تلتها ساعة وهن وذهول خُيل إليّ فيها أن السماء خرَّت على رأسي، وصرت كأني في حيز الفناء.

قد تقولين لي: إنك لست أول من ابتلي بخداع الحب من انكشاف الأباطيل وزوال الأوهام، وهو قول لا ريب عندي في صحته غير أن ما ينتاب الإنسان لأول مرة في حياته يخيَّل له أنه لم يحصل لأحد غيره في الدنيا، فكنت أسائل نفسي: هل يمكن أن يوجد في البريّة من يبلغ مبلغها في الخيانة؟

أوليس الحُسن إلا نقاباً للنفاق؟ وأقول إنها لشدّ ما سخرت مني لسلامة نيتي وسرعة تصديقي. . . وأحسُّ بقشعريرة الغيرة تدبُّ في جسمي حتى تبلغ نخاع عظمي.

* * *

وأول يوم قامت بنفسي فيه الريب من صدقها فررت من المدينة هائماً على وجهي كالمجنون أخبط خبط عشواء، وقد تعاقبت على بصري في مسيري مشاهد جمة من سنابل القمح المدركة، وغابات المغربة، وما في الهواء من الروح الخافق وجداً وحباً؟ والمزارع والطواحين التي تنكشف للرائي في أمكنة مختلفة من خلال حجب الأشجار وقد مزقتها يد الريح، وخرير الماء المتدفق من ينابيعه المنتحبة تحت الخضرة، والديكة المغتبطة المتغطرسة واقفة أعلى الدرج ورافعة عقيرتها بزقائها النفاذ في كبد السماء، وأسراب العصافير ثائرة متعاقبة، في الجو متنافرة، وغير ذلك من المناظر التي لولا هذه الأحوال لهزت نفسي وشرحت صدري، فلم تلفتني عن هذه الفكرة الثابتة في ذهني وهي أنها تغشني.

* * *

ولما رجعت إلى المدينة كان الليل قد جن فلمحت شبحاً مبهماً يسري وجدران البيوت كأنه ظل، فلما بلغ منعطف الشارع سقط عليه ساطع نور الغاز المنعكس فأراني أنه فتاة شاحبة اللون رثة الثياب تحمل طفلاً على يديها، ولست أدري تمام الدراية لما خطر بفكري لرؤيتها أنها خدعت ثم هجرت وسألت نفسي سؤال محنق هل تنقسم النساء في هذه الأيام إلى طائفتين طائفة خادعة وطائفة مخدوعة؟.

تأثرت بهذه الفتاة بعضاً من الزمن يجذبني إليها نوع من العطف لا أعرف سره حق المعرفة، فلما كانت تمر على نور المصباح كنت أخالني أقرأ في وجهها خاطر الانتحار، وقد كنت من تسخطي لحالتي بحيث أني كنت أود لو أجد السبيل إلى عمل من أعمال البر. وما عتمت الفتاة أن دخلت في مأزق من حارات ضيقة مظلمة ينتهي إلى فناء تكتنفه أطلال دارسة وفي ركن من هذا الفناء بئر سدت فوهتها بغطاء غليظ من خشب مسوس مشقق فرفعت

الغطاء بإحدى يديها العاريتين واتكأت بمرفقيها على فم البئر وأرسلت بصرها في غيابتها وعليها سمة القنوط، وفي هذه الساعة انفلت القمر من قبضة السحاب فألقى نوره الأغبر على بلاط الفناء المتوحِّل، وكنت إذ ذاك مختفياً خلف جزء من جدار أتتبع جميع حركات الفتاة المسكينة بإمعان لأني لم يكن عندي ريب في أنها قد صممت على الانتحار وكنت أقول في نفسي، أقل ما في الأمر أني ها هنا لأمنعها منه وما كنت أجسر حتى هذه الساعة أن أظهر لها خشية أن تزيدها رؤيتها لمن شاهدها في هذه الساعة غضاضة وذلة، فبعد أن تروت هنيهة كان جنبها الكئيب في أثنائها مسرح الانفعال والاضطراب نظرت إلى ولدها وهمهمت بكلمات مبهمة وهي تهز رأسها ثم هرولت داخلة أحد الأكواخ الحقيرة وأغلقت بابه عليها.

* * *

هذا كل ما علمته ويُحتمل أن يكون كل ما سأعلمه من أمر هذه البائسة في حياتي، وقد كنت تلك الليلة غير أهل لفعل الخير إذا فرض أن من الخير تنجية نفس من الموت كانت تؤمن بالحب ثم اضطرت إلى الكفر به ولعنته.

* * *

كأني بك تسألينني: كيف ظهر لك أنك كنت ألعوبة لهوى امرأة طائشة أجيرة؟

فأستأذنك في تنزيهك عن سماع تفاصيل هذا الأمر لأنها لا تليق بك، ويكفيني في ذلك أن أخبرك بأنها كانت تحرض طالبين أو ثلاثة غيري على التقرب منها في وقت واحد بقبول مساعيهم وهذا بغض النظر عن أمير يُقال إنها تحبه لماله، فليت شعري! هل أبصر أحد في حياته نظيرة لتلك المرأة؟

* * *

لم يكن همليت[1] مثلي في سوء الحظ لمّا كان يقول لمعشوقته «أوفيليا» «أيتها المرأة اسمك الخور» فإن اسم صاحبتي هو المكر والغش والكذب.

---

(١) همليت: هو أمير جوتلاند الذي تظاهر بالجنون ليأخذ بثأر أبيه الذي قتله أخوه بالسم وهو الذي كتب عنه شكسبير قصته التمثيلية المشهورة وجوتلاند شبه جزيرة بالدنمارك عدد سكانها ٩٤٢٣٦ نفساً وعاصمتها فيبورغ.

هذا هو التمثال الذي بخرته ببخور أمانيّ وجعلت لـه بين الآلهات العفيفات مكاناً، وكنت أتمنى لو دنت مني الكواكب. فانتزعها من نظامها، ونظمت لـه منها إكليلاً. على أن لي أمـراً يسليِّني وهـو أني لم أدنس الحُبَّ في حـال جنوني به.

* * *

فاعلمي يا أماه أنه لا يزال من حقي أن أنظر إليك غير خجل لأن خطيئتي إنما كانت سوء حكم لا ارتكاباً لشيء من المعاصي، ولكن هذا لا يقلل من استماحتي لعفوك فاغفري لولدك هفوته حتى يمكنه أن يغفرها لنفسه.

* * *

رسالة إلى ولدي الحبيب

غرور الشباب في الحب وبيان حقيقته

ولدي العزيز

أعلم يا ولدي العزيز أن ما نقع فيه من ضروب الغيّ هو الذي يهدينا سبيل الرشد، وأن ما نقترفه من الذنوب هو الذي ينبئنا؛ إذا تألمت منه ضمائرنا؛ بأن لنا في نفوسنا قانوناً زاجراً، وأن الحكمة في رأيي هي أن نستفيد من كليهما لنتعلم.

* * *

لم تدهشني نهاية قصتك، وسأتحامى كل التحامي أن أعيب سيرتك فيها لأنك قد عبتها بنفسك، ولم يكن كل ما كان في وسعي تأديته إليك من النصائح قبل ختامها المحزون ليساوي ما وعظتك به تجربتك الذاتية. إن في أمور الكون لعدلاً وإن الدهر يضطرها إلى أن تظهر للناس على حقيقتها، وإن كان يلذ لمخيّلة الإنسان أن تزينها بالألوان المموهة وتغشيها بالأستار الحاجبة، وبهذا كان الدهر أستاذنا جميعاً.

* * *

على أني لم أقرّ لك بأن مكتوبك الأول سبّب لي أشدّ ضروب القلق والحيرة كنت قد كنفتك بعض الحق. نعم كان لي من الثقة بطيب عنصرك وبما أعرفه فيه من أصول الشرف ما كان يكفيني للاطمئنان بأنك لا تتسفّل لارتكاب معصية ما، ولكني كنت أخاف عليك وأنت في هذه السن خدع القلب، وجمحات العُجْب المفتون، وأمانيّ البسالة الخادعة، فمما يوجب

الأسف أن أصدق الناس في الحب وأخلصهم له، هم كذلك أشدهم تعرضاً لمخاطر دسائسه، وأما الشبان الذين يتخذون ما عليه الناس قدوة لهم في سيرتهم فإن قلوبهم الجامدة لا تُخدع بكذب الظواهر، وهم الذين نجعل لهم الحب المفتون، كما جُعِلت الخمر المعتّقة للسكيرين.

* * *

تراهم يبذلون الهمة والنشاط في تحصيل الغبطة أكثر مما يلزم، وهم مع هذا في أسوأ عيش وأنكره. هؤلاء الجوالون في ميدان الغرام، المتعاطون لدسائسه، قد اعتاضوا عن الحب بظله، أعني الظرف والكياسة في معاشرة النساء؛ وإن خسّة عواطفهم لتدل على خلوهم من الإدراك، وهم شبيهون عندي بأشجار الصفصاف الجوفاء التي تصادف على حافة الأنهار الصغيرة، في أنها تتعفّن قلوبها حتى لم يبق حياة إلا في قشورها.

* * *

الأمم التي لا تجل رجالها نساءَها ولا نساؤها أنفسهن غير جديرة بالحرية، يدلك على ذلك أن جميع عصور الاستعباد وانحطاط النفوس كانت في عصور فساد الأخلاق والانهماك في الرذائل،فإذا زالت هيبة الدين من النفوس وانعدم إحساس الناس بما عليهم من الفروض الكبرى رأيت الناشئين إذا أعوزهم، ما يضيعون فية أوقاتهم يتصيدون الملاذ السهلة، فاربأ بنفسك عن هذه الردغه[1] فلا مقر لك فيها.

* * *

إني ربما كنت أعرف منك بنفسك لأنه يتفق كثيراً لمن هم في سنك أن يضلوا فيشطوا في طلب مثال من الواقع لما يتخيلونه من منتهى الكمال فيمن يريدون أن يجعلوها مناطاً لحبهم وهو قريب المنال منهم حاضر بين أيديهم أرى أنك فوق حنقك فوق من غرتك نادم على أن كنت غير صادق في محبتك، فتأمل في باطن ما تحفظه ذاكرتك تجدني قد أصبت المرمى فيما أقول، فإنك تعلم بوجود ذات من أترابك تفكر فيها ولا تتكلم في شأنها وتذكر

---

(١) الردغة: الماء والطين والوحل الشديد.

ملامح وجهها وابتسامتها وجرس صوتها وكل ما يتعلق بها حتى ثنيات حلتها تمام الذكر، وأن مثالها الطاهر ليسري سريان الشعاع فوق كتابك إذا فتحته لتقرأ فيه ما صنفه الشعراء، وأنت تود لو تشاهد معها كل ما في الكون من الجمال وتسمع جميع ما للبرية من الاغاريد، وهي التي ينطبق عليها ما تتخيله من معنى الفضيلة وتود من أجلها لو تكون أفضل الفضلاء فتلك الذات هي التي تحبها. فإن لم تأنس من نفسك شيئاً من هذا لم تكن حتى الآن إلا طفلاً لم يأن لك أن تعتقد في نفسك أنك محب، فالحب الحقيقي هو الذي يدفع النفس ويبعث على طلب الخير وعلى أن يقتضي المحب من نفسه لمحبوبه كل ما يقتضيه لنفسه منه لأن الحب هو إنصاف القلب.

* * *

فإذا تربصت حتى يحصل في نفسك هذا الوجدان الطاهر فإياك أن تدنس اسمه بإجرائه على لسانك قبل حصوله وإلا ندمت فيما بعد أن لوثت شفتيك بالكذب.

* * *

وللشباب خطأ أخر في الحب وهو توهمهم أنه إذا حصل بدسائس ووقائع كالتي تروى في القصص إزدادت لذته وكثر الابتهاج به. فليس الأمر كما يتوهمون لأن في الحب من العظمة الذاتية ما يغنيه من زخارف الخيال. فالفلاح البار إذا راح إلى بيته مساءً بعد الفراغ من عمله وجلس ليتناول مرقته وأخذ يلحظ زوجته وهي تغزل أو تخيط بجانب المصطلى ثم يمسح رؤوس أولاده غلاظ الوجنات منادياً كلا منهم باسمه ويذكر في نفسه زمن ترقبه لزوجته «جنة» يوم الأحد في ظل شجرة الدردار الكبرى في المزرعة، ويراها لا تزال غضة الحسن موفورة الشباب كان أبهج خيالاً أضعافاً كثيرة من حظيّ إلاهة من إلاهات الحب الجديدة.

* * *

الشباب هو سن الأماني والأحلام، وطور الخيالات والأوهام ثم أن كثرة المطالعة لا ثمرة لها في أغلب الأحيان إلا إفساد حكم القلب، على أن الحب في غاية الغنى عن القصص الخرافية لأنه عبارة عن تاريخ لأصح ما في فطرتنا

من ضـروب الوجـدان وأشدهـا استقلالاً. فـويل لمن لا يعشق ويتـوله إلا في الحلم لأنه لا يلبث أن ينكشف وهمه إذا حان وقت انتباهه.

* * *

يجب عليك قبل اهتمـامك بـاختيار امـرأة تحبها أن تـوجد لنفسـك بين الناس مقاماً، فإن كـل عمل تعمله في سبيـل تحصيل العلم ورفـع شأنـك في نظر نفسك ومغـالبة مـا للأثـرة من أنواع الميـل الأعمى وبلوغ ما لـلإنسان من الشرف يفيد المرأة التي ستحبها كما يفيدك، وكن واثقاً بأن هـذا لا يعدُّ منـك في حقهـا كثيراً إذا كـان يهمك أن تكـون أهلاً لإجـلالها لـك حفظاً لشـرفـك وصوناً لعرضك.

* * *

حاشية:

فاتني أن أخبرك بـأن ابنة عمـك أسماء قـد نجحت في الثانـوية العـامة وحصلت على مجموع كبير، وكانت من أوائل القسم العلمي... وقد تقدمت بأوراقها لكلية الطب جامعة القـاهرة... وأملي أن تكـون في عداد الـطالبات المقبـولات بكلية الـطب هذا العـام، ولا تنس أنهـا تـربت في حجْـر الفضيلة مثلك... وكلنا نحبك.

* * *

الفصل الثالث

«وصية من الحياة»

من عيون التراث العربي

كيف تتعامل مع الناس؟

يا بني!

عليك بتقوى الله عز وجل وطاعته، وتجنّب محارمه باتباع سنتـه، حتى يصح عيشك وتقرّ عينك، فإنه لا يخفى على الله خـافية وإني قـد رسمت لك رسماً، ووسمت لك وسماً إن أنت حفظتـه ووعيته وعملت بـه ملئتُ بك أعين الملوك، فأطع أباك واقتصر على وصيته، وفرّغ لذلك ذهنك، واشغل به قلبك ولُبّك.

«وإياك وهذْر الكلام وكثرة الضحك وممارة الإخوان، فإن ذلـك يُذهب البهاء، ويوقع الشحناء».

«وعليك بالرزانة والـوقار من غيـر كِبْر يـوصف منك، ولا خُيـلاء تحكى عنك».

«وألق صديقك وعـدوك بوجـه الرضـا وكف الأذى من غير ذلـةّ لهم ولا مهابةٍ منهم».

* * *

«وكن في جميع أمورك أوسطها، فإن خير الأمور أوسطها».

«وأقلل الكـلام وافش السلام، وامش متمكنـاً، ولا تخطّ برجليـك، ولا تسحب ذيلك، ولا تلقِ رداءك، ولا تنـظر في عـطفيـك، ولا تكثـر الالتفــات وراءك، ولا تقفُ على الجماعات».

«ولا تتخذ السوق مجلساً، ولا الحوانيت متحدثاً، ولا تكثر المراء، ولا تنازع السفهاء».

«وإن قضيت فاختصر، وإن مدحت فاقتصر».

«وإن جلست فتربع، وتحفظ من تشبيك أصابعك، وتفقيعها، والعبث بلحيتك وخاتمك، وذؤابة سيفك، وتخليل أسنانك، وإدخال يدك في أنفك، وطرد الذُباب عن وجهك، وكثرة التثاؤب والتمطي وأشباه ذلك مما يستخفه الناس منك ويتغمزون به فيك».

* * *

«وليكن مجلسك هادئاً، وحديثك مقسوماً».

«واصغ إلى الكلام الحسن ممن يحدثك من غير إظهار عجب منك، ولا تسأله إعادة».

وغُضّ عن الفكاهات من المضاحك (النكات والحكايات) ولا تحدّث عن إعجابك بولدك ولا خادمك ولا عن فرسك وسيفك»(يعني خصوصياتك).

«وإياك وأحاديث الرؤيا فإنك إن أظهرت الفرح بها والتعجب منها، طمع فيك السفهاء، فولدوا لك الأحلام واغتمزوا في عقلك».

«ولا تصغ تصغِّي المرأة، ولا تبذل تبذّل العبد، وغب بامتشاط لحيتك، وتوق نتف الشيب، وكثرة الكحل، والإسراف في الدهن وليكن كحلك رغباً (قليلاً)».

«ولا تلح (لا تكن لحوحاً) في الحاجات، ولا تخضع في الطلبات».

«ولا تُعلم أهلك وولدك فضلاً عن غيرهم عدة مالك، فإنهم إذا رأوه قليلاً هُنت عليهم، وإن كان كثيراً لم يبلغ به مرضاتهم، واجْفِهِم من غير عنف ولِن لهم من غير ضعف».

«ولا تُهازِل في حاجتك أَمتك ولا عبدك فيسقط وقارك من قلوبهم».

* * *

«وإذا خاصمت فتَوقّر وتحفظ من جهلك، وتجنب عجلتك، وتفكّر في حجتك، وأري الحاكم بينكما حِلمك، ولا تكثر الإشارة بيدك، ولا تحفر على رقبتك (تجنب حك الرقبه)، وتوقّ حمرة الوجه وعرق الجبين، وإن سفه عليك فاحلم، وإذا هَدَأ غضبك فتكلم، وأكرم عرضك، وألقِ الفضول عنك».

«وإن قربك السلطان فكُن منه على حد السنان، وإن استرسل إليك فلا تأمن انقلابه عليك، وأرفق به كل رفقك، وكلّمه بما يشتهي ما لم يضيّع في ذلك حقاً من حقوق الله، ولا يحملنّك ما ترى من إلطافه إياك وخاصّته لك؛ أن تدخل بينه وبين أحد من أهله وولده وحَشَمه إلا بخير».

«وإن كان لذلك منك مستمعاً، وللقول منك فيه مطيعاً، فإن سقطة الداخل بين الملك وأهله صَرْعَة».

«وإذا وعدت فحقق، وإذا حدثت فاصدق، ولا تجهر بمنطقك كمنازع الأصم، ولا تخافت كمخافتة الأخرس».

«وتخيّر محاسن القول بالحديث المقبول، وإذا حدثت بسماع فانسبه إلى أهله، وإياك والأحاديث الغريبة المستبشعة التي تنكرها القلوب، وتقف لها الجلود».

«وإياك ومضاعف الكلام نعم نعم ولا ولا وأجل وأجل وما أشبه ذلك».

* * *

«وإذا توضأت فأجد عرك كفيك، ولا تتنخع، وليكن طرحك للماء مِن فيك مسترسلاً، ولا تمجه (تلفظه بعد أن تلوكه) ولا تعضّ بعض اللقمة ثم تعيد ما بقي منها فإن ذلك مكروه، ولا تكثر الاستسقاء على مائدة الملوك، ولا تعبث بالمشاش، ولا تعبّ طعاماً، ولا شيئاً مما يقرب على المائدة من بقلٍ أو خل أو تابل أو عسل فإن أصحابه صيّرت لنفسها المهابة».

«ولا تمسك إمساك المسكين المثبور، ولاتبذّر تبذير السفيه المغرور، واعرف في مالك واجب الحقوق وحُرمة الصديق».

واستغن عن الناس يحتاجون إليك».

«واعلم أن الطمع يدعو إلى الطبع (يصير طبعاً وعادة) والرغبة كما قيل تدقّ الرقبة، والأكلة تمنع الأكلات، والتعفف مال جسيم وخُلُق كريم، ومعرفة الرجل قَدْرهُ تشرف ذكره، ومن تعدّى القدر هوى في بعيد الفقر».

«والصدق زين، والكذب شين، ولصدق يسرع عطب صاحبه أحسن عاقبةً من كذبٍ يَسلمُ عليه قائله».

* * *

«ومعاداة الحليم خير من مصادقة الأحمق».

«والزوجة السوء ألد من الداء العضال».

«ونكاح العجوز يذهب ماء الوجه».

«وطاعة النساء تُزري بالعقلاء».

«تشبه بأهل الفضل تكن منهم، واتضع للشرف تدركه، وأعلم أن كل امرىء حيث وضع نفسه وإنما ينسب الصارم إلى صانعه».

«والمرء يُعرف بقرينه، وإياك وإخوان السوء فإنهم يخوِّنون من رافقهم، ويخوِّنون من صادقهم وقُرْبُهم أعدَى من الجرب، ورفضهم من استكمال الأدب».

والإخوان اثنان، فمحافظ عليك عند البلاء، وصديق لك في الرخاء، فاحفظ صديق البليّة وتجنب صديق العافيه فإنه أعدى الأعداء».

* * *

«ومن اتبع الهوى مال به إلى الردى (الهلاك)، ولا يعجبنّك الظريف من الرجال، ولا تحقِر ضئيلاً من الرجال فإنما المرء بأصغريه؛ قلبه ولسانه، ولا يُنْتفعُ منه إلا بأصغريه».

«لا تفرش عِرضك لمن دونك، ولا تجعل مالك أكرم عليك من عِرضك».

«ولا تكثر الكلام، فتثقل على الأقوام».

«وامنح البِشْرَ جليسك والقبُول، وإياك وكثرة التبريق والتلويق والتنويق فإن ظاهر ذلك نسب إلى التأنيث والتصّنع لمغازلة النساء، وكن منتهزاً في فرصتك، رفيقاً في حاجتك، منثبتاً في عجلتك».

«والبس لكل دهر ثيابه، وكن مع كلّ قوم في سلكهم».

«واحذر ما يكون به اللائمة في آخرتك».

«ولا تعجل في أمر حتى تنظر في عاقبته».

«وعليك بالتنوّر في كل شهر، وإياك وحلق الإبط بالنوره» (أي لا تستخدم ما تحلق به العانة في حلق الإبط فإنه يعدي).

«وليكن السواك من طبعك، وإذا استكت فعرضاً».

«وعليك بالعمارة فإنها أنفع من التجارة».

«وعلاج الزرع خير من اقتناء الضرع» (يعني الاشتغال بالفلاحة أفضل من الاشتغال بتربية الماشية فقط).

«ومنازعتك اللئيم يطمع فيك».

«ومن أكرم عرضه أكرمه الناس».

«ومعرفة الحق من إخلاص الصدق».

«والرفيق الصالح ابن عم»(يعني في منزلة ابن العم).

«من أيسر عظم ومن افتقر احتقر».

«قصّر في المقالة مخافة الإجابة».

«والساعي عاتبٌ عليك طول السفر».

«وكثرة المنُى ضلالة».

«وليس للمُعاتب صديق، ولا على الميت شفيق».

«والأدب للشيخ عياء (لا فائدة منه)، والأدب للغلام شفاء».

«والدين أزين الأمور، والشماته سفاهة».

«والسكران شيطان وكلامه هذيان».

«والعادة طبيعة لازمة إن خيراً فخير، وإن شراً فشر».

«ومن حلّ عقداً احتمل حقداً».

«والفرار عار، والتقدم مخاطرة».

* *

«وكثرة العلل مع الوجود (وجود المال) من البخل، وشر الرجال الكثير الاعتلال».

«وحُسن اللقاء يُذهب بالشحناء».

«ولين الكلام من أخلاق الكرام».

* * *

يا بني: إن زوجة الرجل سكنه، ولا عيش له مع خلافها، إذا هممت بنكاح امرأة فاسأل عن أهلها فإن العروق الطيبة تنبت الثمار الحلوة».

«واعلم أن النساء أشد اختلافاً من أصابع الكف، فتوق منهنّ كل ذات يد مجبولة على الأذى، فمنهن المُعجبة بنفسها المُزرية ببعلها. إن أكرمها رأت فضلها عليه، ولا تشكره على جميل، ولا ترض منه بقليل، لسانُها سفيه صقيل قد كشفت ستر الحياء عن وجهها، ولا تستحي من عوارها ولا جارها، هدّارة، ظنّانة، مهارشة عقارة، وجه زوجها مكلوم، وعِرضه مشتوم، لا ترعاه لدنيا ولا دين، ولا تحفظه لصحبه، ولا لكبر سِن، حجابه مهتوك، وسرّه منشور، وخيره مدفون، يصبح كئيباً، ويمسي غائباً، وشرابه شر، وطعامه غيظ، وولده صائم. وبيته مستهلك، وثوبه وسخ، ورأسه مشعث، إن ضحك فراهب، وإن تكلم فمتكاره، نهاره ليل وليله نهار، تلدغه مثل الحية، وتكدشه مثل العقرب، تهب مع الريح، تطير مع كل ذي جناح، إن قال لا قالت: نعم، وإن قال نعم قالت لا، محتقرة لما في يديه، تضرب له الأمثال، وتقصر به دون الرجال، وتنقله من حال إلى حال، حتى كره بيته وملّ ولده وقلّ عيشه وهانت عليه نفسه حتى أنكره إخوانه ورحِمه وجيرانه».

* * *

«ومنهن الحمقاء ذات الدلال في غير موضعه، الماضغة للسانها، الآخذة في شأنها، قد قنعت بحبه، ورضيت بكسبه، تأكل كالحمار الراتع، وترتفع الشمس ولم تسمع لها صوتاً، ولم تكنس لها بيتاً، طعامها بائت، وإنائها قذر، وماؤها فاتر، وماعونها ممنوع وخادمها مضروب».

«وهي كلها صفات المرأة الذميمة نعوذ بالله من شرها».

«ومنهن العطوف الودود، المباركة الولود، المأمونة على غيبتها، . المحبوبة في جيرانها، الحافظة لسرِّها وعَلنها، الكريمة التبعّل، الكثيرة التفضل، الخافضة صوتاً، النظيفة بيتاً، خادمها مسمن، وابنها مزَيّن، وخيرها دائم، وزوجها ناعم، مصونة ألوفة، بالخير والعفاف موصوفة، جعلك الله يا بني ممن يقتدي بالخير، ويأتم بالتُقى ويتجنب السخط، ويحب الرضا، والله خليفتي عليك ولا حول ولا قوة إلا بالله العلّي العظيم».

* * *

الفصل الرابع

كلمات مضيئة

كلمات مضيئة

اطلبوا الخير دهركم

أخرج الدارقطني عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال:

«اطلبوا الخير دهركم، وتعرضوا لنفحات رحمة ربكم، فإن لله عز وجل نفحات من رحمته يصيب بها من يشاء من عباده، وأسألوا الله أن يستر عوراتكم، ويؤمن روعاتكم».

* * *

أهل الخير

أنشد الحسن بن عليّ رضي الله عنهما؛ لامرأة من ولد حسان بن ثابت قولها:

سل الخير أهل الخيرِ قِدماً ولا تسل فتى ذاق طعم العيش مُنذ قريب

* * *

افعل الخير تغنم

كان عمر بن الخطاب يجلس بين أصحابه وعنده كعب الأحبار رضي الله عنهم وفيهم الحطيئة الشاعر فأنشد الحطيئة:

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه لا يذهب العُرف بين اللّٰه والناس

فقال كعب: يا أمير المؤمنين هذا الذي قاله مكتوب في التوراة. قال عمر: كيف ذلك؟ قال كعب: «في التوراة مكتوب من يصنع الخير لا يضيع ولا يذهب بيني وبين عبدي».

* * *

إياك والعجلة

فإنها تكنى أم الندامة، لأن صاحبها يقول قبل أن يعلم، ويجيب قبل أن يفهم، ويعزم قبل أن يفكر، ويقطع قبل أن يقدّر، ويحمد قبل أن يجرّب، ويذم قبل أن يخبو، ولن تصحب هذه الصفة أحداً إلا صحب الندامة وجانب السلامة.

الرفق يُمْنٌ والأناة سعادة ... فتأن في أمر تلاق نجاحاً

يد المعروف غنم

يد المعروف غنم حيث كانت ... تحملها كفور أم شكور
فعند الشاكرين له جزاء ... وعند اللّه ما كفر الكفور

وقالوا: «إنّ نسيان النعمة أول درجات الكفر».

* * *

الزهد

روى ابن ماجه وغيره بأسانيد حسنة: أن رجلاً جاء إلى النبيّ ﷺ فقال: يا رسول الله! دلني على عمل إذا عملته أحبني الله وأحبني الناس.

فقال: «ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد فيما عند الناس يحبك الناس».

* * *

قال رسول الله ﷺ: «من حُسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»... رواه الترمذي.

وروى البخاري ومسلم أن رسول الله ﷺ قال: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه».

* * *

من معجزات النبي ﷺ

روي أنَّ رسول الله ﷺ قال: «اتّقوا الغبار فإن فيه النسمة». وهذه إحدى معجزات النبوة، والنسمة كل ذي روح والمراد بها الميكروبات.

* * *

ما نراك تعيب أحداً؟

قيل للربيع بن خيثم: ما نراك تعيب أحداً؟ فقال: لست عن نفسي راضياً فأتفرغ لذم الناس، وأنشد:

لنفسي أبكي لست أبكي لغيرها   لنفسي من نفسي عن الناس شاغل

* * *

قرب الدار

لقربُ الدار في الإقتار خيرٌ   من العيش الموسّع في اغتراب

وإن شرود الغريب عن الوطن، كالفرس الذي زايل أرضه وفقد شربه.

وقالوا: «الإقتار في بلدك أعز من اليسار في غربتك».

«فوائد السفر»

تغرّب عن الأوطان في طلب العُلى   وسافر ففي الأسفار خمس فوائد

تفرّج هم واكتساب معيشة   وعلم وآداب وصحبة ماجد

المحافظة على السرِّ

قال معاوية رضي الله عنه: «ما أفشيت سرّي إلى أحد إلا أعقبني طول الندامة وشدة الأسف. ولا أودعته جوانح صدري فحكمته بين أضلاعي إلا أكسبني مجداً وذكراً وثناءً ورفعة».

وكان يقول:

«ما كنت كاتمه عن عدو فلا تظهر عليه صديقك».

احـذر عـدوك مـرّة واحـذر صـديـقـك ألـف مـرَّة
فـلربـمـا هـجـر الـصـديـق فـكـان أعـلم بـالـمـضـره

* * *

الرزق بالله

لا تضـرعنَّ لمخلوق على طـمـع فـإن ذاك مُضـرٌّ منـك بـالـديـن
واستـرزق الله رزقـاً من خـزائنـه فـإنمـا هي بين الكـاف والنـون

* * *

ومن جيّد الشعر

ولا يُعطى الحريص غنى لحرص وقـد ينمـو على الجـود الثـراء

* * *

ولا خيـر فيمن ظـل يبغي لنفسـه من الخيـر مـا لا يبتغي لأخيـه

* * *

رأيت الـدهر يـرفـع كـل وغـد ويخفض كـل ذي نـفس شـريفـه
كـذاك البحـر يـرسب فيـه درّ ولا يـنفـك تـطفـو فيـه جيفـه

* * *

الصدق عز... والكذب ذل

الصدق عزّ وإن كان فيه ما تكره، والكـذب ذُل وإن كان فيـه ما تحب، ومن عُرف بالكذب أتهم في الصدق. ولبعضهم:

لا يكذب المرء إلا من مهانته أو عادة السوء أو قلة الأدب، ووُجدَ مذكوراً في كتب الهند قول حكمائهم: «ليس لكذوب مروءة، ولا لضجور رياسة، ولا لملول وفاء، ولا لبخيل صديق».

ويقولون أيضاً: «الصدق ميزان الله الذي يدور عليه العدل والكذب مكيال الشيطان الذي يدور عليه الجور».

* * *

ومن حميد الخصال

أن عبد الملك بن مروان الخليفة الأموي لمّا اختار الشعبي ليكون أحد ولاته، طلبه، فلما دخل عليه قال: يا شِعبى جنبني خصالاً أربعاً وما شئت فافعل؟

قال: يا أمير المؤمنين وما هي؟

قال: «لا تُطريني في وجهي، ولا أجربنّ عليك كذبة، ولا تغتابنّ عندي أحداً، ولا تفشينّ لي سراً».

فقال الشعبي: ائذن لي يا أمير المؤمنين في الانصراف لأن الفصل من القول لا يحتاج إلى تعقيب.

قول الحق

قال يحيى بن أكثم قاضي الخليفة المأمون: «إن قول الحق لم يدع لي صديقاً».

وقال أرسطو عن استاذه أفلاطون: «إن أفلاطون صديقي والحق صديقي، ولكن صداقتي للحق أعظم».

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «الرجوع إلى الحق خير من التمادي في الباطل».

وقال عليّ بن أبي طالب كرّم الله وجهه: «إنَّ للقلوب شهوات، وإقبالاً وإدباراً، فأتوها من قبل شهواتها وإقبالها، فإن القلب إذا أكره عسي». وقال: «الحق ثقيل مَريء، والباطل خفيف وبيء».

تعليم وتهذيب

اجعــل تِــلادك في المُهم من الأمــور إذا اقـتــرب
لاتســه عن أدب الصغيــر وإن شكــا ألـم التعب
وذَرِ الكبيــر فــإنــه كبــر الكبيــر عـن الأدب
لا تصحب الصِلف المُريب فقربــه أحـد الــريب
واعلم بــأن ذنـوبــه تعـدي كمــا تعـدي الجــرب

وقال الإمام البوصيري في بُردة المديح النبوية:

وحاذر النفس والشيطان واعصـهمـا   وإن همـا محضـاك النصــح فـاتهم
والنفس كالطفل إن تهمله شب على   حب الـرضـاع وإن تفـطمـه ينفـطم

* * *

فضل الصيام

قال رسول الله ﷺ: «إن للجنة باباً، يقال له الريَّان، يقال يـوم القيامـة: أين الصائمون؟ فإذا دخل آخرهم أغلق ذلك الباب».

كَفُ الغضب وإمساكُ اللسان

مـا روي عن أم المؤمنين عـائشـة رضي الله عنهـا قـالـت: قـال رسول الله ﷺ: «من كف غضبه كف الله عنه عذابه، ومن خزن لسانه ستر الله عورته، ومن اعتذر إلى الله قَبِلَ الله معذرته».

* * *

السرور

قيل لاعرابي: ما السرور؟

قال: «أوبة بغير خيبة، وألفة بغير عيبة».

وقيل لآخر: ما السرور؟

قال: «غيبة تفيد غنى، وأوبة تعطيك مُنى».

* * *

العقل زينة

يـزين الفتى في النـاس صحـةُ عَقله   وإن كـان محـظوراً عليـه مكـاسبـه
وشين الفتـى في الـنــاس قلة عـقله   وإن كــرمــت آبــاؤه ومـنــاسـبــه

* * *

وصف الإنسان

قيل لعامر بن قيس: ما تقول في الإنسان؟

قال: «وما أقول فيمن إذا جاع صغى وإن شبع طغى».

كراهة الظلم

قال أبو الطيِّب المتنبي شاعر الحكمة:

والـظلم من شيم النفوس فـإن تجـد   ذا عـفــة فـلعــلة لا يــظلم

* * *

لا شر اقبح من الجهل

إذا كنت لا تـدري ولم تـك سـائـلا   عن العلم من يدري جهلت ولم تدرِ

استحيوا من الله حق الحياء

عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: «بينما رسول الله ﷺ على المنبـر والناس حـوله وأنـا في حجرتي سمعتـه يقـول: «استحيـوا من الله حق الحياء حتى رددها مراراً». فقال رجل: إنا لنستحي من الله يا رسول الله.

قـال ﷺ: «من كان يستحي من الله فيحفظ الـرأس وما حـوى، والبطن ومـا وعى، وليذكـر القبور والبلى». فمـا زال يردد ذلـك حتى سمعتهم يبكون حول المنبر.

* * *

فائدة كتمان السرّ

كتمان سرّك يعقبك السلامة، وإفشاء سرّك يعقبك النـدامة والصبـر على كتمان السرّ أيسر من الندم على إفشائه.

* * *

خِلال المكارم

قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: «خِـلال المكارم عشـرة تكون في الرجل ولا تكون في ابنه «صدق الحديث، وصدق اللسان، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، والمكافـأة بالصنيـع، وبذل المعـروف، وحفظ الذمـام للجار، وحفظ الذمام للصاحب، وقرى الضيف، ورأسهن الحياء».

* * *

لو كان لي دعوة مُستَجابة

قال العالم الزاهد؛ الفضيل بن عيّاض:

«لو كان لي دعـوة مستجابـة، لم أجعلها إلا لـلإمام؛ لأن الله تعـالى إذا أصلح الإمام أمن البلاد والعباد».

* * *

جُرح اللسان

وجـرح السيف تـأســوه فيبـرأ ... وجرح الدهر ما جـرح اللسان
جـراحات السِنـان لهـا التـئامٌ ... ولا يُلتـام مـا جــرح اللســان

* * *

من كلام الملوك

تكلم أربعة من الملوك بأربع كلمات كأنما رُميت عن قوسٍ واحدة.

قال كِسرى: «أنا على رد ما لم أقل، أقدر مني على رد ما قُلت».

وقال ملك الهند: «إذا تكلمتُ بكلمة ملكتني وكنت أملكها».

وقال قيصر: «لم أندم على ما لم أقل وقد ندمت على ما قلت».

وقال ملك الصين: «عاقبة ما قد جرى به القول أشد من الندم على ترك القول».

* * *

العفو من شِيَم الأحرار

إذا اعتـذر الصديق إليـك يـومـا   مـن الـتـقـصـيـر عـنـد أخ مـقـر
فصنـه عن عتـابـك واعـف عنـه   فـإن الـعـفـو شـيـمـة كـل حـر

* * *

ملاطفة وحِلم

أسمع رجلًا الشِعبي كلاماً فقال له الشِعبي: «إن كنت صادقاً فغفر الله لي، وإن كنت كاذباً فغفر الله لك». ثم أنشأ يقول:

هنيئـاً مـريئـاً غيـر مـاءٍ مخـامـر   لعـزة من أعـراضنـا مـا استحلت

* * *

احذر السفهاء

وصف اعرابي رجلًا حليماً فقال: «كان أحلم من فرخ طائر».

وقيل في هذا المعنى:

إني لأعـرض عن أشيـاء أسمعهـا   حتى يـظن رجـال أن بـي حمـقـا
أخشى جـواب سفيـه لاحيـاء لـه   فهـل يـظن أنـاسٌ أن بي حُمقـاً

* * *

إذا نطق السفيه فلا تُجبه

قال أحد السفهاء لرجل ذو حلم: «والله إن قلت لي واحدة لتسمعنّ عشراً».

فرد الحليم: «لكنك لو قلت عشراً لم تسمع واحدة».

وقيل في هذا المعنى:

إذا نـطق الـسـفـيـه فـلا تُـجـبـه   فـخـيـر مـن اجـابـتـه الـسـكـوت

سكتُّ عن السفيه فظنّ أني عييت عن الجواب وما عييت
ولكني اكتسيت بثوب حلم وجُنِّبْت السفاهة ما بقيت

وقيل أيضاً:

ولقد أمر على اللئيم يسبّني فمضيت ثمت قلت: لا يعنيني

* * *

من لم يصبر على كلمة سمع كلمات

كان الأحنف بن قيس يقول: «من لم يصبر على كلمة سمع كلمات، وربّ غيظ قد تجرعته مخافة ما هو أشد منه». وأنشد لبعض الشعراء:

وإن اللّه ذو حلم ولكن بقدر الحِلم ينتقم الحليم

* * *

شروط الإيمان اخلاق حِسان

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت».

لا تفسدن سابق إحسان مضى واللّه لا يُغلب فيما قد قضى

الدعاء إلى اللّه في كل الأمور

وإني لأدعو اللّه والأمر ضيق علي فما ينفك أن يتفرجا
ورُبّ فتى سُدّت عليه وجوهه أصاب له في دعوة اللّه مخرجا

* * *

دعاء مُجاب لبعض نساء الأعراب

حدث الأصمعي قال: «سمعت إعرابية بعرفات وهي تقول: «أللهمَّ إن كانَ رزقي في السماء فأنزله، وإن كان في الأرض فأخرجه، وإن كان نائياً فقرّبه، وإن كان قريباً فيّسره».

* * *

استعن بالله في كل أحوالك

إذا لم يكن عون من الله للفتى — فأول ما يجني عليه اجتهاده

تعليم عاقل عليم

قال الأحنف بن قيس: «ما دخلت بين اثنين قط حتى يكونا هما اللذان يُدخلاني فيه، ولا قمت من مَجلسي قط، ولا حجبت عن بابي قط، ولا رددت عن حاجة قط قيل: وَلِمَ؟

قال: لأني لا أطلب المحال.

* * *

العفو أقرب

أوصى أحد الأمراء رجلًا أراد أن يوليه أمراً من أمور الرعية فقال له:

إن عاقبت جازيت، وإن عفوت أحسنت، والعفو أقرب».

* * *

اغترب تتجدد

وطول مقام المرء في الحي مخلق — لديباجتيه فاغترب تتجدد
فإني رأيت الشمس زيدت محبة — إلى الناس إذ ليست عليهم بسرمد

وصف العَدل

قال محمد بن كعب القرظي: دعاني عمر بن عبد العزيز فقال: صِف لي العدل. فقلت: بخ[1]! سألت عن أمرٍ جسيم، كُن لصغير الناس أباً، ولكبيرهم ابناً، وللمثل منهم أخاً، وللنساء كذلك، وعاقب الناس على قدر ذنوبهم، وعلى أجسادهم، ولا تضربنّ لغضبك سوطاً واحداً فتكون من العادين».

* * *

(١) بخ: عظم الأمر وفخم.

نصيحة عليم

قال الحسنُ رضي الله عنه: «من استتر عن طلب العلم بالحياء، لبس الجهل سِربالا[١]، فقطعوا سرابيل الحياء، فإنه من رقّ وجهه، رقّ علمه».

ومن حديثه أيضاً:

«لا تقل فيما لا تعلم، تجهل فيما تعلم».

* * *

شر الناس ذو الوجهين

عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «شر الناس ذو الوجهين، يلقى هؤلاء بوجه، وهؤلاء بوجه، فاحذره».

ويقول الشاعر:

وكم من صديق وُدُّه بلسانه ... خؤون بظهر الغيب لا يتذمَّمُ[٢]

يضاحكني عجباً إذا ما لقيته ... ويقذعني[٣] منه إذا غبت أسهم

كذلك ذو الوجهين يرضيك شاهداً ... وفي غيبه إن غاب صاب وعلقم

* * *

وعليك بالمروءة

روى البخاري عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه «أنه مرّ بقومٍ يتحدثون فقال: فيم تتحدثون؟ قالوا: نتذاكر المروءة. فقال: «أو ما كفاكم الله عز وجل إذ يقول في كتابه: ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان﴾[٤]. فالعدل: الإنصاف، والإحسان: التفضل، فما بقي بعد هذا؟»».

* * *

---

(١) السربال: الثوب.
(٢) لا يتذمم: لا يمتنع.
(٣) قذعه: رماه بالفُحش.
(٤) سورة النحل، الآية: ٩٠.

كن حازماً

قال الشاعر:

فقسا ليزدجروا ومن يك حازما فليقس أحياناً على من يَرحَم

* * *

وصيّة زاهد

أوصى أبو بكر الشبلي الزاهد فقال: «إن اردت أن تنظر إلى الدنيا بحذافيرها فانظر إلى مزبلة فهي الدنيا، وإذا أردت أن تنظر إلى نفسك فخذ كفاً من تراب فإنك منها خُلقت وفيها تعود».

«ومتى أردت أن تنظر ما أنت فانظر ما يخرج منك فمن كان حاله كذلك فلا يجوز أن يتطاول أو يتكبر على من هو مثله».

* * *

وصيّة من شيخ ناصح لتلميذ قابل

قال يوسف بن الحُسين قلت لذي النون وقت مفارقتي له من المجلس من أجالس؟ فقال:

«عليك بمُجالسة من يذكرك الله رؤيته وتقع هيبته على باطنك، ويزيد في عملك منطقه، ويزهدك في الدنيا علمه، ولا تعصي الله ما دمت قُربه، يعظك بلسانه فِعله، ولا يعظك بلسان قوله».

* * *

نصيحة

قال الحسن رضي الله عنه: «ابن آدم لو أنك تجد حقيقة الإيمان ما كنت تعيب الناس بعيب هو فيك حتى تبدأ بذلك العيب نفسك ولا تصلح عيباً الا ترى عيباً آخر فيكون شغلك في خاصة نفسك وكذلك أحب ما يكون إلى الله إذا كنت كذلك».

* * *

صفة الزاهد

سُئِلَ عليّ بن الحسين عن صفة الزاهد؟ قال: يتبلّغ بدون قوته ويستعد ليوم موته ويتبرم حياته.

التحدُّث بنعمة الإسلام

قال الإمام عليّ رضي الله عنه وهو يتحدث بنعمة ربه عليه بالإسلام وهو صبي لم يبلغ الحلم (قيل كان في سن العاشرة):

سبقتكموا إلى الإسلام طُراً ... صغيراً ما بلغت أوان حلمي

وصليت الصلاة وكنت فرداً ... فمن منكم له يوم كيومي

* * *

الفصل الخامس

طرائف ولطائف



وصيّـــة

أوصى الإمام عليّ ولده الحسن ـ رضي الله عنهما ـ فقال: يـا بني احذر من الأمور ثلاثاً ووافق ثلاثاً واستح من ثـلاث، وافزع إلى ثـلاث، واهرب من ثلاث، وخالف ثلاثاً، وارج ثلاثاً. فقال الحسن: فصِّلها يا أبي. فقال: احذر من الكِبْـر والغضب والحرص المـذموم، ووافق كتـاب الله وسُنّة رسـولـه ﷺ، والصـالحين من عباده. وليكن حيـاؤك من الله ومن الملائكـة ومن الصالحين. وليكن فزعك خوفاً من المعصية، وفزعك إلى التوبة، وفزعك إلى طلب العلم واهـرب يا بني من الكـذب والخيـانـة والـظلم. واجتنب الشـر وأهله والنفـاق وأهله، والحمق وأهله. وخف من الله، وممن لا يخـاف الله، ومن لـدغـات اللسـان. وارج الله في غفـران ذنـوبـك، وفي قبـول أعمـالـك، وفي شفـاعـة نبيك ﷺ.

اذهب فانت حُر

كان جعفر الصادق رضي الله عنه يتوضا وقد وقف على يديه غلام يصب له الماء فوقع الإبريق من يد الغلام فطار الـرشاش في وجهـه فنظر إليـه جعفر نظرة مُغضب فقال: يا مولاي والكاظمين الغيظ.

قال: قد كظمت غيظي

قال الغلام: والعافين عن الناس.

قال: قد عفوت عنك.

قال: والله يحب المُحسنين.

قال جعفر رضي الله عنه: اذهب فأنت حر لوجه الله تعالى.

العُزلة

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «إن في العزلة لراحة من خلاط السوء. ومر بقوم يتبعون رجلاً قد أخذ في الله فقال: لا مرحبا بهذه الوجوه التي لا تُرى إلا في الشر».

أوصى عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ابنه بثلاث: «أي بني: أوصيك بتقوى الله، وليسعك بيتك، وابك على خطيئتك».

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لولا مخافة الوسواس دخلت إلى بلاد لا أنيس بها، وهل يفسد الناس إلا الناس؟». وكان أبو الجهم الحارث بن الصمّه رضي الله عنه لا يجالس الأنصار فإذا ذكرت له الوحدة؛ قال: الناس شر من الوحدة. وأخرج ابن عساكر عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: نعم صومعة المسلم بيته يكفُّ فيه نفسه وبصره وفرجه! وإيّاكم والمجلس في السوق فإنها تلهي وتلغي!!».

* * *

لعله أحسنَ... فكنتُ ثوابه

قال الأصمعي: رأيت ويـة من أحسن الناس وجهاً ولها زوج قبيح فقلت لها: وهل ترضين أن تكوني تحت هذا؟ فقالت: يا هذا لعلّه أحسنَ فيما بينه وبين ربه فجعلني ثوابه، ولعليّ أسأت فيما بيني وبين ربي فجعله عذابي، أفلا أرضى بما رضِيَ الله به؟

صحابي يحب المزاح: نعيمان بن عمرو الأنصاري

تروي لنا أم سَلَمة رضي الله عنها أن أبا بكر رضي الله عنه خرج إلى بُصرى ومعه نعيمان وسويبط بن حرملة رضي الله عنهما وكلاهما شهد بدراً،

وكان سويبط على الزاد فقال لـه نعيمان أطعمني! فقـال حتى يجيء أبو بكـر، وكان نعيمان مضحاكاً مزاحاً فـذهب إلى أهل حي فقـال: ابتاعـوا مني غلامـاً عربياً فارهاً؟ قالوا: نعم، قال: إنه ذو لسان، ولعله يقول: أنا حر، فـإن كنتم تاركيه لذلك فدعوني لا تفسدوه علي! وقالوا: بل نبتاعه، فـابتاعـوه منه بعشـر من الإبل، فأقبل بها يسوقها وقال: دونكم هو هذا! فقال سـويبط: هو كـاذب أنا رجل حر! قالوا: قد أخبرنا خبرك فطرحوا الحبل في رقبته فذهبوا به، فجاء أبـو بكر فـأخبر فـذهب هو وأصحـابه إليهم فـردوا الإبل وأخـذوه فلما رجعـوا أخبروا النبي ﷺ بذلك فضحك هو وأصحابه منهما حولا.

* * *

سُئِلَ ابن سيرين: هل كان أصحاب رسول الله ﷺ يتمازحون؟ قـال: ما كانوا إلا كالناس، كان ابن عمر رضي الله عنهما يمزح ويُنشد:

يُحب الخمـر مـن مـال النـدامى ويـكـره أن تـفـارقـه الـفـلـوس

انكحك الصدق

خطب بلال رضي الله عنه لأخيه إمرأة قرشية فقال لأهلهـا: نحن من قد عـرفتم كنا عبـدين فأعتقنـا الله تعالى، وكنـا ضالين فهـدانـا الله تعـالى، وكنـا فقيـرين فاغنـانا الله تعـالى، وأنا أخـطب إليكم فلانـة لأخي فإن تنكحـوها لـه فالحمد لله تعالى وإن تردونا فالله أكبر؛ فأقبل بعضهم على بعض فقالوا: بلال من عرفتم سابقته ومشاهده، ومكانه من رسول الله ﷺ فزوجوا أخاه، فزوّجوه. فلما انصرفوا قال له أخوه: يغفر الله لك أما كنت تذكر سوابقنا وشواهـدنا مـع رسول الله ﷺ، فقال: اسكت يا أخي صدقت فأنكحك الصدق.

* * *

مزاح النعيمان مع النبي ﷺ

أخـرج ابن عبدالبر في الاستيعاب عن ربيعـة بن عثمان رضي الله عنـه قـال: جاء أعـرابي إلى النبي ﷺ فدخـل المسجد، وأنـاخ ناقتـه بفنائـه فقـال أصحاب النبي ﷺ لنعيمان بن عمرو الأنصاري وكان يقال له النعيمان: نحرْتها فأكلناها فإنا قد اشهينا اللحم ويغرم رسول الله ثمنها، قال: فنحرها النعيمان،

ثم خرج الأعرابي فرأى راحلته فصاح: واعقراه يا محمد! فخرج النبي ﷺ فقال: من فعل هذا؟ قالوا: النعيمان، فاتبعه يسأل عنه فوجده في دار ضباعة بنت الزبير بن عبد المطلب ـ رضي الله عنهما ـ قد اختفى في خندق وجعل عليه الجريد والسعف، فأشار إليه رجل ورفع صوته يقول: ـ رأيته يا رسول الله! وأشار بأصبعه حيث هو، فأخرجه رسول الله ﷺ وقد تغير وجهه بالسعف الذي سقط عليه فقال له: ما حمّلك على ما صنعت؟ قال: الذين دلوك عليّ يا رسول الله هم الذين أمروني، قال: فجعل رسول الله ﷺ يمسح عن وجهه ويضحك، قال: ثم غَرِمَها رسول الله ﷺ.

* * *

جئنا نقتبس من وَجهك مصباحاً

كان مُصعب بن الزبير من أجمل الناس وجهاً وكان جالساً بفناء داره يوماً فجاءت امرأة فوقفت تنظر إليه!

فقال لها: ما وقوفك يرحمك الله؟

فقالت: طفئ مصبَاحُنا فجِئنا نقتبس من وجهك.

طلب العفو من الله والتوبة إليه

إلَهي أنت ذو فضل ومنّ	وإني ذو خطايا فاعف عني
وظني فيك يا رب جميل	فحقق يا إلَهي حُسن ظني

* * *

ما بال شفتيك مشققة

قيل لأعرابية ظريفة: ما بال شفتيك مشققة؟ فقالت: إنّ التين إذا حلا يتشقق، والورد يتشقق إذا مسهُ الندى.

* * *

إني اكره منك مثل ما تكره مني

مرّ رجل ذميم بامرأة جميلة فقال: يا هذه إن كان لكِ زوج فبارك الله لكِ فيه وإلا فاعلمينا.

فقالت: كأنك تخطبني.

قال: نعم.

فقالت: إن فيَّ عيباً قال: وما هو؟

قالت: شيب في رأسي. فثنى عَنانَ دابته وهمّ بالمسير.

فقالت: على رَسلِكَ والله ما بلغت عشرين سنة، ولا رأيت في رأسي شعرة بيضاء ولكني أحببت أن أُعلمك أني أكره منك مثل ما تكره مني فأنشد يقول:

رأين الغواني الشيب لاح بِمفرقِي   فاعرضن عني بالخدود النواضر

الجار السوء

يلومونني إن بعت بالرخص منزلي   ولم يعلموا جاراً هناك ينغص

فقلت لهم: كفوا الملام فإنما   بجيرانها تغلو الديار وترخص

* * *

لا تصوم إلا ويدك مغلولة إلى عنقك

جاء رجلٌ إلى فقيه فقال: أفطرت يوماً في رمضان فقال: اقض يوماً مكانه. قال: قضيت وأتيت أهلي وقد عملوا مأمونية فسبقتني يدي إليها فأكلت منها فقال: إقْضِ يوماً آخر مكانه.

قال: قضيت وأتيت أهلي وقد عَملوا هريسة فسبقتني يدي إليها.

فقال: أرى أن لا تصوم إلا ويدك مغلولة إلى عنقك.

* * *

فقد أريتها من عيوبي ما لم تكن تعرفه

وقع خلاف بين فقيه وبين امرأته، فسأل أحد أصحابه من الفقهاء أن يرضيها ويصلح بينهما فدخل إليها وقال: «إنه والله شيخ كبير فلا يزهدنك فيه عَمشُ عينيه، ودقة ساقيه، وضعف ركبتيه، ونَتن إبطيه وبُخْر فيه، وجُمود كفيّه.

فقال الفقيه: قصُر، قبّحك الله- فقد آريتها من عُيوبي ما لم تكن تعرفه.

* * *

العقل والجسم

قال حكيم: لو كانت العقول تناسب الأجسام للزمك أن تقول: إن الفيل أعقل الحيوان ولما أمكن الغلام أن يقود الجمال.

مواساة بليغة

روي أن عبد الملك بن مروان بنى باباً في بيت المقدس باسمه، وبنى الحجاج باباً باسمه ، وحدث أن صاعقة نزلت فأحرقت باب عبد الملك فقط فعظم ذلك عليه، وتشاءم منه، فكتب الحجاج إليه:

«بلغني أن ناراً نزلت من السماء، فأحرقت باب أمير المؤمنين، ولم تحرق باب الحجاج، وما مثلنا في ذلك إلا كمثل ابني آدم إذ قرّبا قُرباناً فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر، فسري عن عبد الملك بذلك.

واحدة بواحدة

روي أن رجلاً جاء إلى أبي حنيفة يشكو إليه أن جاره حفر بئراً في داره بجوار جداره، وأن استمرار البئر يؤثر في الجدار، وقال له: حدث جارك، فقال: حدثته، وامتنع ظالماً، فقال له: احفر في دارك بالوعة في مقابل بئره، ففعل، فاندفع ماء البالوعة يلوث البئر فاضطر صاحبها إلى ردمها.

طُرفة من كتاب كليلة ودمنه

يروى أن كلباً حاول مرة قتال أسد فامتنع عليه الأسد أنفة منه، فقال الكلب: سأمضي فأخبر السباع بضعفك، فقال الأسد: لأن تعيِّرني السباع بذلك أحب إلي من أن ألوث شاربي بدمك.

نعوذ بالله من الفقر

الفقر داء لا دواء له، من كتمه قتله، ومن أذاعه فضحه، ويخرس الفطن عن حجته، ويجعله غريباً في بلدته.

وينسب إلى الإمام عليّ كرّم الله وجهه قوله: «لو كان الفقر رجلاً لقتلته».

مساكين أهل الفقر حتى قبورهم   عليها تراب الذل بين المقابر

* * *

اغثني وانصفني

حكي أن رجلاً أتى أمير المؤمنين سليمان بن عبد الملك فقال له: بالذي أسبغ عليك هذه النعم من غير شفيع كان لك إليه، إلا يفضّلا منه عليك؛ إلا أنصفتني من خصمي، وأخذت لي الحق منه، فإنه ظلوم غشوم، لا يستحي من كبير ولا يلتفت إلى صغير. فقال له: اعلمني من هو؟ فإن لم ينصفك وإلا أخذت الذي فيه عيناه. قال: الفقر، فأطرق سليمان ملياً ينكث الأرض، ثم رفع رأسه وأمر له بعشرة الآف دينار فأخذها ومضى، فلما كان بعيداً عنه، فقال: ردوه، فلما مَثُلَ بين يديه قال: يا هذا بالله عليك متى أتاك خصمك متعسفاً، إلا أتيت إلينا متظلماً».

من حَفر حُفرة؟

مرّ رجلٌ بإمرأة تبكي فرّق لها وقال: من الميت؟.

قالت: زوجي. قال: فما كان عمله؟

قالت: يحفر القبور.

قال: أبعده الله، أما علِمَ أن من حفر حُفرة وقع فيها.

* * *

ما حصّلتَ من السفينة إلا على الصاري

ادعى رجلٌ النبوة وكان يُسمى نوحاً وكان له صديق نهاه فلم يقبل فأمر السلطان بقتله فصُلِبَ فمرّ به صديقه فقال: يا نوح ما حصّلتَ من السفينة إلا على الصاري.

ثمن الجوار

حكي أن ابن أبي الجهم أراد أن يبيع داره لضائقة مالية حلت به، وكانت بجوار سعيد بن العاص، فأعطاه المشتري فيها مائة ألف درهم فقال

للمشتري: ثمن الدار، وبكم تشتري جوار سعيد بن العاص؟ فقال المشتري: والله مـا رأيت جواراً يُبـاع؟ ولكن ما شـأن جـارك؟ فقـال ابن أبي الجهم: إن جاري سعيد بن العاص رجل يحب معاونتي.. إن غبت سأل عني، وإن أتيت رحّب بي، وإن سألته أعطاني، وإن لم أسأله ابتدأني بالعطاء». فلما بلغ ذلك سعيد بن العاص بعث إليه بالثمن وأبقاه في داره.

من ههنا اتفقا

رأى مالك بن دينار يوماً حمامـة مع غـراب، فعجب من اتفاقهمـا وليسا من شكل واحد. فلما مشيا إذا هما أعرجان فقال: من ههنا اتفقا!.

اللجام لي...!

قال أبو عبيـدة بن الجراح رضي الله عنـه: أجريت الخيـل، فطلع منهـا فرس سابق، فجعل رجل من النظارة يُكبِّر ويثب من الفرح. فقال له رجل إلى جانبه: يا فتى، هذا الفرس فرسك؟

قال: لا، ولكن اللجام لي...!.

* * *

بيت الطفيّلي

جلس طفيّلي وابنـه على قارعـة الطريق فمـرّت بهم جنازة وفيهـا امـرأة تبكي وتقول: «الآن يذهبون بك إلى بيت لا فـراش فيه، ولا غـطاء، ولا خبز ولا ماء». فقال الابن: يا أبتِ إلى بيتنا والله يذهبون.

* * *

فلا تجعل رجوعك من هنا

نـزل رجلٌ بصـومعة راهب فقـدم إليه أربعـة أرغفة وذهب ليُحضـر إليـه العدس فحمله وجاء به فوجده قد أكل الخُبز فذهب وأتى بخُبز غيره فوجده قد أكل العدس ففعل معه ذلك عشر مرات فسأله الراهب: أين مقصده؟.

قال: إلى مصر قال: لماذا؟

قال: بلغني أن بها طبيباً حاذقاً أسأله عما يُصلح معدتي، فإني قليل الشهوة للطعام.

فقال له الراهب: إن لي إليك حاجة.

قال: وما هي؟

قال: إذا ذهبت وأصلحت معدتك فلا تجعل رجوعك من هنا.

* * *

مكانة الزوج

لما عاد النبي ﷺ من غزوة أُحد التي هُزم فيها المسلمون، أقبلت حمنة بنت جحش ابنة عمة الرسول، فقال لها: يا حمنة! احتسبي. فقالت: من يا رسول الله؟ قال: خالك حمزة. فقالت: إنا لله وإنا إليه راجعون غفر الله له ورحمه هنيئاً له الشهادة، قال لها: احتسبي. قالت: من يا رسول الله؟ قال أخوك قالت: إنا لله وإنا إليه راجعون غفر الله له ورحمه هنيئاً له الشهادة، قال لها: احتسبي. قالت: من؟ قال زوجك مصعب بن عمير، قالت: واحزناه فنظر ﷺ إلى من حوله قائلاً: إن للزوج من المرأة مكاناً ما هو لأحد!!.

قد أخذنا بطرفي ذلك

تزوج مُغنّ بنائحة فسمعها تقول: أللهمَّ أوسع لنا في الرزق. فقال لها: يا هذه؛ الدنيا فرح وحزن وقد أخذنا بطرفي ذلك فإن كان فرح دعوني وإن كان حُزن دعوكِ!.

النمل من شأنها أن تتبع الشعراء

دخل بعض الشعراء على ابن نباتة الأديب فرأى نملاً كثيراً بمنزله فانشد:

مالي أرى منزل المولى الأديب به ... نمل تجمع في أرجائه زمراً

فأجابه:

لا تعجبن إذن من نمل منزلنا ... فالنمل من شأنها أن تتبع الشعرا[1]

(١) يقصد أن سورة النمل تأتي من بعد الشعراء في القرآن.

الفصل السادس

كيف تعاملين زوجك؟

وصية أم حكيمة لابنتها

خطب عَمْرو بن حجْر الكندي[1]، أم إياس بنت عوف بن محلم الشيباني، فلما تزوجت أوصتها أمها أسماء بنت خارجة الفزاري بوصية غالية تدل على حكمتها ورجاحة عقلها، وقد عملت البنت بوصية أمها فأنجبت سبعة من الأبناء كلهم سادوا وحكموا اليمن بعده، تقول الأم الحكيمة:

«أي بُنَيَّة، إن الوصية لو تُركت لفضل أدب، تُرِكَتْ لذلك مِنكِ، ولكنها تذكرة للغافل، ومعونة للعاقل، ولو أن امرأة استغنت عن الزوج لِغنى أبويها، وشدة حاجتهما إليها، كنتِ أغنى الناس عنه، ولكن النِساء خُلقن للرجال، ولهن خُلِق الرجال.

«أي بُنَيَّة، إنكِ قد فارقت الجو الذي منه خرجتِ وخلّفت العُش الذي فيه درجت، إلى وكر لم تعرفيه وقرين لم تألفيه، فأصبح بملكه عليك رقيباً ومليكاً، فكوني له أَمَة يكن لكِ عبداً وشيكاً. واحفظي له خصالاً عشراً، يكن لكِ ذخراً.

---

(١) عمرو بن حجر الكندي: هو أحد ملوك اليمن، وكِندة قبيلة من اليمن ينتهي نسبها إلى ثور بن عطير، وكان يُلقب بكِندة وكِندي أيضاً، لأنه كند نعمة أبيه أي كفر بنعمة أبيه، ولحق بأخواله.

«كوني له أرضاً يكن لكِ سماء، وكوني له مهاداً يكن لكِ عماداً، وعليك بالقناعة وحُسن السمع والطاعة، والتفقد لمواقع عينيه وأنفه، فلا تقع عينه منك على قبيح، ولا يشم مِنكِ إلا أطيب ريح».

* * *

«وعليك بالتفقد لوقت منامه وطعامه، فإن تواتر الجوع ملهبة[1]، وتنغيص النوم مغضبة».

«وعليكِ بالاحتراس بماله، والإرعاء على حشمه وعياله».

«وملاك الأمر في المال حُسن التقدير، وفي العيال حُسن التدبير».

«ولا تعصين له أمراً، ولا تفشين له سِرًّا، فإنك إن خالفت أمره أوغرتِ صدره، وإن أفشيت سرَّه لم تأمني غدره».

«ثم إياكِ والفرح بين يديه إن كان مهتماً[2]، والكآبة[3] بين يديه إن كان فرحاً».

* * *

---

(١) ملهبه: أي يلهب غيظه منكِ، تريد منها أن تعدّ له طعامه في وقته حتى لا يغتاظ منها.

(٢) مُهتماً: أي إن كان به هم وحزن.

(٣) الكآبة: الحزن.

كيف تختارين زوجك

كانت نساء العرب يعلِّمن بناتهن اختيار الأزواج، وكانت المرأة تقول لابنتها:

«اختبري زوجك قبل الإقدام والجرأة عليه، انزعي زج[1] رمحه، فإن سكت فقطعي اللحم على ترسه[2]، فإن سكت فكسري العظام بسيفه، فإن سكت فاجعلي الإكاف[3] على ظهره وامتطيه؛ فإنما هو حمارك». مثل هذا الزوج السهل القياد لا يقوى على حماية العرض، فإذا كان لا يغار على نفسه فكيف يغار على غيره؟

لله جانب لا أضيّعه

قال الأصمعي رأيت في البادية امرأة، عليها قميص أحمر مُختضبَة [متحنية]، وبيدها مسبحة، فقلت: ما أبعد هذا من ذاك؟ فقالت:

ولله مني جانب لا أضيعه وللهو مني والبطالة جانب

قال الأصمعي: فعلمت أنها امرأة صالحة ولها زوج تتزين له.

---

(١) الزُّجُّ: الحديدة في أسفل الرمح.
(٢) الترسُ: ما كان يتوقى به في الحرب.
(٣) الإكاف: البردعة والجمع أُكُف.

لا تطيلوا الجلوس

دخل قوم على مريض فأطالوا، ثم قالوا عند انصرافهم: أوصنا شيئاً فقال: أوصيكم أن لا تطيلوا الجلوس عند المريض إذا عُدتموه.

* * *

الفصل السابع

كيف تحقق السعادة الزوجية المنشودة؟



كيف تحقق السعادة[1] الزوجية المنشودة

الإنسان كائن اجتماعي بالغريزة، والزواج هو السبيل الأقوم للتعبير عن ذلك، ففيه بقاء النوع وتنظيم حياة الفرد وتناميه، وليس من طالب للزواج، ذكر أو أنثى، إلا ويتصور أنه سيكون سعيداً في زواجه المنتظر، لكن: هل يسعد الجميع؟

بل هل تسعد نسبة كبيرة منهم؟

لسنا في معرض مناقشة ذلك وتقرير الحقيقة بصدده، وإنما يكفينا هنا أن نورد بعض النصائح التي إن اتبعها الزوجان أدت إلى تقليل الكآبة في حياتهما، وتوثيق روابط الألفة والمحبة، فتزداد فرص السعادة آنذاك.

.. ولنضرب لك أمثلة من الأسباب التي تسرع بالسعادة الزوجية إلى المقبرة آثرت أن تكون من الخارج وعسى أن تكون حياتك الزوجية هانئة ترفرف عليها أسباب السعادة والمحبة: أول هذه الأمثلة هو نابليون الثالث، امبراطور فرنسا العظيم، والرجل الذي توفرت له سبل السعادة من شباب وجمال ومال وثروة، وقع في غرام ماري أوجيني وهي ابنة كونت اسباني غير عريق النسب، ولكن الامبراطور ضحى بكل شيء في سبيل الاقتران بها، وتزوجا، فوهبها الشهرة والمال والحب، كما أخلصت له الامبراطورة إلى

(١) كتاب كيف تكسب الأصدقاء بتصرف للكاتب.

درجة العبادة، لكن نار حبهما خمدت سريعاً وانطفأ وقدهـا، لقد تحـولت إلى رماد بارد، فما هو السبب؟

لقـد أجلس نابليـون زوجته على عـرشين، عرش فـرنسا وعـرش قلبـه، وكان يحق لها ذلك، غير أن سلطان الغيرة وروح الشك، ملكا عليها نفسهـا، لقد باتت لا تثق بنابليون، فصـار يسعى بنفسه إلى الانفـراد، وكثيراً مـا كانت تنـدفع إلى مكتبـه وهو منهمـك في تصـريف شؤون البـلاد فتلهيـه عن عمله، كـانت تخشى أن يكون زوجهـا قد اتخـذ له صـاحبة غيـرها، وهـذا مـا يخلق النكد، وكثيراً ما كان نابليون يتسلل من قصره متشحاً بالظلام، وقد وضع على رأسه قبعة رخوة أسدلها حتى سترت نصف وجهه، ومعه أعـوانه المخلصـون، فيقصـدون منزلاً يعـرفه نـابليون، ليلقى الامبـراطـور هنـاك غـانيـة تكـون في انتظاره، فإذا قضى معها الليل، شعر نابليون بالحيوية والسعادة.

وهذا يعني أن نابليون لم يكن يرتوي من السعادة مع زوجتـه وكيف يهنأ ونكدها يسـد عليه كـل طريق! وهكـذا، كانت أوجيني أجمـل نساء عصـرها، وفي مركز أعظمهن، إلا أن كل هـذا الجلال والجمـال لم يسعهما أن يستبقيـا الحب الزوجي مزدهراً وسط أبخرة النكد السامة..

ويقولون: «الرجل لا يبكي إلا مـرة واحدة، ولكن دمـوعه تكـون حينئذ من دم!!».

* * *

النكد هو أقرب الطرق لتقويض الحياة الزوجية

حقـاً إن النكـد حيـة رقـطاء، ليس للدغتهـا من دواء، وهي التي قتلت تولستوي[1] القصصي الـروسي العبقري، هكـذا صرحت زوجتـه لابنتها بعـد

(١) ليوتولستـوي: ١٨٢٨ روائي وفيلسـوف روسي، من أكبـر كتَّـاب العـالم، انحـدر من أسـرة برجوازية، فقد والديه وهو في التاسعة، التحق وهو في السادسة عشرة بجامعة كازان ولكنه لم يحصل على درجة علمية، التحق بالجيش ١٨٥٨ وحارب في القوقاز، واشترك في العديد من المعارك وكتب بعدها روايته المعـروفة «الحـرب والسلام»، وكتب عشـرات الروايـات، وأدى تصميمـه على التخلي عن كل ممتلكـاته للفقـراء إلى خـلاف بينـه وبين زوجتـه وانضم إليهـا أولاده، فيما عدا ابنته الصغرى الكسندرا، التي ذهبت معه حينما ترك بيته عام ١٩١٠ ووافته المنيّة في نفس العام، وهو في محطة للسكة الحديدية في صحبة ابنته.

وفاة الوالد بسنوات. كان تولستوي قصصياً عبقرياً، وستظل روايته «الحرب والسلم» درة على مفرق رأس الأدب العالمي، وكذلك روايته «أنّا كارنينا». كان هذا الأمير ثرياً نبيلاً، تزوج عن عشق مشبوب، فجمع بين الشهرة والحب، وبلغ مع زوجته قمة الهناء والسعادة، حتى أنهما كانا يسجدان لله شكراً على ما حباهما من النعمة، لكن الحال سرعان ما تغير، فقد زهد تولستوي من الدنيا، واعتنق مبادىء أقرب إلى الروحانية الصوفية، فعاش عيشة متقشفة، وأخذ يدعو إلى إنصاف الفقراء، كما كرّس حياته لإصدار نشرات تدعو إلى السلام وتنفِّر من الحرب، وكان يفلح الأرض بيده، ويصنع أحذيته بنفسه ويكنس غرفته، ويأكل في وعاء من الخشب، أما زوجته فقد كانت تعشق الترف، وتشتهي أن تظل ذات مال وجاه، ومن ثم أخذت تخلق له كل منغصات الحياة، وصارت تلعن وتشتم حين قرر أن الأدب يجب أن يكون في خدمة الإنسان فلا يجوز أن يتقاضى صاحب الكتب عنها أجراً، وعندما كان لا ينصاع لرأيها تهب في نوبة عصبية هستيرية، فتهدد بالانتحار، بل وتمسك زجاجة السم وتقربها إلى شفتيها، هكذا كانت حياة تولستوي العبقري الإنسان، مع زوجته العبقرية أيضاً، ولكن في خلق النكد والمنغصات، وذات مساء وعلى غير انتظار عادت إليها طبيعة المرأة، وطبيعة الأمومة المتلهفة إلى زوج يحميها ويغار عليها، فطلبت من تولستوي أن يعيد عليها قراءة بعض الرسائل التي كانا قد تبادلاها أول عهدهما بالحب والزواج. وأجابها تولستوي إلى ما طلبت، فاستعادت في نفسها ذكريات الحب السابق بينهما، وقارنت ذلك بواقع عواطفها آنذاك، فبكت ندماً، وبكى تولستوي أسفاً على ضياع زوجته، ولكن الزوجة لم ترتدع عن أخلاق النكد، وفي الثامنة والثمانين من عمره، وجد تولستوي نفسه مضطراً لأن يتسلل من البيت فيهيم على وجهه في شتاء جليدي قارس، وبعد بضعة أيام وجدت جثته في إحدى محطات السكة الحديد، زري الهيئة، رث الثياب، ولكن في وجهه مهابة وجلال فماذا أفاد النكد تلك الزوجة؟ لقد أفقدها زوجها، وحرم العالم عبقرية رجل من النادر أن يظهر لها مثيل.

* * *

ومثل هذه زوجة ابراهام لنكولن الرئيس السابق للولايات المتحدة الأميركية الذي مضى ذكره، . . فبالرغم من عظمة هذا الفلاح الأميركي الصلب، ومع خشونة تقاطيعه، كان قلبه طيباً إلى درجة عظيمة، أما زوجته فكانت مثال الشراسة وسلاطة اللسان، ومما يذكر عنها أن زوجها أخطأ ذات مرة خطأ تافهاً، وهما يتناولان طعام الإفطار مع صاحبة المنزل الذي كانا يستأجرانه، فقذفت مسز لنكولن زوجها بفنجان القهوة الغالي في وجهه، أما هو فلم يتحرك، وظل ساكناً كالطفل الصغير، وأما المضيفة فأسرعت إلى خرقة مبللة جاءت بها ومسحت وجهه وملابسه، وأما الزوجة فقد صبَّت جام غضبها، وانهال من فمها سيلٌ من اللعنات والشتائم، وأخيراً انتهى الأمر بهذه السيدة إلى الجنون، ويقول بعض الكُتَّاب: «ليس مقتل لنكولن هو المأساة الكبرى في حياته، وإنما زواجه من مثل زوجته».

هذا هو النكد يا سيدتي، وإن الكثيرات من الزوجات ليحفرن قبور سعادتهن تدريجياً بفعل النكد.

ونحن وإن كنا وجهنا هذا الكلام إلى الزوجات، فلا يعني ذلك أنه غير منطبق على الأزواج أيضاً، فالحياة الزوجية في واقع الحال مشاركة متصلة ومنفصلة بين الزوجين معاً. . وإذا أراد الزوج أو الزوجة أن يحافظا على قدر من سعادتهما الزوجية فعليهما أن. . يتجنبا النكد. . .

لا تكن قاسياً في نقدك الآخرين

قلنا إن النكد هو أقصر الطرق المسببة للتعاسة الزوجية، ثم يتبعها الطلاق. . لكن ما هو أساس النكد؟ إنه نقد الزوجة لزوجها، أو نقد الزوج لزوجته، هناك من يودون الإصلاح من نقدهم شريك حياتهم فعلاً، ولكن أسلوب تقديم هذا النقد هو الهادم الأكبر لقيمته. . وقد أوضحنا كيف تنتقد الآخرين بلطف ولباقة، ودون إثارة المشاعر، وما ينطبق على الآخرين يصح بالطبع في حال الزوجة، بل إن الزوجة في حاجة إلى كياسة أكثر حين ينتقدها الزوج، نعم. . إنها أقدر على تحمل أخطاء زوجها من الغير، ولكنها إنسانة أيضاً، فإذا ما نفر قلبها صعب رده إلى مكانه وعندئذ تبدأ منغصات الحياة في العمل. . .

إليك مثلاً من واقع حياتي؛ إنه جدي وجدتي، قاربا السبعين من عمريهما المديد وهو الأستاذ الجامعي المرموق وعضو مجلس الشورى وله اسمه ونشاطه الذي لا ينضب في أكثر من مجلة علمية، ومن الأقرب إلى المعقول أن تكون مشاغله الكثيرة وشؤون حياته العويصة أقدر من غيرها على إرهاق الرجل، وجعله متبرماً بالناس وبزوجته، لكنهما عاشا خمسين سنة في بيت زوجي هادىء تظلله السعادة ويرفُّ في أرجائه الهناء. . لم يكن جدي ينتقد، بل كان يعبث كالأطفال أحياناً ليُدخل السرور إلى قلب جدتي عَلِيَّة هانم.

ومن اللطيف أن يتصور المرء عجوزاً يرقص مع زوجته وينقران بدف يدوران به حول نار الموقد وهما يغنيان، تبدأ جدتي بخفة دمعها المعروفة:

يا راجل يا عجوز   منا خيرك أد الكوز
وتملِّي ضارب بوز

فيرد جدي:

وانتِ يا سمرة يا سماره   عيبك إنك ثرثاره
وواخده الدنيا شطاره

هي: ما تسيبك يللا نغني وندور في الدنيا الدوَّاره

هو: سيبك يللا نغني وندور في الدنيا الدوَّاره.

ولا بد أن هنالك بعض الأخطاء التي كانت تقع في بيت جدي، منها أنه كان ينام مبكراً ويصحو مبكراً، فقلما تجده نائماً بعد الساعة السادسة صباحاً، ولم يكن أحد في البيت يحب أن يستيقظ في مثل هذه الساعة من الصباح الباكر، وحين يستيقظ ويجدنا نياماً، كان يملأ جو البيت بالأصوات المزعجة فنهبّ من نومنا مذعورين، ويسود البيت جو من المرح عندما نكتشف أن جدي كان يقلد أحد أصوات الحيوانات التي يجيدها، لم يكن ينتقد أحداً، لقد كان ينبهنا إلى الواجب بعنف، ولكنه لا يلقي اللوم على أحد بعينه. لهذا اعتادت جدتي أن تصحو مبكرة هي الأخرى وكذلك والدتي.

إن النقد على لسان الزوج أو الزوجة سهم قاتل للسعادة الزوجية إذا تكرر وانعدمت فيه اللباقة، أما اللباقة هذه فقدر كبير منها ينبع من الانسجام الداخلي في المرء، والحب للآخرين في الحياة.

ولقد نشر أحد بيوت الخبرة في الزواج بحثاً في «الحياة الزوجية وتقصي أسباب الطلاق» ملخصه:

«إن أكثر من نصف الزوجات اللواتي يمكن أن يحظين بالسعادة، يتحطمن في العادة على صخور محاكم الطلاق بسبب النقد وحده».

وهذا يعني أن النقد العقيم الذي يكسر القلب، ويذل النفس هو الذي يسرع بالحياة الزوجية إلى الفشل ويدمرها تدميراً.

فعليك أيها القارىء العزيز أن لا تنتقد نقداً عقيماً يكسر القلب، ويذل النفس.

* * *

وراء كل هناء عائلي زوجة عاقلة

الأستاذ خميس المحامي المشهور بالقاهرة عاش عابثاً لاهياً وقد ارتكب كثيراً من الحماقات في هذه الحياة قرر على أثرها أن لا يتزوج زواجاً أساسه الحب.

وقد برَّ بوعده إذ بقي عزباً حتى بلغ الأربعين من عمره. ثم تزوج من عزيزة هانم، أرملة ثرية تكبره بخمسة عشر عاماً وقد ابيضَّ شعرها.

هل كان الحب هو السبب؟ لا فقد كانت عزيزة هانم تعلم علم اليقين أنه لا يحبها وأنه لم يتزوجها إلا طمعاً في مالها، ومن ثم سألته قبل أن يتزوجها أن ينتظر سنة واحدة بهدف دراسة أخلاقه وسلوكه، فلما انتهت السنة تزوجته!

وقد يبدو هذا الزواج للوهلة الأولى أشبه بصفقة تجارية، ولكن زواجه كان من أنجح الزيجات في تاريخ العلاقات الزوجية.

لم تكن عـزيزة هـانم زوجة الأستـاذ خميس جميلة، ولا ذكية وقـد ولّى الشباب، وكان حديثها يثير الضحك لفرط ما يعتريه من أخطاء لغوية وتاريخيـة مشينة. وكانت طريقتها في تـدبير شؤون المنـزل تثير العجب والقلق، ولكنهـا كانت عبقرية موهوبة في فن معاملة زوجها.

لم تحاول قط أن تعترض طريق زوجها.

كان إذ وصل إلى البيت متعبـاً، بعد يـوم من النقاش السـاخن وجد في عزيزة هانم ما يُنسيه تعبه، ويخلد به إلى الراحة والهدوء وسكينة النفس، كان يجد في البيت مكاناً مثالياً يرفّه فيه عن أعصابه المرهقة.

لقـد كانت أسعـد أيـام حيـاتـه هي التي قضـاهـا في البيت مـع زوجتـه العجوز، حتى لقد كـان يتلهف إلى العودة للبيت كـل ليلة ليروي لهـا أحداث اليوم الذي مر به.

ومهما كانت عزيزة هانم تبدو تافهة، ساذجة، أمام الناس، فـإن الأستاذ خميس لم ينتقدها قط، ولم ينطق بكلمة لوم موجهـة لها، وإذا لجـأ أحد إلى السخرية منها التزم جانبها ودافع عنها في صدق وإخلاص.

وكانا أحياناً يمزحان فيقول لها الأستاذ خميس:

«إنني لم أتزوجك إلا لمالك على أية حال»!!

فتبتسم عزيزة هانم وتجيب: صحيح ولكن لو خُيِّرت في أن نعيـد الكرة الآن، أفلا تعيدها باسم الحب؟». ويوافق على كلامها!

كلا لم تكن عزيزة هانم كاملة من جميع الوجوه، ولكن الأستـاذ خميس كان من الحكمة بحيث جعلها تعيش على سجيتها!

ولعل قصة الأستاذ خميس مع زوجته عزيزة هانم تذكرنـا بما قـاله أحـد الفلاسفة: «إن أول مـا ينبغي أن تتعلمه في فن معـاملة الناس هـو ألّا تعترض سبيل سعادتهم، اللهم إذا كانت القوة طريقاً لاعتراض سبيل سعادتك أنت».

فإذا أردت أن تستبقي سعادتك الزوجية.
دع شريك حياتك ينطلق على سجيته.

قـال رسول الله ﷺ: «أعـظم الناس حقـاً على المرأة زوجهـا، وأعـظم الناس حقاً على الرجل أُمُّه» رواه البخاري عن أنس رضي الله عنه.

* * *

امنح السعادة لشريكة حياتك على قدر استطاعتك

تقول الأستاذة محـررة باب الـزواج في جريـدة الجمهوريـة: «إن معظم الشبان الراغبين في الزواج لا يهمهم أن تكون المـزوجة المنشـودة ربة بيت من الطراز الأول بقدر ما يهمهم أن تشبع غرورهم، وتمنحهم الإحساس بـالأهمية والاعتبار»!!

ولعل هذا هو السر في أن أكثـر الفتيات المثقفـات يخفقن في الحصول على الأزواج، فإنك قد تدعو الفتاة المثقفة للغداء معك، فلا تلبث أن تتركك وقد تحمست لدراسة التيارات الهامة في «الفلسفـة المعاصـرة» ـ مثلاً ـ ومـاذا تكون النتيجة؟ تتناول غداءها بعد ذلك بلا رفيق.

ولكنك قد تدعو إلى الغداء فتاة تعمل على الآلة الكاتبة ولم تـدرس قط في الجـامعة، فـلا تلبث أن تثبت نـظرهـا عليـك وتقـول لـك: «حـدثني عن نفسك». وماذا تكون النتيجة؟

سوف تقول لأصحـابك حتمـاً: «صحيح أنهـا ليست على قدر كبيـر من الجمال، ولكني لم ألتق بمحدثة لبقة مثلها!».

هذا عن النساء المثقفات وغير المثقفات، فماذا عن الرجال؟

إنك لا تجد رجلاً ـ اللهم فيما ندر ـ يقدّر الجهد الذي تبذله المـرأة في سبيل ظهورها المظهر الذي يروق له!

إن أكثـر الرجـال غافلون عن شغف النسـاء بالثيـاب، وعنايتهم بـالـزي والهنـدام! أفلا ينـظرون إلى المرأة إذا صـادفت امرأة أخـرى في الطريق كيف تتأملها مليًّا. وتملأ عينيها من زيها وهنـدامها؟! فلمـاذا بالله؛ لا يفيق الـرجال من غفلتهم، ويجاهرون بتقدير الهندام الذي أرهقت المرأة نفسها في إحكـامه لتروق في عيونهم.

* * *

توفيت جدتي لأمي منذ بضعة أعوام، وهي في الثامنة والتسعين من عمرها، وحدث قبيل وفاتها أن أطلعناها على صورة التقطت لها من قبل ذلك بنحو ثلث قرن: فلم تتمكن عيناها الواهنتان من التطلع إليها، ولكنها ألقت سؤالاً واحداً لن أنساه طيلة حياتي، فقد رسمت على شفتيها ابتسامة باهتة، واستجمعت أنفاسها اللاهثة لتقول: «أي الثياب كنت أرتدي؟!»

هل تتصور عجوزاً في شتاء عمرها، لا تستطيع أن تنهض على رجليها، وقد اضمحلت ذاكرتها، حتى لم تعد تتعرف على بناتها، لا تزال برغم ذلك، تهتم باستطلاع الهندام الذي كانت تبدو فيه قبل ذلك بثلث قرن؟!

ولن تجد رجلاً واحداً من قراء هذه السطور يعنيه أن يتذكر أي الحلل، ولا أي القمصان كان يرتدي منذ خمس سنوات، ولكن النساء إنهن مختلفات جداً؛ وهذه حقيقة يجب أن يعيها الرجال تماماً.

* * *

وأذكر من قصص الأساطير التي روتها جدتي عندما كنت صغيراً، وكانت تقولها على سبيل المثل؛ إن امرأة قروية، أتت يوماً بكومة من علف الماشية، ووضعتها أمام رجال عشيرتها بدلاً من الطعام، فصرخ الرجال في وجهها وقد حسبوا أن مسًّا من الجنون أصابها، فما كان منها إلا أن قالت لهم: «وما أدراني أنكم ستلاحظون الفارق؟ لقد ظللت أطهو لكم طعامكم عشرين عاماً سوياً، فلم أسمع منكم، طوال هذه المدة ما يطمئن إلى أنكم تفرقون حقاً بين الطعام الجيد، وعلف الماشية!».

ومن الغريب أنك إذا نزلت ضيفاً عند الآخرين، واستحسنت طعاماً فإنك لا تنسى أن تقدم لربة المنزل آيات الشكر والتقدير!

أفليست زوجتك أحق بالشكر والتقدير؟

في المرة التالية عندما تطهو لك زوجتك دجاجة محمَّرة، أظهر لها إعجابك بطريقة طهوها، دعها تفرق بين علف الماشية والطعام الجيد؟

منذ بضعة أيام صادفت في إحدى المجلات حديثاً ممتعاً للنجم السينمائي يحيى شاهين، وفيه يقول:

«إنني أدين لزوجتي أكثر مما أدين لشخص آخر في الوجود، فقد عاونتني على شق طريقي في الحياة، وأدخرت كل قرش أمكن إدخاره، وجعلت لي من ذلك ثروة تنفع في الأيام السود، وقد أنجبنا بفضل الله أطفالاً فأحسنت تربيتهم، ووسعها أن تهيِّئ لي من البيت جنة فيها النعيم المقيم، فلو أنني بلغت في الحياة شأواً مذكورا، فالفضل كل الفضل يرجع إليها».

فإذا أردت أن تسعد حياتك الزوجية:

امنح التقدير المخلص لرفيقة درب حياتك. قال رسول الله ﷺ: «إن الرجل إذا سقى امرأته الماء أجر» رواه الطبراني عن عقبة بن عامر رضي الله عنه.

* * *

لغة المحبين

يجمع الناس على أن الزهور هي لغة الحب، وأنها على صمتها أبلغ من كل بيان، وهي لا تكلف كثيراً فباعتها في كل مكان، وباقتها لا تكلف أكثر من دراهم معدودات، ولكنك إذا علمت أنه من النادر أن يحمل الزوج لزوجته باقة منها، لعرفت أنها أفدح الأشياء ثمناً وأصعبها منالاً!

لماذا لا تحمل إليها باقة منها في مساء الغد وأنت عائد إلى البيت؟

اعتاد «ابراهيم» ـ ولعله أكثر ازدحاماً بالعمل في الموسكي ـ أن يتصل بأمه تليفونياً مرتين كل يوم. هل تظن أنه كان ينقل إليها في كل مرة أخباراً جديدة؟ كلا ولكنها لفتة بسيطة يظهر بها لأمه أنه يفكر فيها، وأنه يريد أن يراها، وأنها دائماً في مخيلته، قريبة إلى قلبه.

ثم إننا نعلق أهمية كبرى، وخاصة حواء ـ على الأعياد والمناسبات أما لماذا؟ فهذا سر مغلق من أسرار حواء.

وإنك لترى الرجل منا ينسى في زحمة الحياة أكثر الأعياد والمناسبات وهو في هذا معذور، ولكنه ليس معذوراً أبداً إذا نسي في هذه المناسبات اثنتين، عيد ميلاد زوجته، وعيد زواجه! في وسعك أن تستغني عن الاحتفال

بكافة المناسبات، أما هاتان، فالاحتفال بهما أشبه بضريبة عليك أن تؤديها حفظاً لهنائك العائلي!

ويقول القاضي «توفيق بك» الذي فصل في نحو أربعين ألف خلاف بين الأزواج، ووفق في نحو ألفين منهم: «إنك لتجد التوافه دائماً في قرارة كل شقاء زوجي، فإغفال الزوجة - مثلاً - عبارة «مع السلامة» تقولها لزوجها، وهي تلوح له بيدها أثناء انصرافه إلى عمله في الصباح، شيء تافه، ولكنه كثيراً ما أدى إلى الطلاق!»

نعم، الزواج سلسلة من التوافه، وويل للزوجين اللذين تغيب عنهما هذه الحقيقة!

وقد لخص الشاعر[1] أثر التوافه في الشقاء الزوجي في هذين البيتين:

أشدُّ ما يشقى له فؤادي ... أنّا افترقنا لأتفه الأسبابِ

ضاع ما بيننا من الحُب ... فَلَسْنَا كَسَالِفِ عهدنا أحبابِ

* * *

في مدينة القاهرة زادت أحكام الطلاق في المحاكم بدرجة كبيرة، فكم تظن من هذه الزيجات أخفق بسبب مأساة حقيقية؟ لو أنك جلست في محكمة الجيزة للأحوال الشخصية بامبابه واستمعت إلى أقوال أولئك الأزواج الأشقياء لعرفت حقاً أن الحب ذهب لأتفه الأسباب!

أفصل هذه الفقرة التي أسوقها إليك هنا، واجعلها في لوحة وضعها في حجرة نومكما عسى أن تراها زوجتك كل صباح وتعمل بها:

«لن أمرَّ عبر هذا اليوم سوى مرة واحدة، فأيَّةُ يد يسعني أن أسديها، وأيَّةُ رحمة أستطيع أن أدرك بها إنساناً ينبغي أن أعجِّل بها، لن أتردد، ولن أتوانى، ولن أسوِّف فلن أمرَّ عبر هذا اليوم سوى مرة واحدة».

فإذا أردت أن تسعد حياتك الزوجية:

---

(١) البيتان للمؤلف.

«لا تهمل اللفتات الصغيرة فإن لها في الزواج شأناً كبيراً». وتذكر دائماً:

«ما دام لك ركن في القلب، فستجد لك ركناً في البيت».

* * *

الاحترام المتبادل بين الزوجين أساسي لدوام السعادة الزوجية

أحد علمائنا الأجلاء الحائز على الجائزة الذهبية كأحسن عالم من عشرين عالماً على مستوى العالم في تخصصه، وفي الكتاب السنوي لمنظمة اليونسكو وُضِعت صورة العالم الجليل في عشرين ورقة بالحجم الكبير وتحتها مقتطفات عن حياته وأهم أعماله، وقد كرَّمه السيد رئيس الجمهورية فمنحه أعلى وسام في مصر وهو قلادة النيل في عيد العلم، وهو عطاء متجدد لمصر، وفخر لكل الأجيال.

رأيته في حديث عائلي مع زوجته وأولاده من خلال البرنامج التليفزيوني الممتع «عالم الشُهرة» وتكلم العالم الجليل فأثنى على زوجته والتي لولاها لما وَصَل إلى ما هو فيه الآن وهي مفتاح السعادة في هذا البيت الهانئ الهادئ.

هكذا كان يشير إليها ويتجه نحوها وفمه تملأه ابتسامة عريضة لكأنه يقول لنا عبر الأثير إنها بالفعل هي التي صنعته.

ثم تكلم الأبناء، الابن الأكبر معيد بكلية الهندسة جامعة القاهرة متزوج وله طفلتان يحبهما الجد حباً جمًّا ويحنو عليهما كثيراً بل ويشاركهما عبث الصغار، والابن الثاني معيد بكلية الزراعة ومتزوج حديثاً، وأما الابنة فهي متزوجة من أحد تلاميذ العالم الجليل وتشاركه نفس التخصص.

وجاء دور السيدة الفاضلة الزوجة إنها المايسترو في هذا البيت الذي يتصرف بكل حكمة وإتقان فيخرج من بين يديه أجمل الألحان.

كانت طالبة جامعية، وكان هو أستاذها (مدرس بالكلية) وربط الحب بينهما، وتم الزواج، وكانت متفوقة أيضاً وحصلت من التعليم العالي على

درجة الماجستير، لكنها لم تكمل الطريق، فضَّلت أن تكون إلى جواره في رحلة الكفاح، تشاركه النجاح وإن لم تكن تصنعه، عبر رحلة زواج دامت أربعين عاماً من عمرها المديد.

ويُعد هذا الزواج بكل المقاييس من أنجح الزيجات وأكثرها وفاقاً.

* * *

واقتربت المذيعة من السيدة الفاضلة الزوجة وسألتها بلباقة عن سر السعادة الزوجية التي ترفُّ في أنحاء البيت. تقول السيدة الفاضلة:

«إن الشيء الوحيد الذي يستحق العناية بعد اختيار الزوج المناسب - في رأيي - هو التزام حدود اللياقة بعد الزواج، فلو التزمت الزوجات حدود اللياقة مع أزواجهن كما يلتزمنها مع الغرباء، لعض كل زوج لسانه إذا اندفعت إليه قوارص الكلم!»

نعم إن قوارص الكلم هي السوس الذي ينخر في جسم الحياة الزوجية، فيقضي على الحب ويستأصل جذوره، وبرغم أن هذه حقيقة بديهية إلا أننا جميعاً، أكثر تلطفاً مع الغرباء منا مع الأقرباء! إننا لا نجرؤ على أن نقاطع الغرباء قائلين - مثلاً - «ياه! أتعيد عليّ هذه القصة القديمة مرة أخرى؟» ولا يخطر لنا ببال أن نفضَّ خطابات أصدقائنا ومعارفنا دون استئذانهم، أو أن ندس أنوفنا في أمورهم الشخصية، وقد نفعل هذا وأكثر منه مع أقرب الناس إلينا وأعزهم علينا ولا نفتأ نصبحهم ونمسيهم بالإهانات، واللوم، والتفتيش عن الأخطاء!!

* * *

وتضيف زوجة العالم الجليل قولها: «إن اللياقة تستطيع أن تحجب عن الأنظار الباب المشوه الصدئ، وتشفَّ عما وراءه من الزهور المتفتحة الجميلة!»

كان «الزعفراني باشا» الذي خلعوا عليه لقب «عمدة الصعيد» شيئاً آخر بالمرة غير الحاكم المطلق متى احتواه بيته. وكان إذا وجد نفسه لأمر ما حزيناً، حاول جاهداً أن يخفي حزنه وهمّه عن أفراد أسرته، وفضل أن يتحمل

مغبة الانطواء على همِّه دون أن يسمح لهم بمشاطرته إيَّاه! هـذا ما كـان يفعله الـزعفراني بـاشا فمـاذا نفعل أنـا وأنت؟ إذا انتاب العمـل الكسـاد، أو بـاءت الصفقة بالخسران، أو أسمعنا المدين ما لا نحب أن نسمع، فما أسرع من أن نتلهف على العودة إلى البيت لنلقي بحملنا الثقيل على أكتاف الأسرة!!

لمـاذا بـالله عليـك لا نخلع همـومنـا على عتبـة دارنـا كمـا كـان يفعـل الزعفراني باشا قبل أن يدلف إلى بيته؟

لقـد حظي الأستـاذ الكبير «نجيب محفـوظ» الروائي المصـري العالمي بإعجاب العالم. وحاز على جـائزة نـوبل وقـد كرَّمـه السيد رئيس الجمهـورية بهذه المناسبة العظيمة فلنستمع إليه يقول عبـر حديث تليفـزيوني إثـر حصولـه على جائزة نوبل.

«إن كـل مـا لحقني من مجـد كـان بتـوفيق الله أولاً ورضـا زوجتي عليَّ ثانياً».

كم أمامنا من فرص لنيل السعادة في الزواج؟!

* * *

يقـول الأستاذ «محسن» خبيـر الـزواج العـالمي والحـاصـل على درجـة الدكتوراه في العلاقات الإنسانية: «إن فرص النجاح في الزواج أمام الـرجل، تفوق فرص نجاحه في أي عمل آخر يُقدم عليه، فالثابت بالإحصاء أن سبعين في المائة ممن اشتغلوا بالتجارة باءوا بالخسران في آخر الأمر، وعلى النقيض من هذا نجد أن سبعين في المائة ممن تزوجوا تكلل زواجهم بالنجاح».

تقـول السيدة «نعمـات» هانم مـديـرة أحـد بيـوت الخبـرة في الـزواج، وإحدى رائدات النشاط الاجتماعي بالقاهرة: «إن الميلاد بالقياس إلى الـزواج حدث تافه، والموت حدث أتفه! فكيف بالله يحجم الرجل عن بذل المجهـود في سبيـل هنـائـه العـائلي؟ وكيف يعـزف عن الكفـاح من أجـل السعـادة في الـزواج، وهـو يـركب الصعـاب، ويخـوض الأهـوال في سبيـل تحقيق ثـروة طائلة؟!

فأيهما أجلب للسعادة: أكوام من المال، أم زواج قائم على الوفاق والوئام؟!

إن الرجل يترك أهم الأحداث في حياته تحت رحمة الأقدار، ويدع أمر سعادته أو شقائه بين يدي الحظ وحده!

«ولا تستطيع امرأة أن تعلل انصراف زوجها عن معاملتها باللطف والكياسة، وتفضيله الفظاظة.

«وكل رجل يعرف أنه يستطيع أن يغري امرأته على أن تفعل من أجله أي شيء لو أنه أهداها بين الفينة والفينة شيئاً من الهدايا التي لا تكلف مالاً يُذكر مكافأة لها على حُسن تدبيرها للبيت، أو إجادة طهوها لطعامه!

«وكل رجل يعلم أنه لو قال لامرأته: «كم يبدو جمالك رائعاً في ثوب العام الماضي» لما رضيت أن تستبدل بهذا الثوب القديم أحدث مبتكرات باريس».

«وكل رجل يعرف أن في وسعه أن يُقَبِّل عيني زوجته وهما مغمضتان تكاد تبدو كالعمياء، ويطبع على شفتيها قُبلة حارة تُفقدها القدرة على النُطق!

«وكل زوجة تعلم يقيناً أن زوجها يعرف هذه الحقائق، ولكنها لا تدري ماذا تفعل؟ حين يقتتل معها الزوج لأتفه الأسباب؛ لأنها قصَّرت يوماً في طهو طعام كما ينبغي أو لأنها اشترت ثوباً جديداً، عندئذ تثور ثائرة الزوجة فتبدو وكأنها قد أصابها مس من الجنون، وقد يؤدي بها ذلك إلى احتقار الزوج!

أما كان من الأحرى به أن يستعين باللياقة، وأن يتحمل مشقة تملقها ولو قليلاً ليصل إلى ما يهدف إليه؟!

فإذا أردت أن تسعد حياتك الزوجية:

استعن باللياقة واللطافة والدماثة في معاملة زوجتك.

* * *

الجهل بالحياة الزوجية يؤدي إلى أوخم العواقب

أجرت مجلة حواء مؤخراً، استفتاء بين ألف زوجة من مختلف الأوساط الاجتماعية، تم هذا الاستفتاء بحضور الأستاذة الدكتورة «سوسن» استاذة علم الاجتماع، وجاءت نتيجة الاستفتاء صدمة عنيفة! كانت تنطق بمدى ما تعانيه الفتاة المصرية من جهل مطبق بأمور الجنس.

فلما اتضحت هذه الحقيقة للأستاذة الدكتورة «سوسن» بادرت بنشرها على الملأ، وأعلنت في صراحة أن من أهم أسباب الطلاق عندنا هو عدم التوافق الجنسي بين الأزواج.

وقد أدت أبحاث زميل لها في جامعة القاهرة إلى هذه النتيجة نفسها.

فقد بحث الدكتور «عمَّار» حالة مائة من الأزواج، ووجَّه إلى الرجال والنساء، كل على انفراد، نحو أربعمائة سؤال عن خصائص حياتهم الزوجية، واقتضاه هذا البحث أربع سنوات كاملة، حتى لقد اعتُبر هذا البحث من الأعمال الاجتماعية الهامة، وقد لخص الدكتور عمَّار نتيجة بحثه الهام في الإجابة عن هذا السؤال:

«ما هو خطأ الزواج؟».

* * *

يقول الدكتور عمَّار:

«إن عدم التوافق الجنسي يجثم دائماً في قرارة كل زواج فاشل، فإن كل المشكلات الأخرى التي تلابس الزواج يمكن أن يغض الزوجان عنها الطرف لو أن التوافق الجنسي استتب بينهما».

وفي معرض بحث واسع اشترك في إعداده ثلاث جامعات هي القاهرة، وعين شمس، والأزهر، وشمل الآفاً من الزيجات، وطاف أغلب محافظات الجمهورية، وكانت أهم نتيجة في هذا البحث القيِّم «أن الإخفاق في الزواج يرجع إلى أربعة أسباب رئيسية مرتبة على هذا النحو:

* عدم التوافق الجنسي.
* اختلاف الآراء والمشارب.

* المشكلات المادية.
* الشذوذ العقلي، أو العاطفي، أو الجسماني.

ولعلك تلاحظ أن الناحية الجنسية أتت في المرحلة الأولى، وأن المشكلات الماديَّة أتت في المرتبة الثالثة.

يقول أحد علماء النفس المشهورين:
«الناحية الجنسية هي بلا جدال أهم أسس الحياة، وهي الشيء الذي يتحكم أكثر من سواه في إسعاد الرجال والنساء أو إشقائهم!».

أليس من المؤسف، ونحن في القرن العشرين، ولنا ما لنا من العلم والمعرفة، أن يتحطم الزواج، وتُدْبر السعادة، ويُقْبل الشقاء بسبب الجهل الفاضح بصدد أهم الغرائز الطبيعية وأولاها بالاعتبار؟!

««إن الزواج السعيد ليس وليد الظروف، بل هو كالبناء المشيد لا بدله من أساس قوي متين».

اقرأ كتاباً علمياً يتحدث عن العلاقة بين الزوج والزوجة بصورة رصينة.. ولا تكن زوجاً جاهلاً.

بصورة رصينة.. ولا تكن زوجاً جاهلاً

قال رسول الله ﷺ: «كل شيء يلهو به ابن آدم، فهو باطل، إلا ثلاث» رمية عن قوسه، وتأديبه فرسه، وملاعبته أهله، فإنهن من الحق». رواه أحمد، وأصحاب السنن.

روى أبو يعلي عن أنس بن مالك: أن رسول الله ﷺ قال: «إذا جامع أحدكم أهله فليصدقها، فإذا قضى حاجته قبل أن تقضي حاجتها فلا يعجلها حتى تقضي حاجتها».

روى مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «ولك في جماع زوجتك أجر. قالوا يا رسول الله أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر؟ فكذلك إذا وضعها في حلال كان له أجر».

الفصل الثامن

كيف تختار أصدقاءك وتتعامل معهم

من هدي تراثنا العربي



كيف تختار أصدقاءك وتتعامل معهم

عند اختيارك لأصدقائك (وجيرانك)، حاول أن تراعي فيهم كل المواصفات التي يفرضها «حُسن الاختيار»، قال رسول الله ﷺ: «خذ الرفيق قبل الطريق.. والجار قبل الدار». ويجب أن لا يفوتك أن اختيار الجار يتطلب المحافظة عليه. قال رسول الله ﷺ: «ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورِّثه». وإليك بعض الصفات التي يجب مراعاتها عند اختيار الصديق والجار والصاحب وهي:

أولاً: أن يَغْلُب خيره على شره فيكون خَيِّراً بطبعه.

ثانياً: أن يكون من ذوي الصفات الحسنة والسمعة الطيبة.

ثالثاً: يُفضَّل أن لا يكون «صاحب منفعة» فتراه دائماً متعلقاً بك، وتوخَّ صديقاً تجده عند الشدائد.

وإذا الصديق رأيته متعلقاً ... فهو العدو وحقُّه يُتجنَّب
لا خير في ودِّ امرئ متملِّق ... حلو اللسان وقلبه يتلهب
يلقاك يحلف أنَّه بك واثق ... وإذا توارى عنك فهو العقرب
يعطيك من طرفِ اللسان حلاوة ... ويروغ منك كما يروغ الثعلب
واختر قرينك واصطفيه تفاخراً ... إن القرين إلى المقارن ينسب

والأبيات السابقة هي من قصيدة مشهورة ومنسوبة للإمام علي رضي الله عنه. والعرب تقول في أمثالها:

إن أخـا الهيجـاء من يسعى معـك ومـن يـضـر نـفـسـه لـيـنـفـعـك
ومن إذا ريب الـزمـان صـدعـك شـتـت فيـك شمله لـيـجـمـعـك

رابعاً: «ثلاثة لا يهنأ لصاحبها عيش، الحقد والحسد وسوء الخلق». **وقال عمر رضي الله عنه**: «يكفيك من الحاسد أنه يغتنم وقت سرورك». وكان **يقول**: «نعوذ بالله من كل قدر وافق إرادة حاسد». والحسود هو الذي يتمنى زوال النعمة عنك. وذوالوجهين» هو الذي وصفه الشاعر العربي فقال:

يُعـطيـك من طَـرَفِ اللسـانِ حـلاوة ويـروغُ منـك كَمَـا يَـرُوغ الثعلب

و«الكـذوب» و«الحاسد» كلاهمـا سيـئ ومصاحبتهمـا تجلب المضـرة وتمثل بالحكيم من الشعر:

ودع الكـذوب فلا يكن لـك صاحبـا إن الكـذوب لبئس خِـلًّا يُصحـب
وذر الحسـود ولـو صفـا لـك مـرة أبْعِـدْهُ عن رؤيـاك لا يُستجـلب

خامساً: ومن المفيد حقاً أن لا يكون «مغتاباً» ولا «نمّاماً»، فأما الغيبة فهي ذكر الإنسان بما يكره ولو بما فيه سواء كان في دينه أو بدنه أو نفسه أو خُلُقه أو ماله أو ولده أو والده أو زوجته أو خادمه أو عمامته أو ثوبه أو مشيته أو حركته أو بشاشته أو خلاعته أو غير ذلك مما يتعلق به سواء ذُكر باللفظ أو بالكتابة أو بالرمز بالعين أو باليد أو بالرأس أو نحو ذلك»، ويقال:

«لا تَأْمَنْ مَنْ كَذَبَ لَكَ أن يكذِبَ عليك، ومن اغتاب عِنْدَك غَيْرَكَ أن يغتابك عندَ غيرك». ويجب على من يستمع إنساناً يبتدئ بغيبة أن ينهاه إن لم يخف ضرراً فإن خافه وجب عليه الإنكار بقلبه ومفارقة ذلك المجلس إن تمكّن من مفارقته فإن قال للمغتاب: اسكت وقلبه يشتهي سماع ذلك قال بعض العلماء: إن ذلك نفاق. قال تعالى: ﴿**وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُم حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ**﴾[1]. ومما أنشدوه في هذا المعنى:

وسمعـك صُن عن سماع القبيـح كصـون اللسـان عـن النُّـطق بـه
فـإنـك عـنـد سمـاع الـقـبـيـح شـريـكٌ لـقـائـلـه فـانـتـبـه

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٦٨.

وأما «النميمة» فإنها تُطلق في الغالب على من ينم قول الغير. وكان الفضل بن سهل يبغض السِّعَايَة «النميمة» ومن أقواله: «إن قبول السعاية شرٌّ من السعاية لأن السِّعاية دلالة والقبول إجازة وليس من دلّ على شيء وأخبرَ به كمن قبله وجازه»، فاجتنب النمَّام لأنه لو كان فيما نقله إليك صادقاً لكان في صدقه لئيماً إذ لم يحفظ الحرمة ولم يستر العورة وقيل: «من سعى بالنميمة حَذِرهُ الغريب ومقتهُ القريب».

وقال المأمون: «النميمة لا تقرب مودة إلا أفسدتها، ولا عداوة إلا جددتها، ولا جماعة إلا بددتها». ثُمَّ لا بد لمن عُرف بالنميمة أو نُسِبَ إليها أن يُجْتَنَب وأن تبتعد عن معرفته ولا تثق به.

يسعى عليك كما يسعى إليك فلا تأمن غوائل ذي وجهين كيّاد

وقال صالح بن عبد القدوس رحمه الله تعالى:

من يُخبرك بشَتْم عن أخٍ فهو الشاتمُ لا من شتمك
ذاك شيء لم يواجهك به إنما اللوم على من أعلمك

وقال الحسنُ رضي الله عنه: «سترُ ما عانيت أحسنُ من إشاعة ما ظننت». وقال عبد الرحمن بن عوف رضي الله تعالى عنه: «مَنْ سَمِعَ بفاحشة فأفشاها فهو كالذي أتاها».

سادساً: أن يكون كتوماً للسر فلا يُفشيه وفيًّا بالوعد حافظاً للعهد واحذر اللئيم.

قال المُهلّب: «أدنى أخلاق الشريف كتمان السرّ، وأعلى أخلاقه نسيان ما أُسرّ إليه».

وقيل: «كتمان الأسرار يدل على جواهر الرجال وكما أنه لا خير في آنية لا تُمسك ما فيها فكذلك لا خيرَ في إنسان لا يكتم سراً».

وقال صالح بن عبدالقدوس: «لا تودع سرّك إلى طالبه فالطالب للسر مذيع... ولا تودع مالك عند من يستدعيه فالطلب للوديعة خائن».

وقيل لأعرابي: ما بلغ من حفظك للسرّ؟

قال: «افرّقه تحت شِغاف قلبي، ثم أجمعه وأنساه كأني لم أسمعه».

وكان يقال: «أحزم الناس من لا يفشي سرّه إلى صديقه مخافة أن يقع بينهما شر فيفشيه».

وقيل: «الطُمأنينة إلى كل أحد قبل الاختبار حمُق».

وكان عُمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: «ما أفشيت سري إلى أحد قط فأفشاه فلُمته إذا كان صدري به ضيق».

وقال الأحنف بن قيس متعجباً ممن يضيق صدره بسره فيفشيه: «يضيق صدر الرجل بسره فإذا حدّث به أحداً قال: اكتمه عليّ».

قال الشاعر:

إذا المرء أفشى سره بلسانه ولام عليه غيره فهو أحمق

إذا ضاق صدر المرء عن سر نفسه فصدر الذي يستودع السر أضيق

وأما «الوفاء بالوعد وحفظ العهد» فيكفيك فيه قول الحق تبارك وتعالى: **﴿وأوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولا﴾**[1] وأخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «آية المنافق ثلاث إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتُمن خان». فالوفاء من شِيم النفوس الشريفة، والأخلاق الكريمة والخلال الحميدة يعظم صاحبه في العيون وتصدُق فيه خطرات الظنون:

وقال أعرابي: «وعد الكريم نقد وتعجيل، ووعد اللئيم مطلٌ وتقليل».

وقيل أيضاً: «العُذر الجميل خير من المطل الطويل». يقول الشاعر:

لا خير في وعد إذا كان كاذباً ولا خير في قول إذا لم يكن فِعْلُ

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٣٤.

فالوفاء بالوعد من شيم الكِرام فاظفر بصحبتهم واغتنم مودتهم، وخلف الوعد غالباً ما يكون صاحبه كاذباً ولئيماً فاحذره:

«واللّه ما رأيت أعجب منكما»

كان النعمان بن المُنذر قد جعل له يومين يومَ بؤس من صادفه فيه قتله ويومَ نعيم من لقيه فيه أحسنَ إليه، وكان رجلٌ يدعى «الطائي» فقيراً، قد خرج ليرتاد شيئاً لصبيته وصغاره فصادفه النعمان في يوم بؤسه فعَلِمَ أنه مقتول فقال: حيّا الله الملك إن لي صبية صغاراً تركتهم جياعاً، وقد أرقت ماء وجهي في الحصول على شيء لهم وقد أوقعني سوء الحظ على الملك في هذا اليوم وقد قربت من مقر الصبية والأهل وهم على شفا تلف من الطوى ولن يتفاوت الحال بين قتلي بين أول النهار وآخره، فإن رأى الملك في أن أوصل إليهم هذا القوت وأوصي بهم أهل المروءة من الحي لئلا يهلكوا جوعاً ثم أعود إلى الملك وأسلم نفسي لنفاذ أمره». فلما سمع النعمان مقاله وفهم حقيقة حاله رقّ له إلا أنه قال: «لا آذن لك حتى يضمنك رجلٌ معنا فإن لم ترجع قتلناه». وكان شريك بن عدي بن شرحبيل نديم النعمان حاضراً:

فقال شريك: «أصلح الله الملك عليّ ضمانه». فمرّ الطائي مُسرعاً وصار النعمان يقول لشريك إن صدر النهار قد ولّى ولم يرجع صاحبك.

وشريك يقول: ليس للملك عليّ سبيل حتى يأتي المساء فلما قَرُبَ المساء قال النعمان لشريك: قد جاء وقتك قم فتأهب للقتل، فبينما هم كذلك إذا بالطائيّ وقد اشتد عدوه في سيره وأتى مسرعاً فلما وصل عندهما قال: خشيت أن ينقضي النهار قبل وصولي، ثم وقف قائماً وقال: أيها الملك مُر بأمرك.

فأطرق النعمان ثم رفع رأسه وقال: «والله ما رأيت أعجب منكما» أنت يا طائي فما تركت لأحد في «الوفاء بالوعد» مقاماً يقوم فيه ولا ذكراً يفتخر به

«وأما أنت يا شريك فما تركت لأحد في المروءة من سبيل فلا أكون ألأم الثلاثة ألا وأني قد رفعت يوم بؤسي عن الناس كرامة لوفاء الطائي ومروءة شريك فكان كريماً فليكن أصدقاؤك من كرام الناس ذوي المروءة الحافظين للعهود الموّفين للوعود.

سابعاً: أن يكون «صادقاً» و «أميناً». فمن كان صادقاً كان أميناً وعن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: سألت رسول الله ﷺ: بم يُعرف المؤمن؟ قال: بوقاره ولين كلامه وصدق حديثه». وقيل: «لكل شيء حلية، وحلية النطق الصدق». وقال الشاعر:

الصدق منجاة لأربابه وَقُربَةٌ تُدْنِي من الرَّبّ

وقيل: الصدق عمود الدين وركن الأدب وأصل المروءة فلا تتم هذه الثلاثة إلا به.

وقال أرسطاطاليس: «أحسن الكلام ما صدق فيه قائله، وانتفع به سامعه». وكان يقول: «الموت مع الصدق، خير من الحياة مع الكذب». ويقال أيضاً: «الصدق محمود من كل أحد إلا من الساعي». يعني من الواشي أي النمّام، ويقال: «الحرُ بالصدق أحرى». وقال عتبة بن أبي سفيان[1]: «إذا اجتمع في قلبك أمران فانظر أيهما أقرب إلى هواك فخالفه فإن الصواب في مخالفةالهوى. وقال عامر العدواني في وصيته لأولاده لما حضرته الوفاة: «إني وجدت صدق الحديث طرفاً من الغيب فأصدقوا». ومن عوّد نفسه على الصدق خاف الكذب وقلنا إن الصدق والأمانة صفتان متلازمتان فليكن خلاّنك وأحباؤك ممن يتحلون بالصدق ويتصفون به. ولتكن أميناً مع نفسك ومعهم. قال رسول الله ﷺ: «أدِّ الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك». وقال الفضيل: «ما من مضغة أحب إلى الله تعالى من اللسان إذا كان صدوقاً، ولا مُضغة أبغض إلى الله تعالى من اللسان إن كان كذوباً». وقال فيلسوف: «من عرّف نفسه الكذب لم يُصدِّق الصادق». ويقال: «راوي الكذب أحد الكذابين». وقيل أمران لا ينفكان عن الكذب كثرة المواعيد وشدة الاعتذار.

---

(١) كان والياً على المدينة وقد وصفه ابن عباس أنه كان من أعدل الولاة وكان حليماً.

وقال الأصمعي قلت لكذاب: «أصدقت قط؟» قال: «لولا أني أخاف أن أصدق في هذا لقلت لك لا، فتعجب وهذا يعني أن الكذّاب يخاف دائماً من الصدق فلا يصدق ولهذا حذّر الرسول الكريم من جريمة الكذب ونهى عنها، ويجب الابتعاد عن الكذابين ومخالطتهم مهما ظهر لك منهم من منفعة فإنها لا تدوم وهم إلى المضّرة أقرب والكذوب في طبعه الخيانة وإذا خاصمك فجر وتقوّل عليك الأقاويل فإياك وصُحبته وإياك والكذب قال رسول الله ﷺ: «إن الصدق يهدي إلى البرِّ، وإن البرَّ يهدي إلى الجنة، وإن الرجل ليصدُق حتى يُكتب عند الله صدِّيقاً، وإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذاباً» رواه الترمذي عن عتبة بن غزوان رضي الله عنه.

* * *

ثامناً: وعليك نفسك فلا تقطع رأياً بدون مشورة فمن استبدَّ برأيه هلك وقال الفضل بن الربيع وزير الرشيد: المشورة فيها بركة وإني لأستشير حتى هذه الأعجمية». يقصد خادمته.

وقال أعرابي: «لا مال أوفر من العقل، ولا فقر أعظم من الجهل، ولا ظهر أقوى من المشورة».

وقيل: «من بدأ بالاستخارة وثنّى بالاستشارة فخليق أن لا يخيب رأيه».

وقال عليّ رضي الله عنه: «خاطر من استغنى برأيه». وكان ملوك الفرس واليونان لا يجمعون وزراءهم على أمر يستشيرونهم فيه وإنما يستشيرون الواحد منهم من غير أن يعلم الآخر لئلا تقع بينهم منافسة فتذهب إصابة الرأي.

والأحنف بن قيس كان سيد قومه وعُرِفَ بالحِلم وإصابة الرأي ومن أقواله: «لا تشاور الجائع حتى يشبع، ولا العطشان حتى يُروى، ولا الأسير حتى يُطلق ولا المقُلّ حتى يجد».

وإذا أشار عليك صاحبك برأي ولم تحمد عاقبته فلا تجعلن ذلك عليه لوماً وعتاباً بأن تقول: «أنت فعلت، وأنت أمرتني، ولولا أنت ما كان كذا» فهذا كله ضجر ولوم وخِفّة.

وقال أفلاطون: «إذا استشارك عدوك فجرّد له النصيحة لانه بالاستشارة قد خرج من عداونه إلى موالاتك».

وقيل: «من بذل نُصحه واجتهاده لمن لا يشكره فهو كمن بذر في الأسباخ».

وقال الأصمعي:

النصح أرخص ما باح الرجال فلا   تردد على ناصح نُصحاً ولا تَلُمِ
إن النصائح لا تخفى مناهلها   على الرجال ذوي الألباب والفهم

وقال عليه الصلاة والسلام: «ما خاب من استخار ولا ندم من استشار ولا افتقر من اقتصد».

ويستحب مشورة الشيوخ فإنهم إن عدموا ذكاء الطبع فقد أفادتهم الأيام حيلة وتجربة قال الشاعر:

ألم تر أن العقل زين لأهله   ولكن تمام العقل طول التجارب

تاسعاً: العقل زينة: فألزم العقلاء وتجنب الحمقى والسفلة فما هو العقل؟ قيل: «العقل هو التجارب». وقال أبو العلاء المعري:

يرتجي الناس أن يقوم إمام   ناطق في الكتيبة الخرساء
كذب الظن لا إمام سِوى العقل   مُجيباً في صبحه والمساء

* * *

فمن العاقل؟ تقول العرب: «إذا عَقَلَك عَقْلك عما لا يغنيك فأنت عاقل».

ويقولون: «لا شرف إلا شرف العقل، ولا غنى إلا غنى النفس»، وقال الشاعر:

إذا لم يكن للمرء عقل فإنه   وإن كان ذا فضل على الناس هيّن

وقالوا: «العاقل لا تبطره المنزلة السنّية كالجبل لا يتزعزع وإن اشتدت عليه الريح، والجاهل تبطره أدنى منزلة مثل خفيف النبات يحركه أدنى ريح».

وقيل لعليّ رضي الله عنه: «صِف لنا العاقل». قال: «هو الذي يضع الشيء مواضعه». قيل: فصِف لنا الجاهل؛ قال: قد فعلت.

يعني بالجاهل: الذي لا يضع الشيء مواضعه.

وقال المنصور؛ الخليفة العباسي؛ في وصيته لابنه: خُذ عني اثنتين، لا تقل من غير تفكير ولا تعمل من غير تدبير».

وسُئل بعضهم: أيهُّما يُحمد في الصبا الحياء أو الخوف؟. قال: «الحياء لإنه يدل على العقل، أما الخوف فيدل على الجُبن».

وقال عمرو بن العاص يصف أهل مصر: «هم أعقل الناس صِغاراً، وأرحمهم كباراً».

وقال ازدشير حكيم الفُرس: أربعة تحتاج إلى أربعة، «الحسب إلى الأدب، والسرور إلى الأمن، والقرابة إلى المودة، والعقل إلى التجربة».

والقاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق رضي الله عنهم هو أحد الفقهاء السبعة في المدينة الذين كانوا يتصدرون للفتوى بها وهو ابن خالة علي زين العابدين بن الإمام الحسين بن عليّ رضي الله عنهم». ومن أقواله:

«من لم يكن عقله أغلب الخصال عليه، كان حتفه من أغلب الخصال عليه»، وسُئِلَ عن سعيد بن المسيّب زميله فقال: «هو أعلمنا وسيدنا». وقيل: «أفضل العقل معرفة العاقل بنفسه».

وقيل أيضاً: «العاقل المحروم خير من الأحمق المرزوق». وسُئِل أحد الحكماء: بم يُعرف عقل الرجل؟ فقال: «بقلة سَقَطِه في الكلام وكثرة إصابته فيه»، فقيل: فإن كان غائباً؟

فقال: بإحدى ثلاث: إما برسوله، وإما بكتابه (رسالته) وإما بهديته؛ فإن رسوله قائم مقام نفسه وكتابه يصف نطق لسانه وهديته عنوان همته فبقدر ما يكون فيها من نقص يُحكم به على صاحبها.

و «الأحمق» لغة مفرد والجمع «الحمقى» وهي مأخوذة من حمقت السوق إذا كسدت فكأنه كاسد العقل والرأي فلا يشاور ولا يلتفت إلى أمر من

الأمور وقد ورد في الشرع: «أن الأحمق أبغض الخلق إلى الله تعالى». وقال عيسى عليه السلام: «عالجت الأبرص والأكمه فأبرأتهما وعالجت الأحمق فأعياني».

يقول الشاعر:

لكل داءٍ دَواء يُستطب به ... إلا الحماقة أعيت من يداويها

والسكوت عن الأحمق جوابه

عاشراً: صاحب العلماء وألزم مجالسهم تَزْدَدْ فضلاً وعلماً: وكان عبد الله بن مسعود الصحابي الجليل رضي الله عنه، إذا رأى طالب علم قال: مرحباً بكم ينابيع الحكمة، ومصابيح الظلمة، خِلقان الثياب، جدد القلوب، رياحين كل قبيلة» وقال عليّ رضي الله عنه: «كفى بالعلم شرفاً أن يدّعيه من لا يُحسنه، ويفرح به إذا نُسب إليه، وكفى بالجهل ضِعة، أن يتبرأ منه من هو فيه، ويغضب إذا نُسب إليه، وقال النبي ﷺ: «هلاك أمتي في شيئين: ترك العلم وجمع المال». وقيل: «مؤدب نفسه ومعلمها أحق بالإجلال من مؤدب الناس ومعلمهم».

قال عليّ رضي الله عنه: «من نصّب نفسه للناس إماماً فعليه أن يبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره، وليكن تأديبه بسيرته قبل تأديبه بلسانه». ومن عُرف بالحكمة لاحظته العيون بالوقار. وعن النبي ﷺ أنه قال: «ما أتى أحد علماً إلا أخذ عليه الميثاق أن لا يكتمه أحداً». وشكا رجل إلى وكيع بن الجراح سوء الحفظ فقال له: «استعن على الحفظ بترك المعاصي» فأنشأ يقول:

شكوت إلى وكيع سوء حفظي ... فأرشدني إلى ترك المعاصي

وقال لي إن العلم نور ... ونورُ الله لا يؤتى لعاصي

وقال الشاعر:

يا أيها الرجل المعلم غَيره ... هلاّ لنفسك كان ذا التعليم

تصف الدواء لِذي السقام وذي الضَنى ... كيما يصح به وأنت سقيم

ونراك تصلح بالرشاد عقولنا ... أبداً وأنت من الرشاد عليم

فابدأ بنفسك فانهها عن غيِّها	فإذا انتهت عنه فأنت حليم
فهناك يُقبل ما تقول ويُهتدى	بالقول منك وينفع التعليم
لا تَنْهَ عن خلقٍ وتأتيَ مثله	عارٌ عليك إذا فعلت عظيم

* * *

حادي عشر: واعلم أن خير الخِلال الأدب، وشر المقال الكذب: **وسُئِلَ أبقراط**: ما الفرق بين من له أدب ومن لا أدب له؟

قال: «كالفرق بين الحيوان الناطق (يقصد الإنسان) والحيوان الذي لا ينطق (يقصد غير الإنسان).

ويقولون: «الفضل بالعقل والأدب لا بالأصل والحسب والمرء بفضيلته لا بفصيلته، وبكماله لا بجماله، وبآدابه لا بثيابه».

وقيل أيضاً: «عقل بلا أدب كشجاع بلا سِلاح». وقال بعض الحكماء: «من كثر أدبه كثر شرفه وإن كان وضيعاً، وذاع صيته وإن كان خاملاً، وساد وإن كان غريباً، وكثرت حوائج الناس إليه وإن فقيراً».

* * *

قال الشاعر:

لكل شيء زينة في الورى	وزينة المرء تمام الأدب
قد يشرف المرء بآدابه	فينا وإن كان وضيع النسب

وسمع معاوية رجلاً يقول: «أنا غريب». فقال: «كلا!، الغريب من لا أدب له». وقال بعض الحكماء: «العقل يحتاج إلى الأدب كما تحتاج الأبدان إلى الطعام».

وقال عليّ كرّم الله وجهه: «الأدب كنز عند الحاجة، عون على المروءة، صاحب في المجلس، أنيس في الوحدة، تعمُر به القلوب الواهية، وتحيا به الألباب الميتة، وينال به الطالبون ما حاولوا».

ويقال: «إذا فاتك الأدب فالزم الصمت فهو من أعظم الآداب».

وقيل أربعة خصال بها يسود الرجل: «الأدب والعلم والصدق والأمانة».

وقـال بعض الحكمـاء: «خمسـة تتم بخمسـة: «الحسب يتم بـالأدب» و«الجمـال يتم بالحـلاوة». و« الغنى يتم بالجـود». و«البطش يتم بـالجرأة». و«الجهاد يتم بالتوفيق».

ويقولون: «كن صموتاً وصدوقاً، فالصمت حرز والصدق عِزّ».

* «من كَثُرَ سؤاله حُرِم»، فلا تُكثر السؤال وليكن سؤالك عنـد الضرورة إليه.».

* «أظهـر الناس محبـة أحسنهم لقـاءً». فمن أحسنَ لقـاء النـاس ازداد محبة في قلوبهم.

* «إيّاك والحسد فإنه يفسد الدين ويضعف اليقين ويُذهب المروءة».

* وقيل لأفلاطون: «ما الشيء الـذي لا يحسن أن يقال وإن كـان حقاً؟ قال: مدح الإنسان نفسه».

وقـال: أربعـة تؤدي إلى أربعـة: الصمت إلى السـلامـة، والبـر إلى الكرامة، والجود إلى السيادة، والشكر إلى الزيادة».

* «من قرّب السفلة وطرح ذوي الأحساب والمروءة استحق الخذلان».

* «قليل تحمد آخرته، خير من كثير تذم عاقبته».

* «ظن العاقل خير من يقين الجاهل»، فلا تَسْتَشِر جاهلاً

* «من خاف سطوتك تمنى موتك».

* «من أعجبته آراؤه غلبته أعداؤه».

* «من قصّر عن السياسة صغُر عن الرياسة».

* «لا تشتك ضعفك إلى عدوك فإنك تشمته بك، وتطمعه فيك».

* «من ساءت أخلاقه طاب فراقه، ومن حسُنت خصاله طاب وصاله».

* * *

* «أعطني عدداً قليلاً من الشرفاء، وأنا أحطم لك جيشاً من اللصوص». . (جان جاك روسو).

* * *

* وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال، قال رسول الله ﷺ: «خير الناس أنفعهم للناس».

وقال تعالى: ﴿**وتعاونوا على البرِّ والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان**﴾.[1] ويقول مصطفى لطفى المنفلوطي: «حسبك من السعادة في هذه الدنيا ضمير نقي، ونفس هادئة، وقلب شريف، وأن تعمل بيدك».

* * *

ثاني عشر: إذا سألت كريماً حاجة فدعه يفكر فإنه لا يفكر إلا في خيره وإذا سألت لئيماً حاجة فعاجله لئلا يشير عليه طبعه أن لا يفعل فلا تقضى حاجتك، وتلطف في سؤالك فإنه أوفق في الإجابة. قال عليّ رضي الله عنه: «إن لكل شيء ثمره وثمرة المعروف تعجيله»، يقصد سرعة الإجابة عند حُسن السؤال.

وقال مسلمة لنصيب سَلني فقال: كفك بالعطيّة أبسط من لساني بالمسألة، فأعطاه ووصله.

ويقال: «إذا سُئل الكريم ارتاح، وإذا سُئل اللئيم التاع».

وقيل إن رجلاً عَرَض للمنصور فسأله حاجة فلم يقضها فعَرَضَ له بعد ذلك.

فقال له المنصور: أليس قد كلّمتني مرة قبل هذه. قال: نعم يا أمير المؤمنين، ولكنَّ بعض الأوقات أسعد من بعض وبعض البقاع أعز من بعض. فقال: صدقت. وقضى حاجته وأحسن إليه.

ويُروى أن أبا دلامة الشاعر كان واقفاً بين يدي السفاح الخليفة العباسي، في أحد الأيام.

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٢.

فقال له: سَل حاجتك؟. فقال: كلبُ صيد.
قال: «اعطوه إياه».
فقال: ودابة أصيد عليها. قال: أعطوه دابة.
فقال: وغلاماً يقود الكلب. قال: أعطوه غلاماً.
فقال: وجارية تُصلح لنا الصيد وتطعمنا منه.
قال: أعطوه جارية.
فقال: هؤلاء يا أمير المؤمنين عيال ولا بد لهم من دار يسكنونها.
قال: أعطوه داراً تجمعهم.
فقال: إن لم تكن لهم ضيعة فمن أين يعيشون؟
قال: قد أقطعته عشر ضياع عَامِرَة وعشر ضياع غامِرة.
فقال: ما الغامرة يا أمير المؤمنين.
قال: التي لا نبات فيها.
فقال: قد أقطعتك يا أمير المؤمنين مائة ضيعة غامرة، من فيافي بني أسد (يقصد الصحراء التي فيها قبيلته).

فضحك المنصور وقال: اجعلوها كلها عامِرة.

فانظر إلى ذكائه وحُسن تلطُّفِهِ في سؤاله. فبدأ سؤاله بأقل شيء (كلب صيد) فَسَهَّل القضية وجعل يأتي بالسؤال بعد السؤال على ترتيب وفكاهة حتى نال ما سأله كله ولو سأل ذلك بدايةً لما وصل إليه.

* * *

وقيل إن بعض الحكماء لَـزِم باب كسرى دهراً، في حاجة له، فلم يوصَّل إليه فكتب أربعة أسطر في ورقة ودفعها للحاجب فكان في السطر الأول: «العديم لا يكون معه صبر على المطالبة».

وفي السطر الثاني: «الضرورة والأمل أقدماني عليك».

وفي السطر الثالث: «الانصراف من غير فائدة شماتة الأعداء».

وفي السطر الرابع: «أما نعم فمُثمرة وأما لا فمُريحة».

فلمَّا قرأها كسرى وأمر به وقضى حاجته ووصله.

* * *

المَرْءُ بِأَصْغَرَيْهِ: قَلْبِهِ وَلِسَانِهِ

خرج المأمون مع قاضيه يحيى بن أكثم للنزهة يوماً فبينما هما في الطريق، عرض لهما رجل بمظلمة ومعه قصبة فنفرت دابة المأمون فألقته على الأرض فأمر بضرب ذلك الرجل.

فقال: يا أمير المؤمنين إن المضطر يركب الصّعب من الأمور وهو عالم به، ويتجاوز حد الأدب وهو كاره لتجاوزه، ولو أحسنت الأيام مُطالبتي لأحسنت مُطالبتك، ولأنت على رد ما لم تفعل أقدر من ردِّ ما قد فعلت.

قال: فبكى المأمون. وقال: أعد عليّ ما قلت فأعاده فالتفت المأمون إلى يحيى بن أكثم. وقال: أما تنظر إلى مخاطبة هذا الرجل بِأَصْغَرَيْهِ، والنبيّ ﷺ يقول: «المرء بأَصْغَرَيْهِ: قلبه ولسانه».

فقضى حاجته وأمر له بصلة جزيلة واعتذر إليه. فلما همّ المأمون بالانصراف قال الرجل: يا أمير المؤمنين بيتان قد حضراني ثم أنشد يقول:

ما جاد بالوقر إلا وهو مُعتذر ... ولا عفا قط إلا وهو مقتدر
وكلما قصدوه زاد نائله ... كالنار يؤخذ منها وهي تستعر

* * *

* وليكن سؤالك عند الضرورة وإياك أن تُريق ماء وجهك عند من لا ماء في وجهه (أي لا تسأل من ليس عنده سؤالك، وكان لقمان يقول لابنه: «يا بني إياك والسؤال فإنه يذهب ماء الحياء من الوجه، وأعظم من هذا استخفاف الناس بك».

ومن الوصايا التي أوحى بها الله تعالى إلى سيدنا موسى عليه وعلى نبيّنا الصلاة والسلام في التوراة:

«لإن تُدخل يدك في فمّ التنّين إلى المرفق، خير لك من أن تبسطها إلى غني قد نشأ في الفقر».

وقيل لأعرابي: ما السقم الذي لا يبرأ والجرح الذي لا يندمل؟.

قال: «حاجة الكريم إلى اللئيم».

وقال الشاعر:

إذا ما رماك الدهر في الضيق فانتجع   قديم الغنى في الناس إنك حامده
ولا تطلبن الخير ممن أفاده   حديثاً ومن لا يورث المجدَ والده

* * *

ويقال: أحب الناس إلى الله من سأله، وأبغض الناس إلى الناس من احتاج إليهم وسألهم:

لا تسألن بني أدم حاجة   وسل الذي أبوابه لا تحجب
الله يغضب إن تركت سؤاله   وبني آدم حين يُسأل يغضب

ويقال: «لا شيء أوجع للأخيار من الوقوف بباب الأشرار».

* * *

ثالث عشر: ومن المُفيد حقاً أن تتجنب الأشرار والفجّار والغوغاء (العامّة) وأن تبتعد عما يرتبكون من الفواحش والوقاحة والسفاهة. عن النبي ﷺ أنه قال: «قبل قيام الساعة يرسل الله ريحاً باردة طيبة فتقبض روح كل مؤمن ويبقى شرار الخلق يتهارجون تهارج الحمير وعليهم تقوم الساعة». وقال مالك بن دينار: «كفى بالمرء شراً أن لا يكون صالحاً ويقع في الصالحين».

وقال لقمان لابنه: «يا بني: كذب من قال: الشر يطفئ الشر، فإن كان صادقاً فليوقد نارين ثم ينظر هل تطفئ أحداهما الأخرى؟؛ وإنما يطفئ الماء النار» يقصد الحلم. وقيل: «من فعل ما شاء لقي ما ساء».

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «عهدتُ الناس وهَواهُم تبع لأديانهم، وإن الناس اليوم أديانهم تبع لأهوائهم». وقال رسول الله ﷺ: «حسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم».

وقال عليه الصلاة والسلام: «إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى: «إذا لم تَستحِ فاصنع ما شئت». إذا لم تصن عِرْضاً ولم تخش خالقاً

وتستح مخلوقاً فما شئت فاصنع. وقال: ابن سلام: «العاقل شجاع القلب والأحمق شجاع الوجه».

وقال أنو شروان: أربعة قبائح وهي في أربعة أقبح: «البخل في الملوك، والكذب في القضاة، والحسد في العلماء، والوقاحة في النساء».

وقال عليّ رضي الله عنه: «الغوغاء إذا اجتمعوا ضرّوا، وإذا افترقوا نفعوا»، فقيل: قد علِمنا مضرة اجتماعهم فما منفعة افتراقهم؟

قال: يرجع أهل المهن إلى مهنهم فينتفع الناس بهم كرجوع البنّاء إلى بنائه، والنساج إلى منسجه، والخباز إلى مخبزه وغيرهم».

وقال بعض السلف: «لا تسبّوا الغوغاء، فإنهم يطفئون الحريق ويخرجون الغريق».

وقال حكيم: «لا يخرجن أحد من بيته إلا وقد أخذ في حجره قيراطين من جهل فإن الجهل لا يدفعه إلا الجهل (يقصد دفع السفيه عنك). قال الشاعر:

ألا لا يجهلنّ أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

وقيل بينما أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه جالس إذ جاء أعرابي فلطمه فقام إليه واقد بن عمر فجلد به الأرض. فقال عمر: «ليس بعزيز من ليس في قومه سفيه».

* * *

قال الشاعر:

إذا كنت بين الجهل والحلم قاعداً وخُيِّرت أنّى شِئْتَ فالحلم أفضل
ولكن إذا أنصفت من ليس مُنْصِفاً ولم يرضَ مِنك الحلم فالجهل أمثل

اللهم إنا نعوذ بك أن نجهل أو يجهل علينا برحمتك يا أرحم الراحمين. ويقول سلفادور دالي: «لا تناقش غبيًّا لأن الناس لن يعرفوا أيّكما الغبي».

«أحمق الثلاثة»

قيل إن أحمقين خرجا معاً في طريق فقال أحدهما للآخر: تعال نتمنَ على الله، فقال الأول: أتمنى قطيعاً من الغنم أنتفع بلبنها ولحمها وصوفها، وقال الآخر: وأنا أتمنى قطيعاً من الذئاب لتأكل غنمك، فتصايحا وتخاصما واشتدت الخصومة بينهما حتى تماسكا ثم تواصيا على أن يحتكما في أمرهما إلى أول من يقابلهما في الطريق، فلقيا شيخاً يركب حماراً عليه زقّان من عسل، فحدّثاه بحديثهما فنزل بالزقين (جرتين) وفتحهما حتى سال العسل على التراب ثم قال: صبّ الله دمي مثل هذا العسل إن لم تكونا أحمقين.

* * *

رابع عشر: وأنه ليُحسن بك أن تهادي أصدقاءك وجيرانك وأصحابك وذوي القربى فإن ذلك أدوم للمحبة بينكما. قال تعالى: ﴿**وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها**﴾[1] فسرها بعضهم بالهديّة ولتكن الهدية على قدر استطاعتك، ولو بكلمة طيبة فإن الكلمة الطيبة صدقة.

وقال رسول الله ﷺ: تهادوا وتحابوا فإنها تجلب المحبة وتذهب الشحناء». وكان ﷺ يقبل الهدية ويثبت عليها وفي الأثر: «الهدية تجلب المودة إلى القلب والسمع والبصر» ومن الأمثال: «إذا قدمت من سفر فأهد أهلك ولو حجر». وقال الفضل بن سهل وكان من أهل الرياسة والشرف: «ما استرضى الغضبان؛ ولا استعطف السلطان، ولا سُلِبت السخائم، ولا دُفِعَت المغارم، ولا استُمِيل المحبوب، ولا توقي المحذور بمثل الهدية».

وأهدى رسول الله ﷺ هديّة إلى عمر فردّها فقال: يا عمر لم رددت هديتي؟.

فقال يا رسول الله: إني سمعتك تقول: خيركم من لم يقبل شيئاً من الناس.

فقال ﷺ: يا عمر: إنما ذاك ما كان عن ظهر مسألة، فأما إذا أتاك من غير مسألة فإنما هو رزق ساقه الله إليك.

---

(١) سورة النساء، الآية: ٨٦.

وقالت أم حكيم الخزاعية (صحابية): سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تهادوا فإنه يضاعف الحب ويذهب بغوائل الصدور».

ويقال: «في نشر الهدية طيٌّ للعداوة».

وبلغ الحسن بن عمارة أن الأعمش (الفقيه)، يقع فيه ويقول: «ظالم وُلِّيَ المظالم». فأهدى إليه هديّة فمدحه الأعمش وقال: «الحمد لله الذي ولَّى علينا من يعرف حقوقنا».

* * *

فقيل له: كنت تذمه ثم الآن تمدحه.

فقال: حدثني خيثمة عن عبد الله عن رسول الله ﷺ قال: «جُبِلَت القلوب على حُب من أحسن إليها، وبُغض من أساء إليها».

وقال عبد الملك بن مروان: «ثلاثة أشياء تدل على عقول أربابها: الكتاب يدل عل عقل كاتبه، والرسول يدل على عقل مُرسله، والهديّة تدل على عقل مُهديها.

* * *

خامس عشر: وإنه لجدير بك أن يكون من شِيَمك العفو والحلم والصفح وكظم الغيظ وقبول المعذرة والعتاب.

قال بعض الحكماء: «لا شيء أحسن من عقل زانه حلم، ومن عمل زانه علم، ومن حلم زانه صدق. وقد حبب إلينا الحق تبارك وتعالى الصفح والعفو ونَدَب ذلك الخلق الجميل إلى نبيه ﷺ وهو الذي وصفه بقوله تعالى: **﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾**[1].

قال تعالى مخاطباً نبيه ﷺ: **﴿فاصفح الصفح الجميل﴾**[2] قيل هو الرضا بلا عتب.

---

(١) سورة القلم، الآية: ٤.

(٢) سورة الحجر، الآية: ٨٥.

وقال تعالى: ﴿**خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين**﴾[1].
وقال تعالى: ﴿**والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين**﴾[2].

وقال تعالى: ﴿**ولمن صَبَرَ وغَفَر إن ذلك لمن عزم الأمور**﴾[3]. وقال عليّ كرّم الله وجهه: «أولى الناس بالعفو أقدرهم على العقوبة».

وكان المأمون رحمه الله يحب العفو ويؤثره ويقول: «لقد حُبب إلي العفو، حتى إني أخاف أن لا أثاب عليه». وكان يقول: «لو عَلِمَ أهل الجرائم لذتي في العفو لارتكبوها، ولو علم الناس حبي للعفو لما تقربوا إلي إلا بالجنايات».

وقال عليّ رضي الله عنه: «إذا قدرت على عدوك فاجعل العفو عنه شكراً للقدرة عليه».

وقال رضي الله عنه: أقيلوا ذوي المروءات عثراتهم، فما يعثر منهم عاثر إلا ويده، يد الله يرفعه»

ومن أقواله أيضاً: «أول عِوَض الحليم عن حلمه، أن الناس أنصار له على الجاهل».

وقيل: «لذة العفو يلحقها حمد العاقبة، ولذة التّشفي يلحقها ذم الندم».

وكان الأحنف رحمه الله كثير العفو والحلم وكان يقول «ما آذاني أحد إلا أخذت في أمره بإحدى ثلاث: إن كان فوقي عرفتُ له فضله، وإن كان مثلي تفضَّلت عليه، وإن كان دوني أكرمت نفسي عنه».

وكان مشهوراً بين الناس بالحلم وبه سادَ قومه وكان يقول: «وجدت الاحتمال أنصر لي من الرجال». وسُئِلَ ذات مرة ممن تعلمت الحلم؟

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٩٩.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٣٤.
(٣) سورة الشورى، الآية: ٤٣.

فقال: من قيس[1] بن قيس بن عاصم، كنا نذهب إليه لنتعلم منه الحِلْم ولقد حضرت عنده يوماً وقد أتوه بأخ له قد قتل ابنه فجاءوا به مكتوفاً.

فقال: ما لكم زوَّعتم (ارعبتموه) أخي، أطلقوه وأحملوا إلى أم ولدي ديته فإنها ليست من قومنا ثم أنشأ يقول:

أقول للنفس تصبيراً وتعزية إحدى يدي أصابتني ولم تُرد
كلاهما خَلَفٌ من فقدِ صاحبه هذا أخي حين أدعوه وذا ولدي

وقيل: «ليس من عادة الكريم إذا قَدر غفر، وإذا رأى زلة ستر».

وقالوا: «ليس من عادة الكرام سرعة الغضب والانتقام». وأحضر إلى المأمون رجل قد أذنب.

فقال له: أنت الذي فعلت كذا وكذا.

قال: نعم يا أمير المؤمنين أنا الذي أسرف على نفسه واتّكل على عفوك، فعفا عنه وخلّى سبيله.

وركب عمرو بن العاص بغلة شهباء فمرّ على قوم فقال بعضهم: من يقوم للأمير فيسأله عن أمه وله عشرة آلاف. فقال واحد منهم: أنا. فقام وأخذ بعنان دابته.

فقال: أصلح لله الأمير، أنت أكرم الناس خيلاً، فلم تركب دابةً شهباء؟

فقال: «إني لا آمل دابتي حتى تملّني، ولا أمل من رفيقي حتى يملّني».

فقال: أصلح الله الأمير، أما العاص فقد عرفناه وعلمنا شرفه، فمن الأم؟ (يقصد سؤاله عن أمه).

قال: على الخبير غُمت، هي النابغة بنت حرملة بنت عزة سبتها رماح العرب فحُمِلَت إلى سوق عكاظ فبيعت فاشتراها عبد الله بن جدعان ووهبها للعاص بن وائل (أبوه) فولدت وأنجبت (يقصد أنجبته)، فإن كانوا قد جعلوا لك جعلاً (يعني رهاناً)، فارجع وخذه وأرسل عنان دابتي.

(١) كان سيداً في قومه أيضاً.

فأنظر كم كان تجرُّؤُ السائل على عمرو بن العاص، وهو يعلم أن أمه جارية من السبي، وكم كان حلم عمرو بن العاص رضي الله عنه وهو يرد على سؤاله ويعفو عنه وهو قادر عليه. وكان معاوية رضي الله عنه يُعرف بالحلم وله فيه أخبار مشهورة وآثار مذكورة وكان يقول: «إني لآنف أن يكون في الأرض جهل لا يسعه حلمي، وذنب لا يسعه عفوي، وحاجة لا يسعها جودي».

وقال له رجل يوماً: ما أشبهك بأمك؟

فقال: ذاك الذي أعجب أبا سفيان فيها.

وكتب معاوية إلى عقيل بن أبي طالب رضي الله عنه يعتذر من شيء جرى بينهما يقول: «من معاوية بن أبي سفيان إلى عقيل بن أبي طالب. أما بعد، يا بني عبد المطلب فأنتم والله فروع قصيّ ولُباب عبد مناف، وصفوة هاشم فأين أخلاقكم الراسية؟ وعقولكم الكاسية؟ وقد أساء والله أمير المؤمنين ما كان جرى ولن يعود لمثله إلى أن يغيب في الثرى». فكتب إليه عقيل يقول:

صدقت وقلت حقاً غير أني ... أرى أن لا أراك ولا تراني
ولست أقول سوءاً في صديقي ... ولكني أصدُّ إذا جفاني

فركب إليه معاوية رضي الله عنه وناشده في الصفح عنه واستعطفه حتى رجع.

* * *

ولما دخل الفيل دمشق، واجتمع الناس لرؤيته، صعد معاوية في مكان مرتفع ينظر إليه، فبينما هو كذلك، إذ رأى في إحدى حجرات قصره رجلاً مع (الجواري). فأتى الحجرة ودق الباب فلم يكن من فتحه بد. فنظر إلى الرجل وقال له: يا هذا: في قصري وتحت جناحي، تهتك حُرمتي، وأنت في قبضتي، ما حمَّلك على هذا؟

قال: حلمك أوقعني فيما أنا فيه.

فقال له معاوية: فإن عفوت عنك تسترها (يقصد الجارية). قال: نعم، فعفا عنه وخلّى سبيله. قال الشاعر:

إذا مرضتم أتيناكم نعودكم وتذنبون فنأتيكم ونعتذر

والعفو إلى العفو أقرب، حكى الربيع مولى الخليفة المنصور قال: ما رأيت رجلاً أربط جأشاً وأثبت جناناً من رجل سعى به غلام (خادم) عند المنصور الخليفة العباسي وادعى أن عنده ودائع وأموالاً لبني أميّة، فأمر المنصور بأحضاره.

فما مَثَلَ بين يديه، قال له المنصور: قد رُفع إلينا خبر الودائع التي عندك لبني أمية فاذهب واحضرها ولا تدع منها شيئاً.

فقال: يا أمير المؤمنين: أنت وارث بني أمية؟ قال: لا.

فقال: هل لك من وصية في أموالهم؟ قال: لا.

فقال: فما سؤالك عما في يدي؟.

فأطرق المنصور وتفكّر برهة ثم رفع رأسه وقال: إن بني أمية ظلموا المسلمين فيها، وأنا وكيل المسلمين في حقوقهم، وأريد أن آخذ ما ظلموا المسلمين فيه فاجعله في بيت أموالهم.

فقال: يا أمير المؤمنين، لهذا تحتاج إلى إقامة بيّنة عادلة أن ما في يدي لبني أمية مما خانوه وظلموه، فإن بني أمية كانت لهم أموال غير أموال المسلمين.

فأطرق المنصور ثانية، ثم رفع رأسه وقال يا ربيع (وزيره) ما أرى الشيخ إلا قد صدق، وما يجب عليه شيء، وما يسعنا إلا أن نعفو عنه، ثم نظر إلى الشيخ وقال له: هل لك حاجة؟

فقال: نعم، حاجتي أن تجمع بيني وبين من سعى فيّ إليك فوالله الذي لا إله إلا هو ما في يدي لبني أمية مال ولا وديعة، ولكن لمّا مثلت بين يديك، وسألتني عما سألتني عنه قابلت بين ما قلته الآن وبين الذي قلته أولاً، فرأيته أقرب إلى الخلاص والنجاة.

قال المنصور: يا ربيع اجمع بينه وبين من سعى به، فجمعت بينهما، فلما رآه عرفه وقال: هذا غلامي (خادم لي) اختلس ثلاثة آلاف دينار وهرب مني، فلما خاف من طلبي له، سعى بي عند أمير المؤمنين.

قال: فشدّد المنصور على الغلام وخوّفه، فأقر بأنه غلامه، وأنه أخذ المال الذي ذكره وسعى به كذباً عليه، وخوفاً من أن يقع في يده.

فقال له المنصور: سألتك أيها الشيخ أن تعفو عنه.

فقال: قد عفوت عنه واعتقته، ووهبته الثلاثة آلاف التي أخذها، وثلاثة آلاف أخرى ادفعها له.

فقال له المنصور: ما على ما فعلت من مزيد.

فقال الشيخ: بلى يا أمير المؤمنين، إن هذا كله لقليل في مقابلة كلامك لي، وعفوك عني، ثم انصرف. فكان المنصور يتعجب منه كلما ذكره ويقول: ما رأيت مثل هذا الشيخ؟ وغضب الرشيد على أحد عماله ويسمى حميد الطوسي. فدعا بالسيف، فبكى حميد.

فقال له الرشيد: ما يبكيك؟

فقال: والله يا أمير المؤمنين ما أفزع من الموت الذي لا بُدَّ منه، وإنما بكيت أسفاً على خروجي من الدنيا وأمير المؤمنين ساخط علي!

فضحك هارون الرشيد وعفا عنه وقال: «إن الكريم إذا خادعته انخدع».

وكان الملك الكامل قد تغيّر على بعض إخوته فكتب إليه «الصلاح» وزيره مستشفعاً:

من شرط صاحب مصر أن يكون كما ... قد كان يوسف في الحُسنى لإخوته
ساءوا فقابلهم بالعفو وافتقروا ... فبرَّهم وتولاهم برحمته

* * *

وقال رسول الله ﷺ: «أوصاني ربي بتسع أوصيكم بها.. أوصاني بالإخلاص في السر والعلانية، والعدل في الرضا والغضب، والقصد في الفقر

والغنى، وأن أعفو عمن ظلمني، وأعطي من حرمني، وأصل من قطعني، وأن يكون صمتي فكراً، ونطقي ذكراً، ونظري عبراً».

* * *

وقال إبراهيم بن المهدي[1]: والله ما عفا عني المأمون تقرباً إلى الله تعالى، ولا صلة للرحم، ولكن له سوق في العفو يكره أن تكسد بقتلي.

وسُئل الفضل عما يديم المودة بين الإخوان؟

قال: أن تصفح عن عثراتهم.

وفي الأثر: «إن كثرة العفو زيادة في العمر وأصله قوله تعالى: ﴿**وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض**﴾[2]. وقال يزيد بن مزيد (أحد عمال الرشيد): أرسل الرشيد ليلاً يدعوني فأوجست منه خيفة.

فقال له: أنت القائل: أنا ركن الدولة، والثائر لها، والضارب أعناق بغاتها!!

قلت: يا أمير المؤمنين: ما قلت هذا، إنما قلت: أنا عبد الدولة، والثائر لها، فأطرق وجعل ينحلّ غضبه عن وجهه، ثم ضحك، فقلت أحسن من هذا قولي:

خلافة الله في هارون ثابتة ... وفي بنيه إلى أن ينفخ الصور

فقال: يا فضل (وزيره) اعطه مائة ألف درهم قبل أن يصبح.

وأمر مصعب بن الزبير بقتل رجل.

فقال: ما أقبح بي أن أقوم يوم القيامة إلى صورتك هذه الحسنة، ووجهك الذي يُستضاء به فأتعلق بك، وأطوّق رقبتك، وأقول: أيّ ربِّ سلْ مصعباً لم قتلني؟ فقال: أطلقوه.

---

(١) هو عم المأمون، ولما سافر المأمون إلى خراسان، أعلن نفسه خليفة بدلاً منه ولما حضر المأمون قبض عليه وحبسه ثم أطلق سراحه وعفا عنه.

(٢) سورة الرعد، الآية: ١٧.

فلما أطلقوه قال: أيها الأمير اجعل ما وهبت لي من حياتي في رغد عيش. قال: قد أمرت لك بمائة ألف درهم فأنشد:

أنا المذهب الخطّاء والعفو واسع ولو لم يكن ذنب لما عُرِف العفو

وتغيّظ عبد الملك بن مروان على رجل فقال: والله لئن أمكنني الله منه لأفعلن به كذا وكذا فلما صار بين يديه وكان رجاء بن حيوه العالم الفقيه حاضراً، فقال: يا أمير المؤمنين قد صنع الله ما أحببت فاصنع ما أحب الله فعفا عنه. وأمر له بصلة [زيادة في العفو].

وقال الحسن رضي الله عنه: «إن أفضل رداء يرتديه الإنسان؛ الحلم».

ويقال: «الحليم سليم، والسفيه كليم».

وقال حكيم: «ما من شيء أشد على الشيطان من عالم معه حلم، إن تكلم تكلم بعِلم، وإن سكتَ سكت بحلم، يقول الشيطان: سكوته عليّ أشد من كلامه».

وعن عليّ بن الحسين رضي الله عنه: «أقرب ما يكون العبد من غضب الله إذا غضب».

وفي التوراة: «يا عبدي: اذكرني إذا غضبت، اذكرك عند غضبي عليك فلا أمحقك فيما أمحق، وإذا ظُلمت فاصبر، وارض بنُصرتي، فإنّ نُصرتي لك خير من نصرتك لنفسك.

وكان أحد الصالحين إذا غضب على إنسان قال له: بارك الله فيك، وكانت له ناقة كريمة فضربها غلام له ففقأ عينها فقالوا: إن لم يغضب (يقصدون فيما مضى)، فإنه يغضب اليوم فقال للغلام: غفر الله لك.

وقال رجل لرسول الله ﷺ: أيّ شيءٍ أشدّ على العبد؟ قال: غضب الله.

قال: أن لا تغضب.

ويقال: «من أطاع الغضب، أضاع الإرب».

وقال أبو العتاهية الشاعر:

ولم أرَ في الأعــداء حين اختبـرتهم　　عدواً لعقل المرء أعدى من الغضب

وعن أبي هـريـرة رضي الله عنـه قـال رسـول الله ﷺ: «ليس الشـديــد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب».

* * *

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «كفى بالمرء إثما، أن يقال له: اتّق الله فيغضب ويقول: عليك نفسك».

وروي أن عُمـر رضي الله عنه رأى سكـران فأراد أن يـأخـذه ليقيم عليـه الحـد، فشتمه السكـران، فرجـع عنه فقيـل له: يـا أمير المؤمنين لمّـا شتمك تـركته. قـال: إنما تـركته لأنـه أغضبني فلو عزرتـه (ضـربتـه) الآن أكـون قـد انتصرت لنفسي، ولا أحب أن أضرب مسلماً لحميَّة نفسي.

فهو رضي الله عنه يعفو عما لحقه من الأذى، فإذا سكن غضبه أقام عليه الحد فيكون قد انتصر لله تعـالى بإقـامة الحـدود بين عباده ولا يقيم الحـد في حـال غضبه حتى لا يجـور على المسلمين، ولا غـرو في ذلـك فهـو عُمـر بن الخطاب رضي الله عنه الذي يباهي الله بـه الحكام يوم القيامة وهو الـذي ملأ طباق الأرض عدلاً.

* * *

وقال هارون الرشيد لأعرابي: بم بلغ فيكم هشام بن عـروة (صار سيـداً في قومه)، هذه المنزلة؟

قال: «بحلمه عن سفيهنا، وحمله ضعيفنا، لا منّان إذا وهب (أعطى)، ولا حقـود إذا غضب، رَحَب الجنان، سمـح البنان، مـاضي اللسان». فـأومـأ الـرشيد إلى كلب صيـد كـان بين يـديـه وقـال: والله لـو كـانت هـذه (يقصـد الصفات) في هذا الكلب لأستحق بها السؤدد.

وقـال معن بن زائدة (أحـد حكماء العـرب): «أحسن ما يكـون الصفح عمن عظم جرمه، وقلّ شفعاؤه، ولم يجد ناصراً».

وقـال الأحنف بن قيس لابنـه: «يـا بني: إذا أردت أن تؤاخي رجـلاً فـأغضبه، فـإن أنصفك فـاظفـر بصحبتـه، وإلا فـاحـذره (يقصـد إن لم يكن حليماً)».

وقال الأحنف: «إياكم ورأي الأوغاد».

قالوا: وما رأي الأوغاد؟

قال: «الذين يرون الصفح والعفو عاراً».

وقال رجل لأبي بكر الصديق رضي الله عنه: لأسبنّك سبّاً يدخـل معك قبرك.

فقال: معك يدخل لا معي.

* * *

وقيل إن الأحنف بن قيس كان يمشي في الطريق فتعرّض له رجل وأخذ يسبه والأحنف ساكت لا يتكلم فلمـا اقتربـا من منزلـه وقف الأحنف وقال: يـا هذا إن كان بقي معك شيء فقله ههنا، فـإني أخاف أن يسمعـك فتيان الحي فيؤذوك، ونحن لا نحب الانتصار لأنفسنا».

ومن وصـايا لقمـان لابنه: «يـا بني: ثلاثـة لا يُعرفـون إلا عند ثـلاثـة؛ الحليم عنـد الغضب، والشجـاع عنـد الحـرب، وأخـوك؛ (صـديقـك، صاحبك. . .) عند الحاجة إليه».

قال الشاعر:

ولقـد أمـر على اللئيم يسـبني   فمضيت ثمت قلت: لا يعـنيـني

* * *

سَترتني سترك الله

زوّر رجلٌ ورقة عن خط الفضل بن الربيع تتضمن «ادفعوا لحـاملها ألف دينـار» وجاء بهـا إلى وكيله فلما نـظر فيها الـوكيل لم يشـك أنها خط الفضـل (لدقة التزوير) فشرع في عدِّ الألف دينار وإذا بالفضل يحضر في تلك السـاعة

ليتحدث مع وكيله في أمر مهم. فلما جلس أخبره الوكيل بأمر الرجل وناوله الورقة فنظر فيها الفضل، ثم نظر في وجه الرجل فرآه كاد يموت من الخوف والخجل فأطرق الفضل برأسه ثم قال للوكيل: أتدري لم أتيتك في هذا الوقت؟ قال: لا. قال: جئت لكي تعجّل لهذا الرجل مسألته، وتعطيه المبلغ الذي في هذه الورقة. فعند ذلك، شرع الوكيل في عد النقود للرجل، فصار الرجل متحيراً في أمره فالتفت إليه الفضل وقال له: طب نفساً، وامض إلى سبيلك آمناً على نفسك، فقبّل الرجل يده وقال له: سترتني سترك الله في الدنيا والآخرة.

فيجب على الإنسان أن يتأسى بهذه الأخلاق الجميلة والجليلة في الحلم والعفو والصفح.

وأما ما جاء في العتاب فقد قيل: «العتاب خير من الحقد، ولا يكون العتاب إلا على زلة».

* * *

وقالوا: «العتاب بستان المحبين، ودليل على بقاء المودة». وذمّهُ بعضهم، قال أياس بن معاوية: خرجت في سفر ومعي رجل من الأعراب فبلغنا الحي الذي به قومه فحضر ابن عم له فتعانقا وتعاتبا وكان إلى جانبنا شيخ من شيوخ الحي فقال لهما: طاب عيشكما، ما لكما والمعاتبة؟ «إن المعاتبة تبعث على التجني، والتجني يبعث على المخاصمة، والمخاصمة تبعث العداوة، ولا خير في شيء ثمرته العداوة».

وقيل: إن العتاب يحرك الشوق بين المتحابين، قال الشاعر:

علامة ما بين المحبين في الهوى ... عتابهم في كل حقٍ وباطل

وكان لأحد الشعراء صديق، وُلّيَ عملاً فأثرى فقصده فرأى منه تغيراً، فكتب إليه:

لئن كانت الدنيا أنالتك ثروة ... فأصبحت ذا يسر وقد كنت ذا عُسر

فقد كشف الإثراء منك خلائقا ... من اللؤم كانت تحت ثوب من الفقر

وقال أبو الدرداء الصحابي الجليل رضي الله عنه: «معاتبة الصديق أهون من فقده».

فما أحسن من معاتبة الأحباب ولا ألذ من مخاطبة ذوي الألباب.

* * *

سادس عشر: ليكن من طبعك الحياء والتواضع ولين الجانب ودَع عنك الكِبَر والخيلاء وإياك أن تعجب بنفسك، وإذا كان هناك مجال للفخر والمفاخرة والتفاضل والتفاوت فليكن في حدود الأدب؛ قال رسول الله ﷺ: «الحياء شِعبة من الإيمان».

وقوله ﷺ: «إذا لم تستح فاصنع ما شئت».

وقال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: «من كسا بالحياء ثوبه، لم يـر الناس عيبه».

وقال بعضهم: «الوجه المصون بالحياء، كالجوهر المكنون في الوعاء».

ويقولون: «القناعة دليل الأمانة، والأمانة دليل الشكر، والشكر دليل الزيادة، والزيادة دليل بقاء النعمة، والحياء دليل الخير كله». هذا عن الحياء.

* * *

وأما عن التواضع ولين الجانب فقد نزل فيه قول الحق تبارك وتعالى مُخاطباً نبيّه ﷺ: ﴿**واخفض جناحك للمؤمنين**﴾[1]، وقال تعالى: ﴿**تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوّاً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتّقين**﴾[2]. وقال رسول الله ﷺ: «أفضل العبادة، التواضع». وأتاه رجل فكلّمه فأخذته رعدة (ظهر الخوف على الرجل) فقال له رسول الله ﷺ: «هوّن عليك، فإني لست بملك، إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد»، وكان ﷺ يرفع ثوبه، ويخصف نعله، ويخدم أهله، ولم يكن متكبراً ولا متجبراً وأشدّ الناس حياءً وأكثرهم تواضعاً وكان إذا حدّث بشيء مما آتاه الله تعالى قال: ولا فخر.

---

(١) سورة الحجر، الآية: ٨٨. (٢) سورة القصص، الآية: ٨٣.

وقال عديّ بن أرطأة لأياس بن معاوية: إنك لسريع المشية. قال: ذلك أبعد من الكِبر، وأسرع في قضاء الحاجة، وخرج معاوية لمقابلة عبد الله بن الزبير وابن عامر فقام ابن عامر لتحية معاوية وجلس ابن الزبير فقال معاوية لابن عامر: اجلس فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من أحب أن يتمثل له الناس قياماً، فليتبوأ مقعده من النار».

* * *

وقيل: «التواضع سلم الشرف».

وجاء في التوراة أن الله تعالى قال لموسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام: هل تعرف لمَ كلّمتك من بين الناس؟

قال: لا يا ربّ.

قال: «لأني رأيتك تتمرغ بين يدي في التراب تواضعاً لي».

وقيل: «من رفع نفسه فوق قدره، استجلب مقت الناس، ومن تواضع لله رفعه، فسبحان من تواضع كل شيء لعزته وجبروت عظمته».

واعلم أن الكبر والأعجاب يسلبان الفضائل ويُكسبان الرذائل، وحسبك من رذيلة تمنع من سماع النصح وقبول التأديب، والكِبر يكسب المقت ويمنع التآلف قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة مِنْ كبر».

وقال الأحنف بن قيس: «ما تكبّر أحد إلا من زلة يجدها في نفسه».

ونظر أفلاطون إلى رجل جاهل معجب بنفسه فقال: «وددت أني مثلك في ظنك، وأن أعدائي مثلك في الحقيقة». وفي الأثر «تَكبُرك على المُتَكَبر صدقة». واعلم أن الكبر يوجب المقت، ومن مقته رجاله، لم يستقم حاله».

ولما أتى وائل بن حجر[1] إلى النبي ﷺ فأقطعه أرضاً وقال لمعاوية بن أبي سفيان (هو أحد كتّاب الوحي للنبيّ ﷺ: «أعرض عليه هذه الأرض واكتبها له».

(١) وائل بن حجر الكندي: أحد ملوك اليمن.

فخرج معه معاوية في هاجرة شديدة (وقت اشتداد الحرارة في الظهيرة) ومشى خلف ناقته فأحرقه حرّ الشمس فقال لوائل بن حجر: أردِفني خلفك على ناقتك.

قال: لستَ مَنْ ترادِف الملوك.

قال معاوية: فاعطني نعليك.

قال: ما بخلٌ يمنعني يا ابن أبي سفيان، ولكني أكره أن يبلغ أقيال اليمن أنك لبست نعلي، ولكن امشِ في ظلّ ناقتي وحسبك بها شرفاً.

يحدثنا التاريخ أن هذا الملك لحق زمان معاوية فذهب إليه وقد صارت اليمن جزءاً من الدولة الأموية، ومعاوية حينذاك خليفة للمسلمين، فلما دخل عليه، أجلسه بجواره على سرير الملك وحدّثه.

* * *

وقيل: «الكِبر مفْسَدةٌ للدين، مَنقْصةٌ للعقل، مَهلكةٌ للعَرض». فلا يتكبر إلا كل وضيع، ولا يتواضع إلا كل رفيع. وأما التفاخر بالأحساب والأنساب الذي يجر إلى الكِبر والتعالي على الناس فمنهيٌّ عنه في الإسلام. قال تعالى: **﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾**[1]، فالتقوى والإخلاص في طاعة الله تعالى هي أساس المفاضلة بين عباده وقال رسول الله ﷺ: «أيها الناس: إن نبيكم واحد، وإن أباكم واحد، وإنه لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى، ألا هل بلّغت؟».

وحدث الأصمعي قال: بينما أنا أطوف بالبيت الحرام ذات ليلة، إذ رأيت شاباً متعلقاً بأستار الكعبة وهو يقول:

يا من يُجيب دعا المضطر في الظُلم ... يا كاشف الضُرِّ والبلوى مع السِقم
قد نام وفدك حول البيت وانتبهوا ... وأنت يا حي يا قيوم لم تنم
أدعوك ربي حزيناً هائماً قَلِقاً ... فارحم بُكائي بحق البيت والحَرم
إن كان جودك لا يرجوه ذو سفه ... فمن يجود على العاصين بالكرم

ثم بكى بكاءً شديداً، وأنشد يقول:

---

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٣.

ألا أيها المقصود في كل حاجتي شكوت إليك الضر فارحم شكايتي
ألا رجائي أنت تكشف كربتي فهب لي ذنوبي كلها واقض حاجتي
أتيت بأعمال قِباح رديئة وما في الورى عبدٌ جنى كجنايتي
أتحرقني بالنار يا غاية المنى فأين رجائي ثم أين مخافتي

ثم سقط على الأرض مغشياً عليه، فدنوت منه فإذا هو عليّ زين العابدين بن الإمام الحسين بن الإمام عليّ رضوان الله عليهم أجمعين. يكمل الأصمعي فيقول: فرفعت رأسه في حِجري وبكيت، فقطرت دمعة من دموعي على خده ففتح عينيه وقال: «من هذا الذي يهجم علينا في خَلوتنا؟». قلت: عبدك الأصمعي! سَيِّدي ما هذا البكاء والجزع؟ وأنت من أهل بيت النبوة ومعدن الرسالة وقد قال الله تعالى فيكم: ﴿**إنما يريد الله ليُذهبَ عنكم الرِّجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً**﴾[1].

فقال: هيهات! هيهات! يا أصمعي، إن الله خلق الجنة لمن أطاعه ولو كان عبداً حبشياً، وخلق النار لمن عصاه ولو كان شريفاً قرشياً، أليس الله تعالى يقول: ﴿**فإذا نُفخ في الصّورُ فلاَ أنساب بينهم يومئذٍ ولا يتساءلون * فمن ثقلت موازينه فأُولئكَ هُم المُفْلِحُون * ومن خفّت موازينه فأُولَئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدونَ**﴾[2]. والفخر وإن نهت عنه الأخبار النبوية، ومجته العقول الذكية، إلا أن العرب كانت تفخر بما لديها من البيان، طبعاً لا تكلّفاً، ولم يكن لهم من ينطق بفضلهم إلا هم، ولا يُنبه على مناقبهم سواهم.

فكان كعب بن زهير إذا أنشد شعراً قال لنفسه: «أحسنت وجاوزت والله الإحسان، فيقال له: أتحلف على شِعرك؟ فيقول: نعم، لأني أبصر به منك.

وكان الكميت إذا قال قصيدة صنع لها خطبة في الثناء عليها، ويقول عند إنشادها: «أيّ علمٍ بين جنبي، وأيّ لسان بين فكيّ».

* * *

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٣٣.
(٢) سورة المؤمنون، الآيات: ١٠١ ـ ١٠٣.

وقال الجاحظ: «لو لم يصف الطبيب مصانع دوائه للمعالجين ما وجد له طالب».

ولما أبدع ابن المقفع في رسالته سمّاها «اليتيمة» تنزيهاً لها عن مثيلاتها، وتمييزاً لها عن باقي رسائله، فسكنت وجاء في الأثر أن رجلين من بني إسرائيل على عهد موسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، تفاخرا فيما بينهما فقال أحدهما: أنا فلان بن فلان حتى عدّ تسعة آباء مشركين، فقال الآخر: أنا ابن فلان ولولا أنه مسلم ما ذكرته فأوحى الله إلى موسى: «أما الذي عدّ تسعة آباء مشركين فحقٌ على الله أن يجعل عاشرهم في النار، والذي انتسب إلى أب مسلم فحقٌ على الله أن يجعله مع أبيه المسلم في الجنة».

قال سلمان الفارسي الصحابي الجليل رضي الله عنه:

أبي الإسلام لا أب لي سواه ... إذا افتخروا بقيس أو تميم

وقال عبيد الله بن عبد الله بن طاهر في أخيه الحسين وكان يفضله في كثير من الأمور:

يقول أنا الكبير فعظّموني ... ألا ثكلتك أمك من كبير
إذا كان الصغير أعم نفعاً ... وأجلد عند نائبة الأمور
ولم يأت الكبير بيوم خير ... فما فضل الكبير على الصغير

وبعض المواقف كما ترى تتطلب الفخر، فإذا رأيت أن ما يلحقك من الأذى يستوجب الفخر، وكنت في موقف الدفاع، فلا مانع من الفخر لإظهار ما أنعم الله به عليك من فضله ولكن في حدود الأدب، فلا ضرر ولا ضرار في الإسلام. قال الإمام عليّ كرم الله وجهه وهو يتحدث بنعمة ربه عليه بالإسلام وهو صبي لم يبلغ الحُلُم، قال ابن أسحاق إنه كان في سن العاشرة حين أسلم:

سبقتكموا إلى الإسلام طُرّاً ... صغيراً ما بلغت أوان حلمي
وصليت الصلاة وكنت فرداً ... فمن منكم له يوم كيومي

* * *

وتفاخر جرير والفرزدق[1] عند سليمان بن عبد الملك (الخليفة الأموي)، فقال الفرزدق: «أنا ابن مُحيي الموتى»، فأنكر سليمان قوله، فقال: يا أمير المؤمنين قال الله تعالى: ﴿**وَمَنْ أحيَاهَا فكأنَّما أحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً**﴾[2] وجدي فدى الموءودات فاستحياهن.

فقال سليمان: إنك مع شِعرك لفقيه.

* * *

وقال بشّار بن بُرد الشاعر مُفتخراً:

إذا ما غضِبنا غضبةً مُضَريّة هتكنا حجاب الشمس أو قطرتْ دَمَا

إذا ما أعرنا سيداً من قبيلةٍ ذُرى منبر صلّى علينا وسَلَّمَا

وقال السموأل بن عادياء الشاعر:

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه فكل رداء يرتديه جميل

وإن هو لم يحمل على النفس ضيمها فليس إلى حُسن الثناء سبيل

وقد روي أن رسول الله ﷺ كان إذا نظر إلى خالد بن الوليد وعِكرمه بن أبي جهل يقول: «يُخرجُ الحيّ من الميت، ويُخرجُ الميّتَ مِنَ الْحيّ» لأنهما كانا من خيار الصحابة وأبواهما أعدى عدوين لله ولرسوله ﷺ.

* * *

وكان القعقاع بن سور الهذلي إذا جالسه رجل يجعل له نصيباً من ماله ويعينه على حوائجه، ودخل يوماً على معاوية فأمر له بألف دينار وكان هناك رجل قد افسح له في المجلس فدفعها إليه فقال:

---

(١) جرير والفرزدق من فحول الشعراء وبينهما مساجلات كثيرة في الهجاء.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٣٢.

وكنت جليس قعقاع بن شور   وما يشقى بقعقاع جليس
ضحوك السن إن نطقوا بخير   وعند الشر مطراق عبوس

* * *

سابع عشر: وإنه لجميل حقاً أن تكون ودوداً بأخوانك، حسن المعاشرة لهم، ولا تنس زيارتهم.

قال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: «الرجل بلا أخ كشمال بلا يمين». وأنشدوا في ذلك:

وما المرء إلا بإخوانه   كما يقبض الكف بالمعصم
ولا خير في الكف مقطوعة   ولا خير في الساعد الأجذم

وقيل: «الصاحب للصاحب كالرقعة من الثوب إن لم يكن منه شائنه».

وقال عبد الله بن طاهر: «المال غادٍ ورائح، والسلطان ظل زائل، والإخوان كنوز وافرة».

وقال المأمون للحسن بن سهل: نظرت في اللذات فوجدتها كلها محلولة سوى سبعة قال: وما السبعة يا أمير المؤمنين؟ قال: «خبز الحنطة (دقيق القمح)، ولحم الغنم، والماء البارد، والثوب الناعم، والرائحة الطيبة، والفراش الوطيء (القريب من الأرض)، والنظر إلى الحَسن من كل شيء».

قال: فأين أنت يا أمير المؤمنين من محادثة الرجال. قال: صدقت.

وقال سليمان بن عبد الله: «أكلت الطيّب، ولبست الليِّن، وركبت الفاره، وافتضضت العذراء (تزوج البكر)، فلم يبق من لذتي إلا صديق أطرح معه مؤنة التحفظ». وقال معاوية: «فتح الله علينا الدنيا، فذقت من ملذاتها الكثير، فما بقي من اللذات ماتتوق إليه نفسي إلا محادثة أخ كريم».

* * *

وقال لبيد الشاعر:

ما عاتب المرء اللبيب كنفسه   والمرء يصلحه الجليس الصالح

وقيل لابن السماك: أي الإخوان أحق ببقاء المودة؟ قال: «الوافر دِينه، الوافي عقله، الذي لا يملّك على القرب، ولا ينساك على البُعد، إن دنوت منه داناك وإن بعُدت عنه راعاك، وإن استعنت به عضدك، وإن احتجت إليه رَفدك، وتكون مودة فعله أكثر من مودة قوله».

وقيل لخالد بن صفوان: أيّ إخوانك أحب إليك؟ قال: «الذي يسد خلتي، ويغفر ذلتي، ويقيل عثرتي». وقيل: «من لا يؤاخي إلا من ليس فيه عيب قلّ صديقه، ومن لم يرض من صديقه إلا بإيثاره على نفسه دام سخطه (فهو أناني محب لنفسه فقط) ومن عاتب على ذنب ضاع عتبه وكثر تعبه».

قال الشاعر:

ومن لم يغمض عينه عن صديقه ... وعن بعض ما فيه يمت وهو عاتب

وقال آخر:

إذا كنت في كل الأمور معاتباً ... صديقك لم تلق الذي لا تعاتبه

وإن أنت لم تصبر مراراً على القذى ... ظمئت وأي الناس تصفو مشاربه

* * *

وقالوا: «إذا رأيت من أخيك أمراً تكرهه أو خلة لا تحبها فلا تقطع حبله، ولا تصرم وده، ولكن داوِ كلمته واستر عورته، وأبقه وابرأ من عمله».

قال تعالى: **﴿فإن عصوك فقل إني بريء مما تعملون﴾**(1).

فلم يأمره ﷺ، بقطعهم وإنما أمره بالبراءة من عملهم السيِّىء.

وقال ﷺ: «الأرواح جنود مُجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف».

وقالوا: «ما تحابّ اثنان في الله إلا كان أفضلهما عند الله أشدّهما حباً لصاحبه».

ومن أقوال الحكماء: «ليس سرور يعدل لقاء الإخوان، ولا غم يعدل فراقهم».

---

(1) سورة الشعراء، الآية: ٢١٦.

«شر الإخوان الواصل في الرخاء، الخاذل عند الشدة».

«إن من الوفاء أن تكون لصديق صديقك صديقاً، ولعدو صديقك عدواً».

«احذر الكريم إذا أهنته، واللئيم إذا اكرمته، والعاقل إذا أحرجته، والأحمق إذا مازحته، والفاجر إذا عاشرته».

وقالوا:

«اصحب من الإخوان من أولاك جمائل كثيرة، فكافأته بجميلة واحدة، فنسي جمائله وبقي شاكراً لجميلتك يوليك عليها الإحسان الكثير ويحسب أنه ما بلغ من مكافأتك القليل». وقيل: «لقاء الخليل شفاء الغليل».

* * *

وقال أحد الحكماء: «إذا وقع بصرك على شخص فكرهته فاحذره جهدك».

* * *

قال عبد الله بن طاهر:

خليلي للبغضاء حالي مُبينة	وللحب آثار تُرى ومعارف
فما تنكر العينان فالقلب مُنكر	وما تعرف العينان فالقلب عارف

وأما آداب المعاشرة: فالبشاشة وحُسن الخُلُق والأدب، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «لجليسي علي ثلاث: أن أرمقه بطرفي إذا أقبل، وأوسع له في المجلس، وأصغي له إذا حدّث».

وقيل أول ما يتعين على الجليس، الإنصات في المجالسة وأن يلحظ بعين الأدب مكانه من مكان جليسه فيكون كل منهما في محله». قال رسول الله ﷺ: «ذو العلم والسطان أحق بشرف المنزل». وقال جعفر الصادق رضي الله عنه: «إذا دخلت منزل أخيك، فأقبل كرامته كلها ما عدا الجلوس في الصدر». وينبغي للإنسان أن لا يُقبل بحديثه على من لا يقبل عليه وقيل: «إن نشاط المتكلم بقدر إقبال السامع». ويتعين على المتحدث أن يحدّث المستمع على قدر عقله، ولا يبتدع كلاماً لا يليق بالمجلس وقيل: «لكل

مقام مقال». وخير القول ما وافق الحال، واوجبوا على المستمع أن لا يقطع كلامَ محدِّثه بل يسكت إلى أن يستوعب منه القول وَعدّوا ذلك من باب الأدب، ولعله إذا صبر وسكت استفادوا من ذلك زيادة فائدة لم تكن في حفظه. وقيل ثمانية إن أُهينُوا فلا يلوموا إلا أنفسهم: «الجالس في مجلس ليس له بأهل، والمُقبل بحديثه على من لا يسمعه، والداخل بين اثنين في حديثهما ولم يدخلاه فيه، والمتعرض لما لا يعنيه، والمتآمر على ربّ البيت في بيته، والآتي إلى مائدة بلا دعوة، وطالب الخير من أعدائه، والمستخف بقدر السلطان».

ويتعين على الجليس أن يراعي ألفاظه ويكون على حذر أن يعثر لسانه خصوصاً إذا كان جليسه ذا هيبة ووقار فقد قيل: «رُبَّ كلمة سلبت نعمة».

وقال أبو العباس السفاح (الخليفة العباسي): ما رأيت أغزر من فِكر أبي بكر الهذلي لم يُعِدْ عليَّ حديثه قط.

وقيل: إن أبا العباس كان يحدثه يوماً إذ عصفت الريح فألقت بطستٍ من سطح إلى المجلس فارتاع الحاضرون ولم يتحرك الهذلي، ولم تزل عينه مطابقة لعين السّفَاح، فقال: ما أعجب شأنك يا هذلي. فقال: إن الله يقول: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾[1]. وإنما لي قلب واحد، فلما غَمره النور بمحادثة أمير المؤمنين، لم يكن فيه لحادث مجال، فلو أنقلبت الخضراء على الغبراء ما أحسست بها، ولا وجمت لها». فأمر له بمال جزيل وصِلة كبيرة.

* * *

وقال ابن خارجه: ما غلبني أحد قط غلبة رجل يصغي إلى حديثي».

ومن وصايا الحُكماء: «اكرم حديث أخيك بانصاتك وصنه من وصمة التفاتِك».

* * *

وقال الشعبي: «ما حدّثت بحديث مرتين رجلاً بعينه». وقيل: «المودة طلاقة الوجه والتودد إلى الناس». وقال معاذ بن جبل رضي الله عنه: «إن

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٤.

المُسْلِمَين إذا التقيا فضحك كل واحد منهما في وجه صاحبه ثم أخذ بيده تحاتت ذنوبهما كتحات ورق الشجر».

وقيل: «البشرُ يدل على السخاء كما يدل النور على القمر».

وقيل من السُنَّة: «إذا حدّثت القوم أن لا تُقبل على واحد منهم، ولكن اجعل لكل واحد منهم نصيباً».

وقالوا: «إذا أردت حُسن المعاشرة، فالق عدوك وصديقك بالطلاقة ووجه الرضا والبشاشة، ولا تنظر في عطفيك، ولا تُكثر الإلتفات، ولا تفق على الجماعات، وإذا جلست فلا تتكبر على أحد، وتحفظ من تشبيك أصابعك، ومن العبث بلحيتك، ومن اللعب بخاتمك، وتخليل أسنانك، وإدخال إصبعك في أنفك، وكثرة بصاقك، وكثرة التمطي والتثاؤب في وجوه الناس. وفي الصلاة، وليكن مجلسك هادئاً، وحديثك منظوماً مرتباً، واصغ إلى كلام مُجالِسك، واسكت عن المضاحك، ولا تتصنع تصنّع المرأة في التزين، ولا تلح في الحاجات، ولا تشجع أحداً على الظلم، ولا تهازل أمتك ولا عبدك فيسقط وقارك عندهما، وإذا خاصمت فانصف، وتحفظ من جهلك، وتجنّب عجلتك، وتفكر في حجتك، ولا تكثر الإشارة بيدك ولا الالتفات إلى من وراءك، وهدىء غضبك وتكلم، وإذا قرّبك سلطان فكن منه على حذر، واحذر انقلابه عليك وكلمه بما يشتهي، ولا يحملنّك لطفه بك على أن تدخل بينه وبين أهله وحشمه وإن كنت لذلك مستحقاً عنده، وإياك وصديق العافية فإنه أعدى الأعداء، ولا تجعل فعالك أكرم من عرضك، ولا تجالس ذوي السلطان فإن فعلت فالتزم ترك الغيبة، ومجانبة الكذب، وصيانة السر، وقلة الحوائج، وتهذيب الألفاظ، والمذاكرة بالأخبار التي تجلب السرور عليهم، ولا تتجشأ بحضرتهم، ولا تخلل أسنانك بعد الأكل عندهم، ولا تجالس العامة، فإن فعلت فاحذر الخوض في حديثهم، وقلل من الإصغاء إلى أراجيفهم، وعما يجري من سوء ألفاظهم، وإياك أن تمازح لبيباً أو سفيهاً، فإن اللبيب يحقد عليك والسفيه يتجرأ عليك، ولأن المزاح يخرق الهيبة، ويذهب بماء الوجه، ويعقب الحقد، ويذهب بحلاوة الإيمان والود، ويشين فقه الفقيه ويُجرِّىء السفيه، ويميت القلب، ويباعد عن الرب،

ويُكسب الغفلة والذلة ومن لغى في مجلس بمزاح أو لغط فليذكر الله عند قيامه ويستغفر لذنبه ويتوب إلى الله تعالى فإنه غفور رحيم.

* * *

وأما أداب المسايرة فقد رُوي أن رسول الله ﷺ خرج مع عليّ بن أبي طالب ورجل آخر من الصحابة في سفر، وكانوا يتعاقبون على بعير واحد، فكان إذا جاءت نوبته ﷺ في المشي مشى فيعزمان عليه في الركوب فيأبى ويقول: «ما أنتم بأقدر مني على المشي، وما أنا بأغنى منكم عن الأجر»، وقيل: «لا تتقدم الأصاغر على الأكابر إلا في ثلاث: إذا ساروا ليلاً أو خاضوا سَيْلاً أو واجهوا خيلاً». وقال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: «لا يكون الصديق صديقاً حتى يُحفظ في ثلاث، في نكبته، وغيبته ووفاته».

* * *

وأما ما جاء في الإخوان العديمي الوفاء القليلي المكافأة الذين لا يعرفون للصديق حقاً ولا قدراً:

قال وهب بن منبه: «صحبت الناس خمسين سنة فما وجدت رجلاً غفر لي زلة، ولا أقالني عثرة، ولا ستر لي عورة».

وقال عليّ بن أبي طالب: «إذا كان الغدر طبعاً فالثقة بكل أحد عجز».

وقيل لبعضهم ما الصديق؟

قال: «اسم وُضع على غير مُسمى».

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: «كان الناس ورقا لا شوك فيه، فصاروا شوكاً لا ورق فيه».

وقال جعفر الصادق لبعض إخوانه: «أقلل من معرفة الناس، وأنكر من عرفت منهم، وإن كان لك مائة صديق، فاطرح تسعة وتسعين وكن من الواحد على حذر».

وقيل لبعض الولاة: كم صديقاً لك؟ فقال: «أما في حال الولاية فكثير». وأنشد:

الناس إخوان ما دامت لك النعم　　والويل للمرء إن زلّت به القدم

ولمّا نُكب عليّ بن عيسى الوزير لم ينظر ببابه أحداً من أصحابه الذين كانوا يألفونه في ولايته، فلمّا ردت إليه الوزارة وقف أصحابه ببابه ثانية؛ فقال:

ما الناس إلا مع الدنيا وصاحبها ... فكلما أنقلبت يوماً به انقلبوا
يعظّمون أخا الدنيا فإن وثبت ... يوماً عليه بما لا يشتهي وثبوا

وقال آخر:

فما أكثر الأصحاب حين تعدّهم ... ولكنهم في النائبات قليل

وقال بعضهم في هذا المعنى أيضاً:

خليليَّ جرّبتُ الزمانَ وأهله ... فما نالني منهم سوى الهمِّ والعنا
وعاشرت أبناء الزمان فلم أجد ... خليلاً يوفي بالعهود ولا أنا

وقال آخر:

لما رأيت بني الزمان وما بهم ... خِلٌّ وَفِيٌّ للشدائد أصطفي
فعلمت أن المستحيل ثلاثة ... الغول والعنقاء والخلّ الوفي

وقال آخر:

إذا ما كنت متخذاً خليلاً ... فلا تأمن خليلك أن يخونا
فإنك لم يخنك أخ أمين ... ولكن قلّما تلقى أمينا

* * *

وقال الشاعر:

وأخٍ رَخُصْتُ عليه حتى ملّني ... والشيءُ مملول إذا ما يرخُص
ما في زمانك من يعز وجوده ... إن رُمته إلا صديق مُخلِص

فيجب على الإنسان أن لا يصحب إلا من له دين وتقوى، فإن المحبة في الله تنفع في الدنيا والآخرة، وما أحسن ما قال بعضهم:

وكل محبة في اللّه تبقى ... على الحالين من فرح وضيق
وكل محبة فيما سواه ... فكالحلفاء في لهب الحريق

فينبغي للإنسان أن يتجنبَ معاشرة الأشرار، ويترك مصاحبة الفجار، ويهجر من ساءت خلته، وقبحت بين الناس سيرته قال تعالى: **﴿الأخِلاَّء يومئذٍ بعضهم لبعض عدو إلا المتّقين﴾**[1]. وعلى هذا النمط فليحترز العاقل، فإنه إن فعل ذلك سَلِم من مكائد الخلق وأراح قلبه وبدنه.

* * *

وأما الزيارة فقد قيل فيها: «المحبة شجرة أصلها الزيارة». قال الشاعر:

زر من تحب وإن شطت بك الدار ... وحال من دونه حجب وأستار
لا يمنعك بُعدٌ من زيارته ... إنَّ المُحبّ لمن يهواه زوّار

ولتكن الزيارة على فترات متباعدة، قال رسول الله ﷺ: «زُرْ غِبًا، تزدد حُبّاً».

ويقال: «الإكثار من الزيارة مُمِلّ، والإقلال منها مُخِلّ»، وكتب صديق إلى صديقه هذا البيت:

إذا ما تقاطعنا ونحن ببلدة ... فما فضل قُرب الدار مِنّا علينا

وقال آخر:

قد أتانا من آل سعد رسول ... حبّذا ما يقول لي وأقول

وكتب المأمون الخليفة العباسي إلى جاريته الخيزران يستدعيها لزيارته:

نحن في أفضل السرور ولكن ... ليس إلا بكم يتم السرورُ
عيبُ ما نحن فيه يا أهل ودي ... أنكم غبتم ونحن حضورُ
فأجدّوا المسير بل إن قدرتم ... أن تطيروا مع الرياح فطيروا

وقيل لفيلسوف أي الرسل أنجح؟ قال: «الذي له جمال وعقل». وقيل: «إذا أرسلتم رسولاً فاتخذوه حسن الوجه، وحسن الاسم».

---

(١) سورة الزخرف، الآية: ٦٧.

وقال لقمان لابنه: «لا تبعث رسولاً جاهلاً، فإن لم تجد حكيماً عارفاً فكن رسول نفسك». وقال بعضهم:

إذا أبطأ الرسول فقل نجاح ولا تفرح إذا عَجل الرسول

* * *

ثامن عشر: وإنه لجميل حقاً أن تكون جوّاداً سخياً كريماً مع إخوانك وأن تتجنّبَ البخل والشُح والبُخلاء. وأعلم أن الجود بذل المال، وأنفعه ما صُرف في وجه استحقاقه وقد ندب الله تعالى إليه فنزل قوله تعالى: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مما تُحِبُّونَ﴾[1]. وقيل إن الجود والسخاء والإيثار بمعنى واحد، وقيل: «من أعطى البعض وأمسك البعض فهو صاحب سخاء، ومن بذل الأكثر فهو صاحب جود، ومن آثر غيره بالحاضر، وبقي هو في مُعاناة الضرر فهو صاحب إيثار، وأصل السخاء هو السماحة، وقد يكون المعطي بخيلاً إذا صعب عليه البذل، والمُمسك سخياً إذا كان لا يستصعب العطاء. فمن الإيثار ما رواه حُذيفة العدوي قال: ذهبت أبحث عن ابن عم لي بين القتلى ومعي قِدْرٌ بِهِ ماء حتى أسقيه إن كان به رمق، فإذا به بين القتلى، فقلت: أسقيك فأشار بنعم، فإذا برجل يتأوه ويطلب الماء، فأشار ابن عمي أن أنطلق إليه وأسقيه، فإذا هو هشام بن العاص فقلت: أسقيك. قال: نعم. فسمع آخر يئن ويقول: أسقوني. فأشار إلي أن أنطلق إليه فلما آتيته وجدته قد مات فذهبت إلى هشام فوجدته قد مات أيضاً فرجعت إلى ابن عمي فوجدته قد مات كذلك.

* * *

ومن عجائب الإيثار ما رواه أبو محمد الأزدي قال: لما احترق المسجد بمرو ظنّ المسلمون أن النصارى أحرقوه، فتظاهروا عليهم، وأحرقوا حاناتهم، وقتلوا عدداً منهم، فقبض أولي الأمر على جماعة من الذين قاموا بهذا الفعل فلما أنكروا ما نُسِبَ إليهم من التُهم، كتبوا رقاعاً فيها الجلد والقطع والقتل ونثروها عليهم، فمن وقعت عليه رقعة فُعِلَ به ما فيها، فوقعت

(١) سورة آل عمران، الآية: ٩٢.

رقعة بها القتل بيد رجل منهم فقال: «والله ما كنت أبالي لولا أن لي أمًّا قد بلغت من الكِبَر عِتيّاً، وهي مريضة وأقوم على خدمتها، وكان بجواره أحد الفتيان، وبيده رقعة فيها الجلد، فقال له: أنا ليس لي أم، واستحلفه أن يأخذ رقعته التي فيها الجلد، ويعطيه الرقعة التي بها القتل؛ ففعل، فقُتلَ هذا الفتى بدلاً منه وظفر الرجل بالنجاة.

وقيل لقيس بن سعد[1]: ما رأينا أسخى منك؟ قال: نعم رأيت، نزلنا ضيفان على امرأة بالبادية فجاء زوجها فقالت له: نزل بنا ضيفان.

فجاء بناقة فنحرها وقال: هذا شأنكم. فقلنا: ما أكلنا من التي نُحِرَتْ بالبارحة إلا القليل. فقال: إني لا أطعم ضيفاني البائت. فبقينا عنده أياماً والسماء تمطر وهو يفعل ذلك، فلما ارتفع النهار، وأردنا الرحيل، وضعنا مائة دينار في بيته وقلنا للمرأة: اعتذري لنا إليه، ومضينا، وإذا برجل يصيح خلفنا: قفوا أيها الركب اللئام، أعطيتمونا ثمن قِرَانا، ثم أنه لحقنا وقال: خذوا وإلا طعنتكم برمحي هذا، فأخذناها وانصرفنا.

* * *

ويذكر لنا التاريخ العربي أن هاشماً جد الرسول ﷺ، كان كريماً، وكان اسمه عمرو، وأصابت أهل مكة فاقة في أحد السنين، وخاف على زوّار البيت الحرام من المجاعة، فذهب إلى اليمن واشترى قافلة من الإبل، والدقيق والشحم والدهن، فنحر الإبل وأعد الطعام مما سبق وجعله ثريداً ثم أخذ يهشمه (يجعله قطعاً) ويوزعه على ضيوف بيت الله وأهل مكة فسُمّيَ هاشماً وفي هذا يقول الشاعر العربي:

عمرو العُلا هشم الثريد لقومه ورجال مكة مُسنتون عجاف

* * *

وقد أصبح هؤلاء الآباء مصدر فخر لأبنائهم، وشاعت بين العرب مقولة: «أنا ابن من لم يأكل طعاماً وحده قط».

---

(١) هو قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري (من قبيلة الأوس) وكان هو وأبوه من زعماء الأنصار، وكان أبوه زعيم الأنصار في اجتماع السقيفة الذي تمت فيه البيعة لأبي بكر الصديق.

وأشهر من سجل له التاريخ العربي مآثر في الكرم هو حاتم الطائي، كريم بني طيء وسيدها الذي رويت عنه مآثر كثيرة، أشهرها ما قالته سفانة ابنته لرسول الله ﷺ ـ عندما وقعت في الأسر، فقد عددت له خصال أبيها، من أنه كان «يفرّج العاني، ويقري الضيف، ويشبع الجائع، ويطعم الطعام». فقال الرسول الكريم لأصحابه: «إن شئتم تركتموها، فقد كان أبوها رجلاً يحب مكارم الأخلاق». وقد بلغ من فرط حِرص حاتم الطائي على الكرم أن أنّب ابنه عديّاً عندما رآه يضرب كلبة له فقال:

أقول لابني وقد سُطّت يداه بكلبة لا يزال يجلدها
أوصيك خيراً بها فإنّ لها عندي يداً لا أزال أحمدها
تدلّ ضيفي عليّ في غلس الليل إذا النار نام موقدها

* * *

وعندما سعى ابن عم حاتم بالوشاية بينه وبين زوجته، وقال لها: إن حاتماً سيُفني ماله على الناس، فوجىء حاتم بزوجته وقد غيّرت وجهة باب الخيمة، وكان من عادة بعض أحياء العرب أن المرأة إذا غيّرت وجهة باب الخيمة فقد طلقت زوجها، وقد قالت زوجه قصيدة تعيب فيها عليه إسرافه وكرمه، فردّ عليها بقصيدته الشهيرة التي مطلعها:

أماويّ إن المال غاد ورائح ويبقى من المال الأحاديث والذكر

* * *

وفي صدد الكرم وإيثار الضيف يقول الله تعالى في الكتاب الكريم: **﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ * ويُطْعِمُونَ الطعَام على حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وأَسِيراً * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُوراً * فَوَقَاهُمْ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ اليَوْمِ وَلَقَّاهُم نَضْرَةً وَسُرُوراً * وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً﴾**[1]. نزلت هذه الآية عندما مرض الحَسن والحُسين رضي الله عنهما وخاف عليهما أبواهما الإمام عليّ رضي الله عنه والسيدة فاطمة الزهراء رضي الله عنها فأشار عليهما جدهما رسول الله ﷺ أن يجعلا لله نذراً لِتم شفاؤهما، فنذرا أن

(١) سورة الإنسان، الآيات: ٧ ـ ٩ و١١ ـ ١٢.

يصوما لله تعالى ثلاثة أيام عندما يتم الله عليهما بنعمة الشفاء فلما تم شفاؤهما، قاموا بالوفاء بالنذر، وفي اليوم الأول أعدّت السيدة فاطمة رضي الله عنها الطعام وكان خبزاً من الشعير وقليلاً من التمر والماء، وقُبيل الإفطار طرق الباب مسكين فقال: مسكين ببابكم يا أهل بيت النبوة، فأعطته السيدة فاطمة رضي الله عنها الخبز، وأفطرا على الماء والتمر، وفي اليوم الثاني طرق الباب يتيم ففعلت معه مثل المسكين، وأفطرا على الماء والتمر وفي اليوم الثالث طرق الباب أسير ففعلت معه مثل سابقيه، وأفطرا على الماء والتمر». وبهذا يبين الحق تبارك وتعالى أن الوفاء والإيثار وهما أعلى مراتب الكرم ليس لهما جزاء إلا الجنّة، فما أحسن الدرجة وما أعظم الجزاء!.

ومن هنا نفهم أن القاعدة الأولى لكرم الضيافة عند العرب هي العطاء بلا مقابل، والقاعدة الثانية هي أن يأتي الكرم قبل أن يُطلب، وأن يأتي فعلاً لا قولاً، والشاعر يقول في هذا:

لا يصدق القول حتى يصدق العمل

وقد جسّد هذا المعنى المتنبي حين قال:

جُود الرجال من الأيدي وجودُهُم   من اللسان فلا كانوا ولا الجُودُ

وقال بعض الحكماء: «أصل المحاسن كلها الكرم، وأصل الكرم نزاهة النفس عن الحرام وسخاؤها بما يملك الإنسان من خصال الخير».

* * *

وقال رسول الله ﷺ: «تجاوروا عن ذنب السخيّ فإن الله آخذ بيده كلما عثر، وفاتح له كلما افتقر».

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: ما سُئِلَ رسول الله ﷺ شيئاً قط فقال: «لا»، وعنه ﷺ أنه قال: «السخيّ قريب من الله، قريب من الناس قريب من الجنة بعيد من النار، والبخيل بعيد من الله بعيد من الناس بعيد من الجنّة قريب من النار».

وقيل: «الجاهل السخيّ أحب إلى الله من العابد البخيل».

وقـال بعض السلف: «منع المـوجود سـوء ظن المعبـود»، وتـلا «أحـد حكمـاء العرب قـولـه تعـالى: ﴿وَمَـا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُـوَ يُخْلِفُـهُ وَهُـوَ خَيْـرُ الرَّازِقِينَ﴾[1].

وقال الفضيل (وزير المأمون وكان أبوه الربيـع وزيراً لهـارون الرشيـد): «ما كانوا يعدّوُنَ القرض معروفاً».

وقـال أكثم بن صيفي: «صاحب المعـروف لا يقع، وإن وقـع وجد لـه متكأ».

وقيـل للحسن بن سهل: لا خيـر في السـرف (يقصـدون الإسـراف أي شدة التبذير).

فقال: «لا سِرفَ في الخير». يقصد أن أي بـذل للمال في سبيـل الخير لا يُعـد إسرافـاً، فقلب اللفظ واستوفى المعنى. وممـا وُجد مكتـوباً من حِكَمُ الأقدمين: «انتهز الفرص عند إمكـانها، ولا تحمّـل نفسك همّ مـا لم يـأتـك، واعلم أن تقتيرك على نفسك توفير لخزانة غيرك».

وقال عليّ رضي الله عنه: «ما جمعت من المال فوق قُوْتِـك فإنمـا أنت فيه خازن لغيرك».

قـال النعمان بن المنـذر (كان ملكـاً على الحيرة من قِبَـل الفُرْس) يـوماً لجُلسائه: من أفضل الناس عيشـاً، وأنعمهم بالاً، وأكـرمهم طباعـاً، وأعلاهم في النفـوس قدراً؟ فقـام فتى فقال: أفضـل الناس من عـاش الناس في فضله فقال: صدقت.

* * *

وكان أسماء بن خارجة الفزاري (كان سيداً في قومه)، يقول: «ما أحب أن أرد أحداً عن حاجة، فإن كان كريمـاً أصون بهـا عِرضـه أو لئيماً أصـون به عرضي».

---

(١) سورة سبأ، الآية: ٣٩.

وقال الحسن رضي الله عنه: باع طلحة[1] بن عثمان رضي الله عنه أرضاً بسبعمائة ألف درهم فلما جاءه المال قال: «إن رجلاً يبيت هذا عنده لا يدري ما الله فاعل به، ثم قسّمه في المسلمين».

ولما دخل المُنكدر على عائشة رضي الله عنها قال لها: يا أم المؤمنين أصابتني فاقه فقالت: لئن أصبح عندنا شيء بعثنا به إليك، ولئن صار إليَّ عشرة الآف درهم أرسلتها لك ما تركت منها درهماً واحداً، فلما خرج من عندها جاءتها عشرة الآف درهم من عند خالد بن أسيد فأرسلت بها إليه في أثره فأخذها ودخل بها السوق فاشترى جارية بألف درهم وتزوجها فولدت له ثلاثة أولاد هم محمد وأبو بكر وعمر بنو المُنكَدر، فكانوا من أشهر عُبّاد المدينة.

* * *

ومن أكرم العرب في الإسلام طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه جاء إليه رجل فسأله أن يَصِلَ الرحم التي بينهما فقال: هذا بيت بمكان كذا، وقد أعطيت فيه مائة ألف درهم، فإن شئت فالمال وإن شئت فالبيت.

وقال زياد بن جرير رأيت طلحة بن عبيد الله فرّق مائة ألف في مجلس واحد وإنه ليخيط إزاره بيده، وذكر الإمام أبو علي القالي في كتابه الأمالي، أن رجلاً جاء معاوية (وكان كريماً)، رضي الله عنه، فقال له: سألتك بالرحِم التي بيني وبينك أن تقضي حاجتي؟ فقال له معاوية: أنت من قريش؟ قال: لا.

قال: فأي رحم بيني وبينك؟

قال: رَحِمُ آدم عليه السلام.

فقال معاوية: رَحِمٌ مجفوّة، والله لأكونك أول من وَصَلَها، وقضى حاجته.

---

(١) كان عنده مفتاح البيت الحرام في الجاهلية فلما جاء الفتح أمر النبي ﷺ بإحضار المفتاح من عند عثمان فنزل قول الحق تبارك وتعالى: ﴿**إن الله يأمرك أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها**﴾. فرده إلى النبي ﷺ وقال: خذوها آل عثمان خالدة تالدة، لا يأخذها منكم إلا جبار أو ظالم، وما زال مفتاح الحرم باقياً في ذريته حتى يومنا هذا.

وروي أن الأشعب بن قيس أرسل إلى عديّ بن حاتم الطائي يستعير منه قدوراً كانت لأبيه حاتم، فملأها مالاً وبعث بها إليه وقال: إنا لا نعيرها فارغة.

ويقول النبي ﷺ: «اليد العليا خير من اليد السفلى».

* * *

وسأل معاوية الحسن بن عليّ رضي الله تعالى عنهم، عن الكرم؟

فقال: «هو التبرّع بالمعروف قبل السؤال، والرأفة بالسائل مع البذل».

وقَدِمَ رجلٌ من قريش ومعه غلامه من سفر، فمرّا على رجل من الاعراب على قارعة الطريق قد أقعده الدهر وأضرّ به المرض فقال الاعرابي: يا هذا أعنّا على الدهر. فقال لغلامه: ما بقي معك من النفقة فادفعه إليه، فصبّ في حجره أربعة الآف درهم، فهمّ ليقوم فلم يقدر من الضعف، فبكى، فقال له: ما يُبكيك؟ لعلّه قلة المال الذي دفعناه إليك قال الاعرابي: لا والله ولكن ذكرت ما تأكل الأرض من كرمك فأبكاني.

* * *

ويروى أن عبد الله بن أبي بكر الصديق بن أبي قحافة رضي الله عنهم، كان من أجود الأجواد وكان من الكرام المعدودين في المدينة، عَطش يوماً في طريقه، واستسقى من منزل امرأة، فأخرجت له كوزاً، وقامت خلف الباب وقالت: تَنَحّوا عن الباب، وليأخذه بعض غِلمانكم، فإني امرأة عَزب مات زوجي منذ أيام، فشرب عبد الله الماء وقال: يا غلام إحمل إليها عشرة الآف درهم. فقالت: سبحان الله، أتسخر بي؟

فقال: يا غلام احمل أليها عشرين ألفاً.

فقالت: أسأل الله لك العافية.

فقال: يا غلام احمل إليها ثلاثين ألفاً، فما برحت حتى كثُرَ خُطّابها وتزوجت.

وكان رضي الله تعالى عنه ينفق على أربعين داراً من جيرانه عن يمينه وأربعين عن يساره وأربعين أمامه وأربعين خلفه ويبعث إليهم بالأضاحي

والكسوة في الأعياد ويعتق في كل عيد مـائة مملوك رضي الله عنـه. وقد آخى بينـه النبي وبين عليّ بن طالبٍ رضي الله عنهم وكـلاهما من أبـطال الفداء في الإسلام.

* * *

ولما مرض قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري، استبطأ إخوانه في زيارته ليعودوه من مرضه، فقيل له: إنهم يستحيون مما لك عندهم من الدّين فقـال: أخزى الله ما لا يمنع عني الإخوان من الزيارة ثم أمـر مناديـاً ينادي: من كـان لقيس عنده مال فهو منه حِلّ، فما كانتَ العشية حتى كُسـرَت عتبة بـابه لكثـرة العُوّاد.

* * *

وكان عبد الله بن جعفر (بن عبد المطلب) رضي الله عنهما، من الجـود بالمكان المشهود وله فيه أخبار يكاد سامعها يُنكرها لبُعْدها عن المعهود، وكان معـاوية يعـطيه ألف ألف درهم في كـل سنة فيفـرقها في النـاس، ولا يُرى إلا وعليه دين.

وخرج رجل ليبيع بهيمة له في السوق فمـرّ بعبد الله بن جعفـر رضي الله عنهما، فطلب منه أن يشتريها، فقال الرجل: هي لك هِبة، وتـركها وانصـرف إلى بيته، فلم يلبث إلا يسيراً، وإذا بالحمالين على بابه، عشـرين نفراً عشـرة منهم يحملون حِنْطة (قمحاً)، وخمسة يحملون لحماً، وأربعة يحملون فاكهـة ونقلاً، وواحد يحمـل مالاً فـأعطاه كـل ذلك، واعتـذر إليه، رضي الله تعـالى عنه.

وقـال الحسن والحسين يومـاً لعبد الله بن جعفـر: لقد أسـرفت في بذل المال.

فقال: بأبي أنتما، إن الله عز وجـل عوّدني أن يتفضـل عليّ وعوّدتـه أن اتفضل على عباده وأخاف أن أقطع العادة فيقطع عليّ المادة.

وامتدحه نصيب (أحد العبيد) بأبيات من الشعـر فأمـر له بخيـل وأساس ومالٍ كثيـرٍ.

فقيل له: مثلُ هذا الأسود تعطي له هذا المال؟

فقال: «إن كان أسود فإن ثناءه أبيض، ولقد استحق بما قال أكثر ممّا نال، وهل أعطيناه إلا ثياباً تَبلى، ومالاً يفنى، وأعطانا مدحاً يُروى، وثناءً يبقى».

* * *

وجاء رجلٌ من الأنصار إلى عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهما فقال: يا ابن عم رسول الله ﷺ: رزقني الله هذه الليلة بمولود سمّيته باسمك تبركاً بك، وقد ماتت أمه.

فقال له: بارك الله لك في الهِبَة، وآجرك على المصيبة.

ثم دعا بوكيله وطلب منه أن يشتري للمولود جارية تحضنه، وأن يدفع لأبيه مائتي دينار لينفقها على تربيته ثم قال للأنصاري: عُد إلينا بعد أيام فإنك جئتنا وفي العيش يبس، وفي المال قِلة.

قال الأنصاري: جَعَلني الله فداءك، والله لو سبقت حاتماً[1] بيوم ما ذكرته العرب.

وأنشد عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما هذه الأبيات عند معاوية رضي الله عنه:

بلوت الناس قرنا بعد قرنٍ ... فلم أرَ غير ختّالٍ وقالِ

ولم أرَ في الخطوب أشد وقعاً ... وأمضى مِنْ مُعَاداتِ الرجال

وذُقت مرارة الأشياءِ طُرّاً ... فما شيء أمرَّ من السؤال

فأمر له معاوية بمائة ألف درهم.

* * *

وكان يزيد بن المهلب[2] من كرام العرب، وعند خروجه من سجن عُمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، وكان معه ابنه، فمرّا بأعرابية فأكرمت

---

(١) يقصد حاتم الطائي كان جواداً كريماً حتى ضُرب به المثل في الكرم فقيل «أكرم من حاتم».

(٢) كان أميراً على خراسان وقيل إن الحجاج حبسه على خراج وجب عليه، وكان إلى جانب كرمه الشديد يميل إلى اللهو والمجون، فتكرر حبسه في عهد عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه لأنه كان عادلاً فكان يقسو على الولاة.

وفادتهما، وذبحت لهما عنزاً، فقال لابنه: ما بقي معك من النفقة؟ قال: مائة دينار قال: ادفعها إليها.

فقال: هذه يُرضيها القليل وهي لا تعرفك.

فقال: إن كان يُرْضيها القليل، فأنا لا أرضَى إلا بالكثير وإن كانت لا تعرفني فأنا أعرف نفسي». وعليّ بن أبي طالب رضي الله عنه يقول بعد توليّه الخلافة: «من كانت له حاجة فليرفعها إليَّ في كتاب لأصون وجهه عن المسألة».

وجاءه رضي الله تعالى عنه أعرابي فقال: يا أمير المؤمنين: إن لي إليك حاجة ويمنعني الحياء أن أذكرها.

فقال: خُطَّها في كتاب فكتب: إني فقير.

فقال الإمام عليّ رضي الله عنه: يا قنبر (خادمه): أكسه فأنشد الأعرابي أبياتاً من الشعر جاء فيها:

كسوتني حُلّة تبلى محاسنها	فسوف أكسوك من حُسن الثنا حللا
إن نلت حُسن الثَنَا قد نلت مكرمة	وليس نبغي بما قدّمته بَدَلا
إن الثناء ليُحيي ذكرَ صاحبه	كالغيث يُحيي نداه السَهل والجبلا
لا نزهد الدهر في عُرفٍ بدأت به	كل امرىء يُجزى بالذي فعلا

فقال الإمام عليّ رضي الله عنه: يا قنبر زده مائة دينار فقال: يا أمير المؤمنين لو فرّقتها في المسلمين لأصلحت بها من شأنهم. فقال رضي الله تعالى عنه: صه (يعني اسكت) يا قنبر فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اشكروا لمن أثنى عليكم، وإذا أتاكم كريم قوم فأكرموه». وقال بعض العرب يوصي ابنه: «يا بني: لا تزهدن في معروف، فإن الدهر ذو صروف، فكم راغب كان مرغوباً إليه، وطالبٍ مطلوباً ما لديه، وكن كما قال القائل:

وعُدّ من الرحمن فضلاً ونعمة	عليك إذا ما جاء للخير طالب
ولا تمنعن ذا حاجة جاء راغباً	فإنك لا تدري متى أنت راغب

* * *

وقـال يحيى البـرمكي[1]: «أعط من الـدنيـا وهي مُقبلة، فـإن ذلـك لا ينقصك منها شيئاً، وأعط منها وهي مُـدبرة، فـإن صنعت لا يبقى عليك منهـا شيءٌ». فكـان الحسن بن سهل يتعجب من ذلـك ويقول: «لله درُّهُ مـا أطبعـه على الكرم، وما أعلمه بالدنيا».

وقـال يحيى يوصي ابنـه جعفر: «يـا بني: ما دام قلمـك يرعـد فأمـطره معروفاً».

وقال الإمام عليّ رضي الله عنه: «لا تَستح من عطاء القليل، فالحِرمـان أقل منه».

وقـال المهلّب[2]: «عجبت لمن يشتـري الممـاليك بمـالـه، كيف لا يشتري الأحرار بفعاله».

ونـزل بأبي البحتـري وهب بن القُرشي ضيفٌ فسـارع عبيده إلى إنـزاله وخدموه أحسن خدمة، وفعلوا به كل جميل فلما همّ بالرحيـل، لم يقربـه أحدٌ منهم وتجنّبوه، فأنكر ذلك عليهم، فقـالوا: إنمـا نعين النازل على الإقـامة ولا نعينه على الرحيل».

* * *

وخـرج عبـد الله بن جعفــر والحسن والحُسين وأبـو دحيــة الأنصـاري رضي الله تعالى عنهم من مكة إلى المدينة، فأصابتهم السمـاء بمطر، فلجـأوا إلى خِباء أعرابي، فأقاموا عنده ثلاثة أيام حتى سكنت السماء، فأكرم وفـادتهم وذبـح لهم شاة، فلمـا همّوا بـالرحيـل، قال عبـد الله لـلأعـرابي: إن قـدمت المدينة فسـل عنّا، وبعـد سنين احتاج الأعـرابي، فقالت لـه امرأتـه: لو أتيت المدينة فلقيت هؤلاء الفتيان.

---

(١) كان سخياً كريماً وقيل: تذاكروا السخاء فاتفقوا على البرامكة في الدولة العباسية.
والبـرامكة هم الـذين استعان بهم السفـاح أول الخلفاء العبـاسيين في القضـاء على بني أميـة وقـامت على أكتافهم الـدولة العبـاسية، فـأشركـوهم معهم في الحكم وزاد نفوذهم في عهـد هارون الرشيد فقضى عليهم وعُرِفَ ذلك بنكبة البرامكة.

(٢) المُهلّب بن أبي صفرة: القائد العربي المُسلم فاتح بـلاد ما وراء النهـر وإقليم خراسـان الذي تولى إمارته وجاء من بعده ابنه يزيد.

فقال: قد نسيت أسماءهم.

فقالت: سل عن ابن الطيار (تقصد عبد الله بن جعفر فأبوه رضي الله تعالى عنهما، هو سيدنا جعفر الشهيد الذي أبدل الله يديه بجناحين يطير بهما في الجنَّة فسمي جعفر الطيَّار). فأتى الأعرابي المدينة، فلقي سيدنا الحسن رضي الله تعالى عنه، فأمر له بمائة ناقة بفحولها ورُعاتها، ثم أتى الحُسين رضي الله تعالى عنه فقال الأعرابي: كفانا أبو محمد (يقصد سيدنا الحسن) مؤونة الإبل، فأمر له بألف شاة، ثم أتى عبد الله بن جعفر رضي الله تعالى عنهما: كفاني الحسن والحسين (رضي الله عنهما) مؤونة الإبل والشاة، فأمر له بمائة ألف درهم، ثم أتى أبا دحية الأنصاري رضي الله عنه فقال: والله ما عندي مثل ما أعطوك، ولكن ائتني بإبلك فأوفرُ لك المراعي.

فلم يزل اليسار في عَقب الأعرابي منذ ذلك اليوم.

* * *

ويحكى أن أحد الأمراء أشرفَ يوماً من قصره، فإذا هو بأعرابي يطلب مقابلة الأمير فلما مَثَلَ بين يديه سأله عن حاجته، فأنشد الأعرابي يقول:

أصلحكَ اللَّه قلّ ما بيدي	ولا أطيق العيالَ إذ كثروا
أناخ دَهرِي عَليَّ كلكله	فأرسلوني إليك وانتظروا

فأخذت الأريحية بالأمير وجعل يهتز في مَجلسِه ثم قال: «أرسلوك وانتظروا، إذاً والله لا تجلس حتى ترجع إليهم، ثم أمر له بألف دينار».

وقال أبو العيناء[1] حصلت لي ضيقة شديدة، فكتمتها عن أصدقائي، فدخلت يوماً على يحيى بن أكثم القاضي فقال: إن أمير المؤمنين المأمون قد جلس للمظالم، فهل لك في الحضور؟ قلت: نعم، فمضيت معه إلى دار أمير المؤمنين، فلما دخلنا عليه أجلسه وأجلسني ثم قال:
«يا أبا العيناء: بالألفة والمحبة ما الذي جاء بك في هذه الساعة، فانشدته:

لقد رجوتك دون الناس كلهم	وللرجاء حقوق كلها تجب

(١) أحد الشعراء في عهد المأمون الخليفة العباسي.

إن لم يكن لي أسبــابٌ أعيش بهــا ففي العـلا لـك أخـلاقٌ هي السببُ

فقـال: يا سـلامة انـظُر أيّ شيء في بيت مـالنـا دون مـال المسلمين.
فقال: بقية من مال، قال: ادفع له منها مائـة ألف درهم وابعث له بمثلهـا كل شهر، فلما كان بعد أحـد عشر شهـراً مات المـأمون، فبكى عليـه أبو العينـاء حتى تقرّحت أجفانه، فدخل عليه أحد أولاده فقال: يـا أبتاه: مـاذا ينفع بعـد ذهاب العين؟

فأنشأ أبو العيناء يقول:

شيآن لو بكت الدماء عليهمـا عينـاي حتى يؤذِنـا بـذهـاب
لم يبلغا المعشار من حقيهمـا فقـد الشباب وفـرقة الأحبـاب

وكان أحمد بن طولون كثير الصدقة وكان الموكل بصدقته سليم الخـادم فقال له يوماً: أيها الأمير: إني أطوف القبائـل وأدقُ الأبواب لصـدقاتـك، وإن اليد تمتد إلي وفيها الحناء وربمـا كان فيهـا الخاتم الـذهب والسوار الـذهب، أفأعطي أو أرد، فأطرق أحمد بن طولـون طويـلاً ثم قال لـه: «كلُّ يـدٍ امتدت إليكَ فلاَ تَرُدَّها».

قال الشاعر:

وإذا مـا اختبـرت ودّ صــديق فــاختبــر وُدّه عن الغِـلمــانِ

* * *

وكانت سفانة بنت حاتم الطائي من أجود نساء العرب وكان أبوها يعطيها الضريبة من إبله فتهبها وتعطيها للناس فقال لها أبوها: «يا بُنيّة: الكـريمان إذا اجتمعا في المال أتلفاه، فإما أن أعطي وتمسكي، وإمـا أن أمسك وتعـطي». فقالت: «منك تعلمت مكارم الأخلاق».

* * *

قال ابن الأعرابي: «كان حاتم الطائي من شعراء الجاهلية وكان جواداً، مجيداً للشعر، يصدُق قوله فعله، وكان حينما ينزل يُعرف منزله، وكان مُـظفّراً إذا قـاتل غلب، وإذا سُئـل وهب، وإذا سـابق سبق، وإذا أسـرَ أطلق، وكـان ينحر في كل يوم عشراً من الإبل فيطعم الناس إذا اجتمعوا إليه».

وكان إذا اشتد البرد وغلب الشتاء، أمر غلمانه بنار فيوقدونها في بقاع الأرض، لينظر إليها من ضلّ عن الطريق ليلاً فيقصدها، ولم يكن حاتم يُمسك شيئاً ما عدا فرسه وسلاحه، فإنه كان لا يجود بهما، ثم جاء بفرسه في سنةٍ مُجْدبة، ولما مات عظُم على طيء موته فادّعى أخوه أنه يخلفه فقالت له أمه: هيهات! شتان والله ما بينكما، وضعته فبقي والله سبعة أيام لا يرضع حتى ألقمت أحد ثديي طفلاً من الجيران، وكنت أنت ترضع ثديي ويدك على الآخر فأنى لك ذلك، قال الشاعر:

يعيش الندى ما عاش حاتم طيء   وإن مات قامت للسخاء مآتم

ومن مظاهر الكرم أن لا يعرف المضيف أسم الزائر، وأن لا يسأله عن خصوصياته، بل يشعره كأنه في منزله»:

يا ضيفنا لو جِئتنا لوجدتنا   نحن الضيوف وأنت رب المنزل

* * *

والتاريخ الحديث يروي لنا عن الكرم العربي أيضاً. مبعوث نابليون، تيودور لاسكاري مع مترجمه السوري الأصل فتح الله صايغ، استقبلتهما امرأة عجوز فقيرة في بادية الأردن، فوفرت لهما المأوى، وذبحت عنزتها الوحيدة على شرف ضيفيها، وعندما سألاها: يا جدتي لماذا هذا التدبير؟ قالت: «إذا دخلتما دار شخص ولم تجدا عنده كرم ضيافة وحُسن وفادة فكأنكما قمتما بزيارة للأموات، فهل تظناني كذلك؟».

ويروي أمين الريحاني في كتابه ـ ملوك العرب ـ قصة حادثة طريفة، وقعت له في إحدى (إمارات اليمن الجنوبي) في مطلع هذا القرن؛ يقول: ودعنا السلطان تلك الليلة شاكرين له حُسن الحفاوة والضيافة، وأعلمناه أننا سننهض باكراً للرحيل، فلا نكلفه مشقة القيام مثلنا ليودعنا ثانية، وفهمنا منه أنه قبل بذلك، إلا أننا في صباح اليوم التالي، وبينما نحن نستعد للرحيل، دُهشنا بل ذعرنا لحادث فيه منتهى الغرابة، كنا مقيمين في جناح من القصر قُبالة الجناح الذي يسكنه الحريم، وبيننا الحوش الذي كانت فيه الركائب والخدم، فسمعنا بغتة أن إناء من الفخار تكسر فيه، فظننا أنه وقع من

السطح، ولكن إناء آخر تبعه ـ رأيناه ـ يُرمى من النافذة ولم نر الرامي ـ فأصاب أحد العساكر، فرفع صوته شاكياً. ثم حفنة، ثم قطعة أخرى من الفخار تحطمت بين أقدام البغال، فعلت الضجة في الحوش، وسمعنا رجالاً يصيحون: هم يطردوننا، عجّلوا يا ناس، هذه ضيافة ابن مانع، عجّلوا بالرحيل.

خرجت وقسطنطين مسرعين، فركبنا وسِرنا نتقدم الحملة، نزلنا من الجبل إلى السهل فالنهر وقلبنا ـ أقول وقلبي ولا أتهم رفيقي ـ يختلج حنقاً ورعباً، ظننا أننا بعدنا عن الخطر وعن ضيافة صاحب السمّو الحوشبي عندما وصلنا إلى النهر، ولكننا قبل أن نجتازه سمعنا أصواتاً تنادي: قفوا. فلم نقف، فأطلقوا إذ ذاك من البنادق طلقات عديدة، فقلت لرفيقي: هوذا الخطر الذي نتوقعه، دنت الساعة يا قسطنطين، قف واشهر سلاحك.

بعد قليل قرب القوم منا فإذا هم خدم السلطان يحملون على رؤوسهم الأطباق ومعهم بضعة عساكر. جاءوا بالفطور، أي والله، كيف نسافر قبل أن نفطر؟ وكيف نسافر قبل أن نودع السلطان الذي نهض باكراً للوداع؟

* * *

سألناهم عن الفخار الذي رمونا به، فأخبرونا أن السلطانة، وهي في خِدْرها رأتنا من على السطح في أهبة الرحيل، فنهضت كذلك باكراً من أجلنا، فأرادت تنبيه الخدم النائمين في الطابق الأسفل، ولم تشأ أن تسمعنا صوتها أو تُرينا من النافذة وجهها فرمتهم بالفخار تستفيقهم لينهضوا ويهيئوا لنا الطعام، الضيوف، انهضوا للضيوف، والحقوهم بالفطور، وأطلقوا الرصاص إن كانوا لا يقفون. لقد منع الحياء والتقاليد الاجتماعية تلك السلطانة المستورة من المناداة على الخدم، فتصرفت تصرفاً أفزع الضيوف، ولكنه كان أساساً لإراحتهم.

* * *

وفي مصر يبالغون كثيراً في اكرام الضيف ويربط المصريون الكرم بمعنى الإفاضة في كل شيء كقولهم: «إذا ضربت فأوجع، وإذا أطعمت فأشبع».

وفي صعيد مصر يتخذ الكرم أشكالاً عجيبة تفوق الوصف، فإذا نزل ضيف وربما يكون عابر سبيل فإنهم يستقبلونه في دار الضيافة، وهي مُعدة خصيصاً لهذا الغرض، فأما عابر السبيل فالكل يتسابقون في القيام بواجب الضيافة نحوه وقد يمكث أياماً، وأسابيع. قد تطول إقامته فيمكث شهراً أو شهرين ويبدون في اكرامه واجباً يحتمه العرف والتقاليد التي درجوا عليها، يطعمونه أفضل ما يأكلون، فإذا حدث سهو من صاحبة البيت ولم تخرج كل ما عندها من أطايب الطعام للضيف عَدّوا الذي لم يخرج للضيف محرّماً عليهم فلا يقربوه. وإذا كان الضيف يريد شخصاً بعينه، فإن هذا الرجل (المضيف) يبالغ في اكرام ضيفه من حيث القيام بواجبه وحُسن وفادته وتقديم أفضل أنواع الطعام فإذا لم يجد صاحب البيت في بيته ما يجعله يظهر بالمظهر اللائق أمام ضيفه فإنه يستدين دون أن يشعر به أحد لكي يكون مستوراً أمام ضيفه هكذا يقولون.

وفي هذه البيئات القَبَلّية حيث يوجد الثأر إلى الآن وعند نزول الضيف تجدهم يسارعون جميعاً إلى إكرامه يشترك في ذلك الجميع أهل القاتل وأهل القتيل معاً. وأغرب من ذلك إذا نزل الضيف بأهل القاتل وكان يريد الطرف الآخر (أهل القتيل) فإنهم يقومون بواجبه (هكذا يقولون، لأنهم يعتبرون إكرام الضيف واجباً حتى ولو كان يريد عدوهم فهو في كل الأحوال ضيف يستوي في ذلك الجميع فهو عُرف سائد في المجتمع). وبعد القيام بواجب الضيف، فإنهم يلحُّون عليه في الإقامة عندهم ويخيرونه، ثم يذهبون معه إلى حيث يريد (أسرة القتيل) التي تطالبهم بالثأر وبالرغم مما يبدو في ذلك من مخاطرة ظاهرة، فالواقع غير ذلك، فإنهم ينسون ما بينهم من العداوة إكراماً للضيف - ويستقبلون أعداءهم بروح صافية ويقدمون لهم التحية فقط في هذه الفترة - ويظل شعار السِلم والكرم موجوداً ما دام الضيف موجوداً.

* * *

والروايات في الكرم وأهله أكثر من أن تحصى وأشهر من أن تُذكر ففي مثل هذه المناقب فليتنافس المتنافسون، ولمثلها فليعمل العاملون فإن فيها عزّ الدنيا وشرف الآخرة وحُسن الصيت، وخلود جميل الذكر قال الشاعر:

ولا شيء يدوم فكن حديثا جميل الذكر فالدنيا حديث

وأعلم أن المأكول للبدن والموهوب للميعاد، والمتروك للعدو فاختر أي الثلاث شئت.

* * *

وأما ذم البخل والشح والبخلاء فيكفي فيه قول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾[1].

وقول الرسول الكريم ﷺ: «إياكم والشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم».

وقالت أم البنين أخت عمر بن عبد العزيز رضي الله عنهما: «لو كان البخل قميصاً ما لبسته، أو كان طريقاً ما سلكته».

ويذكر لنا الأدب العربي التوبيخات ونعوت الذم لمن يطفىء نار مخيمه عن عمد، كي لا يُستدل على مكانه بالليل، ولم يلق أحد من العرب من الذم والهجاء قدر ما لاقاه من يتصفون بالبخل، ومن أبلغ ما قالته العرب: قول ابن الرومي الشاعر:

يقتِّر عيسى على نفسِهِ وليس بباقٍ ولا خالدِ
ولو يستطيع لتقتيره تنفَّسَ من منخرٍ واحدِ

وقال آخر:

وآمِرةً بالبُخل قُلتُ لَهَا إقصِري فَليسَ إليه ما حَييتُ سَبيلُ
أرىَ الناسَ إخوانَ الكريم وَما أرىَ بَخيلاً له في العَالمِينَ خَليلُ

ومن أهجى ما قيل في ذم البخل وأهله ما قاله الأخطل التغلبي الشاعر يهجو جريراً وقومه وكانوا مشهورين بالبخل:

قومٌ إذا أكلوا أخفَوا كَلامَهُم واستوثقُوا من رتاج[2] الباب والدارِ
قومٌ إذا استنبح الضيفان كلبهم قالوا لأمهم بُولي على النار[3]

(١) سورة النساء، الآية: ٣٧.
(٢) رتاج: أداة لإحكام غلق باب الدار.
(٣) كان إيقاد النار هو العلامة التي يهتدي بها الضيوف عند العرب.

فتمنــع البـول شحّـاً أن تجـود بــه ومـا تبــول لـهــم إلا بـمــقــدارِ
والخبـز كـالعنبــرِ الهنـديّ عنــدهُمْ والقمــح خَمسُـونَ أردبــاً بِــدينــارِ

وقال آخر:

تـراهم خشيـة الأضيـاف خُـرسـاً يـقـيـمــون الـصــلاة بــلا أذانِ

* * *

ونـوادر البخـلاء وحكـايـاتهم التي تجسـد شـدة حـرصهم وبخلهم مـع ضيـوفهم مذكـورة أيضاً في الأدب العـربي وهم يرْوُونهـا للتنـدر على البخـل والبخـلاء والتحقير من شـأنِهم وأخذ العبـرة، وممن أشتهر بـالبخـل من هؤلاء اللئام رجلٌ يدعى حميد الأرقط حتى وصفوه: «هجَّاءُ الأضيافِ».

وكان أبو الأسود الدؤلي بخيلاً، وقف عليه أعرابي وهو يتغدى فسلم فرد عليـه، ثم أقبل على الأكـل فقال لـه الأعرابي: إني مـررت بأهلك.

قال أبو الأسود: كذلك كان طريقك.

قال الأعرابي: وامرأتك حبلى وقد ولدت.

قال: كان لا بد لها أن تلد.

قال الأعرابي: ولدت غلامين.

قال: كذلك كانت أمها.

قال الأعرابي: مات أحدهما.

قال أبو الأسود: ما كانت تقوى على إرضاع اثنين.

قال الأعرابي: ثم مات الآخر.

قال: ما كان ليبقى بعد موت أخيه.

قال الأعرابي: وماتت الأم.

قال أبو الأسود: حزناً على ولديها.

قال الأعرابي: ما أطيب طعامك؟

فقال أبو الأسود: لأجل ذلك أكلته وحدي والله لا تذوقه يا أعرابي.

* * *

واستقدم الحجاج أعرابياً وولّاه ناحية من النواحي فأقام بها مدة طويلة وكان مشهوراً بالبخل، وذات يوم ورد عليه أعرابي من حيّه فقدم إليه الطعام وكان جائعاً، فسأله عن أهله قائلاً: ما حال ابني عُمير؟

قال: على ما تحب، ملأ الأرض والحي رجالاً ونساءً.

قال: فما فعلت أم عمير؟

قال: صالحة.

قال: فما حال الدار؟

قال: عامرة بأهلها.

قال: وكلبنا إيقاع؟

قال: قد ملأ الحيّ نباحاً.

قال: فما حال جملي رُزيق؟

قال: على ما يسرّك.

فالتفت إلى خادمه وأمره برفع الطعام، والأعرابي لم يشبع بعد، ثم أقبلَ عليه يسأله قائلاً: يا ميمون الطلعة، أعِد عليّ ما ذكرت.

قال: سل عما بدا لك؟

قال: فما حال كلبي إيقاع؟

قال: مات.

قال: وما الذي أماته؟

قال: اختنق بعظمة من عظام جملك رُزيق فمات.

قال: وهل مات جملي رُزيق؟ قال: نعم.

قال: فما الذي أماته؟

قال: كثرة نقل الماء إلى قبر أم عُمير.

قال: وهل ماتت أم عُمير؟ قال: نعم.

قال: وما الذي أماتها؟

قال: كثرة بكائها على عُمير.

قال: وهل مات عمير؟ قال: نعم.

قال: ما الذي أماته؟

قال: سقطت عليه الدار.
فقام له بالعصا ضارباً فولى هارباً.

ونـزل على أبي حفصة الشـاعر (وكـان بخيلاً)، رجـل من أهل اليمـامة فـأخلى له المنـزل وهرب مخـافة أن يلزمـه ضيـافتـه في هـذه الليلة، فخـرج الضيف واشترى ما يحتاج إليه ثم رجع وكتب إليه:

يـا أيهـا الخـارج من بيتـه   وهـاربـاً من شـدة الخـوف
ضيفـك قـد جـاء بـزادٍ لـه   فارجع وكن ضيفاً على الضيف

* * *

وقيل: بخلاء العرب أربعة الحطيئة الشـاعر وحميـد الأرقط وأبو الأسـود الدؤلي وخالد بن صفوان.

فأما الحطيئة فمرّ به رجل وبيده عصا فقال: أنا ضيف فأشـار إلى العصا وقـال: لِكِعابِ الضيفـان اعـددتهـا (يعني يضـرب الضيـوف على كعـوبهم إذا سألوه، لشدة بخله).

وأما خالد بن صفوان فقيل له: لم لا تُنفق ومالك عريض؟ فقال: الدهر أعرض منه.

وقد أوردنا هذه النوادر ليكون لنا منهـا عبرة، ومهمـا قيل في ذم البخـل وأهله، فيكفي أن هذا الخُلقُ القبيح يجلب لصاحبه غمـاً ووزراً وذِكراً خـاملاً بين الناس، نعوذ بالله من شره: قال الشاعر:

وَهَبْنِي جَمعتُ المـالَ ثُمَّ خَـزَنْتُـه   وحـانت وفـاتي هـل أزادُ بـه عُمـرَا
إذا خَـزَنَ المـالَ البخيـلُ فـإنـه   سيُـورثـهُ غـمّـاً ويَـعقبُـه وِزْراً

وقال ابن أبي فَنَنَ الشاعر وكانَ جواداً كريماً:

ذريني وإتلافي المـال فـإنني   أُحب من الأخلاقِ ما هو أجملُ
وإنّ أحقَّ النَّاسِ باللّوم شاعر   يَلومُ على البُخلِ الرجال ويَبخلُ

* * *

تاسع عشر: ومن الأحرى بك أن تكون رحيماً بإخوانك، مصطنعاً للمعروف، غيّاثاً للملهوف، فتقضي حاجتهم إن قدرت، وتدخل السرور عليهم ما استطعت، وتُصلح ذاتَ بينهم.

قال الله تعالى يصف رسوله الكريم صلوات ربي وسلامه عليه: **﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾**[1]. وأوجب الله تعالى على نفسه الرحمة لعباده قال تعالى: **﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾**[2]. وقال الله تعالى: **﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾**[3].

قال المفسرون: الرحمن اسم رقيق يدل على العطف والرقة واللطف والكرم والمنّة والحِلم على الخَلْق والرحيم مثله.

ويقول العلامة القُرطبي في تفسيره لمعنى (الرحمن الرحيم): إنهما صِفتان لله عزّ وجل، مشتقتان من الرحمة، وقد روعي في كل من (الرحمن) و(الرحيم) معنى لم يراع في الآخر فالرحمن بمعنى عظيم الرحمة لأن «فَعْلان» صيغة مبالغة في كثرة الشيء وعظمته ولا يلزم منه الدوام كغضبان وسكران، والرحيم بمعنى دائم الرحمة لأن صيغة «فَعِيل» تُستعمل في الصفات الدائمة ككريم وظريف فكأنه قيل: العظيم الرحمة الدائم الإحسان.

وقال الخطابي: الرحمن ذو الرحمة الشاملة التي وَسِعت الخلق في أرزاقهم ومصالحهم وعمّت المؤمن والكافر، والرحيم خاص بالمؤمن كما قال تعالى: **﴿وكَانَ بالمؤمنين رحيماً﴾**[1].

والمعنى أي الذي وسعت رحمته كل شيء، وعمَّ فضله جميع الأنام، بما أنعم على عباده من الخلق والرزق والهداية إلى سعادة الدارين، فهو الرب الجليل عظيم الرحمة دائم الإحسان.

* * *

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١٢٨.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٤٣.
(٣) سورة الفاتحة، الآيتان: ٢ ـ ٣.
(٤) سورة الأحزاب، الآية: ٤٣.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لا يضع الله الرحمة إلا على رحيم»، قلنا: يا رسول الله: كلنا رحيم، قال: «ليس الرحيم الذي يرحم نفسه وأهله خاصة ولكن الرحيم الذي يرحم المسلمين». رواه أبو يعلى والطبراني.

وروى أبو محمد بن عديّ في كتاب الكامل عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «في الحديث القدسي فيما يرويه عن ربِّ العِزَّة: قال الله عز وجل: إن كنتم تريدون رحمتي، فارحموا خَلقِي».

وأخرج الطبراني عن الشعبي، عن النُعمان بن بشير رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «مثل المؤمنين في توادِّهم وتراحمهم وتواصلهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحُمَّى». يقول الطبراني راوي الحديث: إني رأيت رسول الله ﷺ في المنام فسألته عن هذا الحديث، فقال له النبيّ ﷺ وأشار بيده الشريفة: «صحيح ثلاثاً».

* * *

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن النبيّ ﷺ قال: «من مسح بيده على رأس يتيم كان له بكل شعرة تمر عليها يده، نور يوم القيامة».

ودخل عامل لعمر بن الخطاب رضي الله عنه فوجده مستلقياً على ظهره وصبيانه يلعبون على بطنه فأنكر ذلك عليه، فقال له عمر: كيف أنت مع أهلك؟ قال: إذا دخلت المنزل، سكت الناطق (يقصد أنه يقسو على أهله وولده). فعزله عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقال له: «إنك لا ترفق بأهلك وولدك فكيف ترفق بالمسلمين؟».

فما أجمل أن يكون الإنسان رحيماً بإخوانه، شفوقاً عليهم، وما أسعده في كل أحواله، الكل يسعد بصحبته، ويكون مسروراً لرؤيته، وإذا غاب عنهم استوحشوه، يألمون لألمه ويفرحون لفرحه، يبادلونه حُبّاً بحب وفوق الحُب، لأن قلبه المليء بالرحمة أفاض عليهم من مادته، فأضفى عليهم جوّاً

من السعادة الأبدية، مثل هذا الإنسان يكون عزيزاً على إخوانه يستمتعون بمصاحبته في كل وقت وفي كل حين.

وما أشقى رجلاً نُزعت من قلبه الشفقة والرحمة فسلك سبيل المجرمين، ويمسي ويصبح وجميع الخلق عليه ساخطين، يحبون مفارقته، ويكرهون مصاحبته، بل ويتمنون موته.

فلماذا لا تكون رحيماً بإخوانك حتى تنعم بمحبتهم وتسعد بصحبتهم، ولا تكن قاسياً عليهم فينفروا منك. قال تعالى: **﴿ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾**[1]، والشاعر العربي يقول:

إن القلوب إذا تنافر ودُّها … مثل الزجاجة كسرها لا يجبر

ثم تعالَ معي إلى قول الإمام عليّ رضي الله عنه تشع الحكمة من بين جوانبه وفيه سعادة القلب وراحة النفس، يقول رضي الله تعالى عنه:

واحرص على حِفظ القلوب من الأذى … فرجوعها بعد التنافر يصعب

* * *

فإذا صرت رحيماً بإخوانك فإنك سوف تسعى دائماً لاصطناع المعروف بينهم وإغاثة الملهوف منهم، وتقضي حاجتهم وتدخل السرور عليهم ما استطعت إلى ذلك سبيلاً. قال تعالى: **﴿وَلَا تَنْسَوا الْفَضْلَ بينكم﴾**[2]. وقال تعالى: **﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾**[3].

* * *

وروي في مسند الشهاب عن عبد الله بن عباس أن النبيّ ﷺ قال: «خير الناس أنفعهم للناس».

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «من سعى لأخيه المسلم في حاجة فقضيت له أو لم تُقض غُفِرَ له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر، وكتب له براءتان، براءة من النار، وبراءة من النفاق».

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٥٩.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٣٧.
(٣) سورة المائدة، الآية: ٢.

وأخـرج الطبـراني عن عبـد الله بن عمـر رصي الله عنهمـا أن النبي ﷺ قال: «إن لله عند أقوام نِعَماً يقـرّها عنـدهم ما دامـوا في حوائـج الناس مـا لم يَملُّوا فإذا ملُّوا نقلها الله إلى غيرهم».

وأخرج الطبراني بإسناد جيد عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال رسـول الله ﷺ: «ما من عبـد أنعم الله عليه نعمـة، فأسبغهـا عليـه، ثم جعـل حوائج الناس إليه فتبرّم فقد عرض تلك النعمة للزوال».

وعن ابن عمـر رضي الله عنهما قـال: «قيل يـا رسـول الله: أي النـاس أحب إليـك؟ قال: أنفـع الناس للنـاس. قيـل يـا رسـول الله: فـأي الأعمـال أفضـل؟ قال: إدخـال السرور على المؤمن، قيـل: وما سـرور المؤمن؟ قال: إشباع جوعته، وتنفيس كُربته، وقضاء دينه».

وروى الـطبراني عن أنس رضي الله عنـه أن رسـول الله ﷺ قـال: «من لقي أخاه المسلم بما يحبّ ليسرَّه بذلك، سرَّه الله يوم القيامة».

وعن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «من أدخـل على أهـل بيت من المسلمين سـروراً، لم يـرضَ الله لـــه سـروراً دون الجنَّة». رواه الطبراني.

* * *

وسأل رجلٌ رجلاً حاجة ثم توانى عن طلبها فقال المسئـول: أراك نمت عن حاجتك فقال السائل: ما نام عن حاجته من أسهرك لها، ولا عدل بها عن بلوغ النجاح من قَصَدك. فعجب من فصاحته وقضى حاجته.

وقال مسلمة[1] لنصيب: سلني؟

قال: كفك بالعطية أبسط من لساني بالمسألة فأمر له بألف دينار.

فـأنت تـلاحظ أن التلطف في السؤال وتخيـر الـوقت المنـاسب للسؤال سببان لبلوغ المقصد وقضاء الحاجة.

---

(١) هو مسلمة بن عبد الملك بن مروان بن الحكم وقد وجهه أبوه لقتال الروم فانتصر عليهم ودخل القسطنطينية وأبلى المسلمون في ذلك بلاءً حسناً.

وقال عليّ بن أبي طالب كرّم الله وجهه: «فوت الحاجة، أهون من طلبها إلى غير أهلها». وعنه أيضاً (رضي الله عنه) قال: «لا تُكْثر على أخيك الحوائج، فإن العجل إذا أفرط في مص ثدي أمه نطحته».

وحدث أبو جعفر محمد بن القاسم الكرخي قال: «عرضت على أبي الحسن عليّ بن الفرات (أحد ولاة العباسيين)، رقعة وفيها حاجة لي، فقرأها ووضعها من يده ولم يوقع فيها بشيء، فأخذتها وقمت، وأنا أقول متمثلاً من حيث يسمع هذين البيتين:

وإذا خطبت إلى كريم حاجة	وأَبَى فلا تقعد عليه بحاجب
فلربما منع الكريم وما به	بخل ولكن سوء حظ الطالب

فقال: وقد سمع ما قلت: ارجع يا أبا جعفر بغير سوء حظ الطالب. ولكن إذا سألتمونا الحاجة فعاودونا فإن القلوب بيد الله تعالى». وأخذ الرقعة ووقع فيها بما أردت.

* * *

وسأل رجلٌ إسحاق بن إبراهيم المصعبي (أحد عمال المأمون الخليفة العباسي)، أن يوصل له رقعة إلى المأمون فقال لكاتبه: ضمّها إلى رقعة فلان فأنشد الرجل:

تأن لحاجتي وأشدد عُراهَا	فقد أضحت بمنزلة الضياع
إذا شاركتها بلبان أخرى	أضرَّ بها مشاركة الرضاع

فإذا أردت قضاء حاجة فلا تشركها مع أخرى سواء من عندك فتكون أكثر من واحدة وبذلك تكثر حوائجك فلا تقضى، أو تُشركها مع حوائج الآخرين فإن ذلك يضر بالحاجة ولا يجعلها في موقع الصدارة مما يقلل من أهميتها ويكون قضاؤها أمراً محتملاً بين التوفيق وعَدمه. لهذا يفضل أن تقلل قدر المستطاع من حوائجك إلى الناس وإذا كان ولا بد فلتكن واحدة، ولتكن نيّتُكَ في السؤال أولاً إلى الله تعالى الذي خزائنه لا تنفد وبيده سبحانه التوفيق والنجاح.

قال سَلْم الخاسر [أحد العبّاد الزاهدين]:

إذا أذن اللّه في حاجة أتاك النجاح على رَسْله
فلا تسأل الناس من فضلهم ولكن سل اللّه من فضله

وعن عبد الله بن الحسن بن الحسن رضي الله تعالى عنهم قال: أتيت باب عمر بن عبد العزيز في حاجة فقال: «إذا كانت لك حاجة: فأرسل إلي رسولاً ، أو أكتب لي كتاباً، فإني لأستحي من الله أن يراك ببابي».

* * *

وعن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال: «والذي وَسِعَ سمعه الأصوات، ما من أحدٍ أودع قلباً سروراً إلا خلف الله تعالى من ذلك السرور لطفاً، فإذا نزلت به نائبة جرى إليها كالماء في انحداره حتى يطردها عنه كما تُطرد غريبة الإبل»، وقال رضي الله عنه لجابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنهما: «يا جابر: من كَثُرت نعم الله عليه، كَثُرت حوائج الناس إليه، فإن قام بما يجب لله فيها عرّضها للدوام والبقاء، وإن لم يقم فيها بما يجب لله عرّضها للزوال». نعوذ بالله من زوال النعمة نسأله التوفيق والعِصمة.

وقالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: ما ضرب رسول الله ﷺ امرأة قط، ولا خادماً له، ولا ضرب بيده شيئاً بيده إلا أن يجاهد في سبيل الله، ولا خُيِّر بين أمرين إلا اختار أيسرهما إلا أن يكون إثماً أو قطيعة رَحِم فيكون أبعد الناس منه، وقال إبراهيم بن عباس: «لو وُزنت كلمة رسول الله ﷺ: إنكم لن تَسعوا الناس بأموالكم، فسَعُوهم بأخلاقكم». وفي رواية أخرى: «فسَعُوهم بَبَسط الوجه والخُلُق الحسن».

* * *

وقال بعض السلف: «الإنسان الحسن الخُلُق ذو قرابة عند الأجانب، والسيِّء الخُلُق أجنبي عند أهله». وقال الفضيل: «لأن يصحبني فاجر حسن الخُلُق أحب إليَّ من أن يصحبني عابد سيِّء الخُلُق»، لأن الفاجر إذا حَسُن خلقه خفّ على الناس وأحبوه، والعابد إذا ساء خُلقه مقتوه.

إذا رَامَ التَخلُّقَ جاذبته خلائقه إلى الطبع القديم

قيل: أبى الله لسيِّء الخلق التوبة لأنه لا يخرج من ذنب إلا دخل في ذنب آخر لسوء خُلُقه».

وأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها تعلمنا حُسن الخُلق عن رسول الله ﷺ تقول: «كان رسول الله ﷺ إذا بلغه عن الرجُل شيء من سوء الخلق لم يقل: ما بال فلان ولكن يقول: ما بال أقوام يقولون حتى لا يفضح أحداً».

وعنه أيضاً ﷺ: «ثلاث من كُنَّ فيه كُنَّ له: من صدَقَ لِسانُه زُكِّيَ عمله، ومن حَسُنت نيّته زِيدَ في رِزقه، ومن حَسُنَ برّه لأهل بيته زِيدَ له في عُمْرِه، ثم قال: وحُسن الخُلُق وكف الأذى يزيدان في الرَزق».

وقيل: سوء الخُلُق يعدي لأنه يدعو إلى أن يُقَابلَ بمثله».

* * *

وكتب الحسن بن عليّ إلى أخيه الحُسين رضي الله عنهم يسأله في إعطائه الشُعَراء؟

فكتب إليه الحسين رضي الله عنه: «أنت أعلم مني بأن خير المال ما وُقِّيَ به الغرض»، فانظر إلى عُلوِّ أدبه وحُسن خُلُقِه كيف ابتدأ كتابه بأنت أعلمُ مني، وكان بينه وبين أخيه كلام، رضي الله عنهم، فقيل له: ادخل على أخيك فهو أكبر منك. فقال: إني سمعت جدي رسول الله ﷺ يقول: «أيّما اثنين جرى بينهما كلام فطلب أحدهما الآخر كان سابقَه إلى الجنَّة». وأنا أكره أن أسبق أخي الأكبر إلى الجنّة فبلغ ذلك الحسن فجاءه عاجلاً رضي الله عنهما، قال الشاعر:

وإني لألقى المرءَ أعلم أنه عدو وفي أحشائه الضغن كامنُ
فأمنحه بِشراً فيرجع قلبه سليماً وقد ماتت لديه الضغائنُ

وسرق بعض حاشية جعفر[1] بن سليمان بن عبد الملك جوهرة نفيسة وباعها بمال جزيل، فبعث إلى الجوهريين بصفتها فقالوا: باعها فلان من مدة، وتم القبض على الرجل وأحضروه بين يدي جعفر، فلما رأى ما ظهر

(١) هو أحد أبناء الخليفة الأموي سليمان بن مروان.

عليه قال له وهو يهدىء من روعه: لماذا تغير لونك يا رجل؟ ألست يوم كذا طلبت مني هذه الجوهرة فوهبتها لك؟ وأقسم بالله لقد نسيت هذا ثم أمر للجوهري بثمنها وقال للرجل: خذها الآن حلالاً طيباً وبعها بالثمن الذي يطيب خاطرك به ولا تبع بيع خائف.

* * *

ودخل محمد بن عَبّاد (أحد جُلساء المأمون) على المأمون فجعل يُعمِّمه[1] بيده وجارية على رأسه تبتسم فقال لها المأمون: مم تضحكين؟

فقال ابن عباد: أنا أخبرك يا أمير المؤمنين. إنها تتعجب من قبحي وإكرامك إيّاي.

فقال المأمون: لا تعجبي فإن تحت هذه العمامة كرماً ومجداً. فالجارية تتعجب من فعل المأمون وهو أمير المؤمنين كيف يبالغ في إكرام هذا الرجل الدميم ويلف له عمامته؟ فجاء رد المأمون حاسماً وهو الخليفة الذي يعرف قدر الرجال ويزن الأمور بميزان حساس فيميز الثمين من الغث: «وإن تحت العمامة مجداً وكرماً». هذا هو المعيار الذي يزن به الرجال وهذا هو السرف والسؤدد وماذا يغير جمال الرجل إن لم يصاحبه حُسْن الخلق؟ قال الشاعر:

وهل ينفع الفتيان حُسن وجوههم ... إذا كانت الأعراض غير حِسان

فلا تجعل الحُسنَ الدليل على الفتى ... فما كل مصقول الحديد يماني

وقال عبد الله بن طاهر (أحد عمال المأمون)، كنت عند المأمون يوماً فنادى بالخادم: يا غلام فلم يجبه أحد ثم نادى ثانياً وصاح يا غلام فدخل غلام تركي وهو يقول: أما ينبغي للغلام أن يأكل ولا يشرب كلّما خرجنا من عندك تصيح يا غلام يا غلام؟ فنكس المأمون رأسه طويلاً مما شككت أنه يأمرني بضرب عنقه، ثم نظر إليّ فقال:

يا عبد الله إن الرجل إذا حسُنت أخلاقه ساءت أخلاق خدمه، وإذا ساءت أخلاقه، حسُنت أخلاق خدمه، وإنّا لا نستطيع أن نسيء أخلاقنا لتحسن أخلاق خدمنا».

* * *

(١) يعمِّمه: يلبسه العمامة وهي سائدة عند العرب إلى اليوم.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما ورد علينا الوليد بن عُتبة[1] بن أبي سفيان والياً على المدينة كأن وجهه ورقة من ورق المصحف فوالله ما ترك فينا فقيراً إلا أغناه، ولا مديوناً إلا أدى عنه دينه، وكان ينظر إلينا بعين أرق من الماء، ويكلمنا بكلام أحلى من الشهد، ولقد شهدت منه مشهداً لو كان من معاوية لذكرته لأن معاوية رضي الله عنه كان شديد الحلم، يقول ابن عباس رضي الله عنهما: تغذينا يوماً عند الوليد فأقبل الفرّاش بصحفه[2] فعثرت قدمه في وسادة، فوقعت الصحفة من يده فوالله ما ردَّها إلا ذقن الوليد وانكبَّ جميع ما فيها في حجره فبقي الغلام متمثلاً واقفاً ما معه من روحه إلا ما يقيم رجليه، فقام الوليد فغيَّر ثيابه وأقبل علينا تبرق أسارير جبهته فأقبل على الفرّاش وقال: يا بائس ما أرانا إلا روّعناك؟ اذهب فأنت حر وأولادك أحرار لوجه الله تعالى.

* * *

ومرض أحمد بن أبي داود فعاده المتعصم (الخليفة العباسي)، وقال: نذرت إن عافاك الله تعالى أن أتصدق بعشرة الآف دينار.

فقال له أحمد: يا أمير المؤمنين: اجعلها في أهل الحرمين فقد لقوا من غلاء الأسعار شدة.

فقال المعتصم: نويت أن أتصدق بها على من ههنا، ولأهل الحرمين مثلها.

فقال أحمد: «متع الله الإسلام وأهله بك يا أمير المؤمنين فإنك كما قال النميري الشاعر لأبيك الرشيد رحمة الله تعالى عليه:

إن المكارم والمعروف أودية ... أحلك اللّه منها حيث تجتمع
من لم يكن بأمين اللّه معتصماً ... فليس بالصلوات الخمس ينتفع

* * *

وقيل للأحنف بن قيس: ممن تعلمت حُسن الخُلُق؟

---

(١) كان والياً على المدينة من قِبَل معاوية بن أبي سفيان أول خلفاء بني أمية (رضي الله عنه).
(٢) آنية من الفخار يقطع فيها الفطير (الرقاق) ويوضع عليه المرق واللحم.

فقال: من قيس بن عاصم، بينما هو ذات يوم جالس في داره، إذ جاءته خادم له بسفود عليه شواء حار، فنزعت السفود من اللحم وألقته خلف ظهرها فوقع على ابن له فقتله، فدهشت الجارية وانتابها الخوف والفزع، فلم يجزع قيس لشدة حلمه فقال للجارية: لا روع عليكِ أنت حرة لوجه الله تعالى.

وكان عبد الله بن عمر رضي الله عنهما إذا رأى أحداً من عبيده يحسن صلاته يعتقه فعرفوا ذلك من خُلُقه فكانوا يحسنون الصلاة مرآة له. فقيل له في ذلك، فقال: من خدعنا في الله انخدعنا له.

* * *

وروي أن عليّ بن أبي طالب كرّم الله وجهه دعا غلاماً له فلم يجبه فدعاه ثانية وثالثة فرآه مضطجعاً، فقال: أما تسمع يا غلام؟ فقال: نعم.

قال: فما حمَّلك على ترك جوابي؟

قال: أمِنت عقوبتك فتكاسلت.

فقال له: اذهب فأنت حر لوجه الله تعالى.

وقال المأمون: «لا خير في صحبة من لا ينصف». فانظر إلى أخلاقهم ما أحسنها، وإلى أفعالهم ما أزينها، نسأل الله تعالى أن يحسن أخلاقنا، ويبارك لنا في أرزاقنا إنه على ما يشاء قدير، وبالإجابة جدير، ومن حسُنت أخلاقه كان باراً باصدقائه فلا يرضى أن يكون بينه وبينهم شقاق، فهو سبّاقٌ إلى الخير دائماً، يتجاوز عن المسيء فيعفو عن إساءته، ويتفقد أحوالهم بعين بصيرته ويتشفع لهم عند ذوي الجاه إن كان عندهم مقبولاً ويُصلح ذات بينهم.

قال الله تعالى: ﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا،وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتاً﴾[1]. وقال رسول الله ﷺ: «إنّ الله تعالى يسأل العبد عن جاهه كما يسأله عن عُمْره فيقول له: جعلت لك جاهاً فهل نصرت به مظلوماً أو ظالماً أو

(١) سورة النساء، الآية: ٨٥.

اعنت به مكروهاً». وقال رسول الله ﷺ: «أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً». قالوا يا رسول الله: ننصره مظلوماً فكيف ننصره ظالماً؟ قال: «بأخذ الحق منه». وعنه ﷺ أنه قال: «فضل الصدقة أن تُعين بجاهك من لا جاه له».

* * *

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: «إذا جاءني طالب حاجة فاشفعوا له لكي تؤجروا، ويقضي الله تعالى على لسان نبيِّه ما شاء». وأخرج الطبراني في المكارم عن سَمَرةَ بن جَنْدب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أفضل الصدقة صدقة اللسان، قيل: يا رسول الله وما صدقة اللسان؟ قال: الشفاعة، تفك بها الأسير، وتحقن بها الدماء، وتجر بها المعروف إلى أخيك وتدفع عنه بها كريهة».

وقال عليّ رضي الله عنه: «الشفيع جناح الطالب».

ودخل رجلٌ على أحد الولاة فقال له: «إن الناس يتوسلون إليك بغيرك فينالون معروفك ويشكرون غيرك، وأنا أتوسل إليك بك ليكون شكري لك لا لغيرك».

* * *

وكان المنصور (الخليفة العباسي) معجباً بمحادثة محمد بن جعفر بن عبد الله بن عباس رضي الله عنهم وكان الناس لعظم قدره يفزعون إليه في الشفاعات فثقل ذلك على المنصور فحجبه مدة فلم يصبر لحبه الشديد لقضاء حوائج الناس، فطلب من الربيع (وزير المنصور) أن يكلمه في ذلك لكي يعفو عنه المنصور فعفا عنه بشرط أن لا يُثقل عليه في الشفاعات فقبل وذهب إلى الخليفة ليشكره فلما توجه إلى باب القصر اعترضه قوم من قريش معهم رِقاع[1] فسألوه إيصالها إلى المنصور فقص عليهم قصته، فأبوا إلا أن يأخذها فقال: أقذفوها في كُمي ثم دخل عليه وهو في قصر الخضراء المشرف على مدينة السلام وما حولها من البساتين فقال محمد: أما ترى حُسنها يا أبا عبد الله؟

(١) رقاع من الجلد يكتبون فيها حوائجهم.

فقال له المنصور: بارك الله لك فيها.

فقال: يا أمير المؤمنين بارك الله لك فيما آتاك، وهنأك بإتمام نعمته عليك فيما أعطاك، فما بنت العرب في دولة الإسلام ولا العجم في سالفِ الأيام أحصن ولا أحسن من مدينتك ولكن سَمجَتْها في عيني خصلة.

قال المنصور: وما هي؟

قال محمد: ليس لي فيها ضيعة

فتبسم المنصور وقال: قد حسنتها في عينك بثلاث ضياع أقطعتها لك.

فقال محمد: أنت والله يا أمير المؤمنين شريف الموارد، كريم المصادر فجعل الله باقي عمرك أكثر من ماضيه ثم أقام معه يومه ذلك، فلما نهض ليقوم بدت الرقاع من كُمه فجعل يردُّهُن ويقول: أرجعن خائبات خاسرات.

فضحك المنصور وقال: بحقي عليك إلا أخبرتني وأعلمتني بخبر هذه الرقاع، فأعلمه. فقال المنصور: ما أتيت يا ابن معلم الخير إلا كريماً وتمثَّل بقول عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب:

لسنا وإن أحسابنا كرمت   يوماً على الأحساب نتّكل
نبني كما كانت أوائلنا   تبني ونفعل مثل ما فعلوا

ثم تصفح الرقاع وقضى حوائجهم عن آخرها. فقال محمد: فخرجت من عنده وقد ربحت وأربحت.

* * *

وقال المبّرد أتاني رجل لأشفع له في حاجة فأنشدني لنفسه:

إني قصدتك لا أدلي بمعرفة   ولا بقرب ولكن قد فشت نِعَمُك
فبت حيران مكروباً يؤرقني   ذل الغريب ويغشيني الكرى كرمُك
ما زلت أنكب حتى زلزلت قدمي   فأعمل لتثبيتها لا زلزلت قدمك
فلو هممت بغير العُرف ما علقت   به يداك ولا انقادت له شِيَمُك

قال: فشفعت له وأنلته من الإحسان ما قدرت.

وكتب رجلٌ إلى يحيى بن خالد البرمكي رقعة فيها هذا البيت:

شفيعي إليك اللّه لا شيء غيره   وليس إلى رد الشفيع سبيل

فكان يعطيه كل يـوم عند الصبـاح ألف درهم فلما استـوفى ثلاثين ألفـاً ذهب الرجل.

فقال يحيى: والله لو أقـام إلى آخر عمـره ما قـطعتها عنـه. وما أجمـل التوسل بالنبيّ المصطفى صلوات ربي وسـلامه عليـه واللجوء إلى الله في كـل الأحوال نسأله العون وبيده سبحانه التوفيق والنجاح. والشاعر يقول:

وقد جئتكم بالمصطفى متشفعاً   وما خاب من بالمصطفى يتشفع
إلى باب مولانا رفعت ظلامتي   عسى الهم عني والمصائب تُرفع

وقال آخر:

تشفـع بـالنبي فكـل عبـد   يُجـار إذا تشفـع بـالنبي
ولا تجـزع إذا ضـاقت أمــور   فـكم لـلّه من لـطفٍ خـفـي

* * *

وروي أن جبـريـل عليـه السَّـلام قـال: «يـا محمـد (ص): لـو كـانت عبـادتنـا لله تعـالى على وجـه الأرض لعملنـا ثـلاث خصـال: سقي المـاء للمسلمين، وإعانة أصحـاب العيال، وستـر الذنـوب على المسلمين إذا أذنبوا، أللهمَّ استر ذنوبنا، واقض عنا تبعاتنا وصلى الله على سيـدنا محمـد وعلى آله وصحبه وسلّم.

واعلم أيها الأخ الكريم أنك إذا جعلت من هذه الوصايـا التي أسلفناهـا نبراساً لك في حياتك، ومعيناً لـك في كل أوقـاتك وتحليت بمـا ورد فيها من مكارم الأخلاق وكنت جديراً بهـا، علت همَّتك وصـرت من أصحاب الشـرف والسؤدد.

قال رسول الله ﷺ: «من رزقه الله مالاً فبـذل معروفـه وكف أذاه فذلـك السيد».

* * *

وقيـل لقيس بن عاصم بم سُـدت قومـك؟ قـال: لم أخـاصم أحـداً إلا تركت للصلح موضعاً.

وقال سعيد بن العاص: لا أعرف أني شاتمت رجلاً لأني لا أشاتم إلا أحد رجلين أما كريم فأنا أحق أن اتجلد له (يصبر عليه حتى لا يعلوه في الكرم)، وأما لئيم فأنا أولى أن أرفع نفسي عنه».

وقالوا: من صفات السيد: «أن يملأ العين جمالاً والسمع مقالاً».

وقدِمَ وفد من العرب على معاوية بن أبي سفيان وفيهم الأحنف بن قيس فقال الحاجب: إن أمير المؤمنين يعزم عليكم أن يتكلم منكم واحد نيابة عنكم ولا يتكلم لنفسه فلما وصلوا إليه قال الأحنف: «لولا عزم أمير المؤمنين لأخبرته أن رادفة ردفت، ونازلة نزلت، ونائبة نابت، والكل بهم حاجة إلى المعروف من أمير المؤمنين.

فقال له معاوية: حسبك يا أبا بحر فقد كفيت الشاهد والغائب.

وقال رجل للأحنف بن قيس: بم سُدت قومك وما أنت بأشرفهم بيتاً، ولا أصبحهم وجهاً؟.

فقال الأحنف: بخلاف ما فيك.

قال الرجل: وما ذاك؟

قال الأحنف: تركي من أمرك ما لا يعنيني كما عناك من أمري ما لا يعنيك.

* * *

وقيل: السيد يكون للأولياء (لمن يلي أمرهم) كالغيث النادي وعلى الأعداء كالليث الغادي.

وكان سبب ارتفاع عرابة الأوسي (من قبيلة الأوس بالمدينة المنورة)، وسؤدده أنه كان قادماً من سفر فجمعه الطريق بالشماخ بن ضرار المزني (شاعر من البادية) فتحادثا، فقال له عرابة: ما الذي أقدمك المدينة يا شماخ؟

قال: الفاقة.

فملأ له عرابة رواحله بُرّاً (شعيراً)، وتمراً واتحفه غير ذلك، فأنشد يقول:

رأيت عرابة الأوسيّ يسمو	إلى الخيرات منقطع القرين
إذا ما راية رُفعت بمجدٍ	تلقاها عُرابة باليمين

ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن الأحنف بن قيس وعرابة الأوسي كلاهما حاز شرفاً وسؤدداً، ولكل واحد منهما صفة تميّز بها وتفرّد بها دون الآخر وذاع صيته واشتهر بها بين قومه وبها عرفوه وسودوه. فأما الأحنف فقد ساد قومه بحلمه. ارتضاه القوم لأنفسهم سيداً ولم يكن له في الرياسة أصل ولا سابق عهد ولم يكن وجيهاً (حسن الصورة)، لأن القوم رأوا أن الأمور إذا آلت إليه أسلست له القياد، وصارت طوع بنانه، فما استعظموه من الحوادث كان عنده هيناً، وما استصعبوه من الأمور كان سهلاً، وكل ما استشكل لديهم وجدوا له حلاً، فهو بحلمه وسعة صدره وعفوه قد عالج كثيراً من الأمراض الاجتماعية المتفشّية عندهم مثل القطيعة والفِتن واشعال الحروب التي كانت كثيراً ما تنشأ بينهم لأتفه الأسباب، وغيرها كثير، وقدم الدواء الناجع لكل محتاج، فيخرج المتخاصمان من عنده وقد زال عنهما الخصام وعاد الودّ والوئام.

وهو بتركه المسيء وعدم رده عليه؛ وهو السيد المسود بينهم؛ فلربما فطن المسيءُ إلى إساءته فأصابه الندم فتاب وأقلع عما تخلق به من السوء فاصبح سوياً. والشاعر العربي يقول:

وإني لألقى المرء أعلم أنه عدوّي	وفي أحشائه الضغن كامن
فأمنحه بِشري فيرجع قلبه سليماً	وقد ماتت لديه الضغائن

* * *

فأصل رياسته وسؤدده إنما جاءت من طبع تأصل فيه وبه عُرِف ولم يكن حلمه حادثاً ولا متكلّفاً ولو كان كذلك لأنكروه، ووجد له منافسين ينازعونه.

وقيل إن الأحنف قدم في وفد البصرة الذي زار عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فرأى منه عقلاً وديناً وحُسن صيت، فتركه عنده سنة ثم أحضره؛ وقال: يا أحنف أتدري لم احتبستك عندي؟ قال: لا يا أمير المؤمنين. قال: إن رسول الله ﷺ حذرنا كل منافق عليم؛ فخشيت أن تكون منهم، ثم كتب معه كتاباً إلى الأمير على البصرة يقول له: «الأحنف سيد أهل البصرة». فما زال يعلو من يومئذٍ.

* * *

وأما عرابة الأوسي فقد ساد في قومه لكرمه الذي عُرف به بينهم، وإنما جاءت شهرة هؤلاء الكرام وسؤددهم أمثال عرابة الأوسي وحاتم الطائي الذي سبق ذكره لأن الكرم من أعلى درجات السلم القيمي للمجتمع عند العرب، هذه واحدة، والثانية أن الكرم عند هؤلاء الكرام لم يكن حادثاً ولا متكلفاً لأنه لو كان كذلك لأنكره القوم عليهم، ووجدوا لهم منافسين ينازعونهم شرف الفضل والسؤدد كما أسلفنا في الحلم، وإنما الكرم عندهم طبع أصيل وهو بلا شك من الأخلاق الفاضلة التي لا يقدر عليها إلا أصحاب الهمم العالية، وما من صفة تورث صاحبها عزاً باقياً، ومجداً خالداً، وذكراً خالداً إلا الكرم.

ولذلك استحق هؤلاء الكرام الرياسة والفضل والسؤدد عند قومهم، وحفظ التاريخ لهم ذلك الفضل فأورثهم ذكراً خالداً بما يرويه عن الكرم والكرماء جيلاً بعد جيل.

وأما علو الهمّة فهو أصل الرياسة

فممن علت همته وشرفت نفسه رجلٌ يدعى عمارة بن حمزة، قيل إنه دخل يوماً على المنصور (الخليفة العباسي) وقعد في مجلسه، فقام رجل وقال: مظلوم يا أمير المؤمنين.

فقال: من ظلمك؟

قال: عمارة بن حمزة غصبني ضيعتي.

فقال المنصور: يا عمارة قم فاقعد مع خصمك.

فقال: ما هو لي بخصم، إن كانت الضيعة له فلست أنازعه فيها، وإن كانت لي فقد وهبتها له، ولا أقوم من مقام شرفني به أمير المؤمنين ورفعني وأقعد في أدنى منه لأجل ضيعة.

* * *

وتحدث السّفاح (أبو جعفر المنصور الخليفة العباسي)، وأم سلمة[1] يوماً في نزاهة نفس عمارة فأشارت عليه أن يوجه له دعوة بالحضور لكي تهب له مسبحة لديها وكان ثمنها خمسين ألف دينار فإن هو قَبلها كان غير نزيه

---

(1) زوجة المنصور.

النفس، فوجه إليه الدعوة وحضر محادثته ساعة ثم رمت إليه بالمسبحة وقالت: هي من التحف وهي لك. فجعلها عمارة بين يديه ثم قام وتركها، فقالت: لعله نسيها، فبعثت بها إليه مع خادم فقال للخادم: هي لك، فرجع الخادم وقال: قد وهبها لي. فأعطت أم سَلَمة للخادم ألف دينار واستعادتها منه.

وأهدى عبيد الله بن السري إلى عبد الله بن طاهر لما ولي مصر مائة وصيف مع كل وصيف ألف دينار ووجه إليه بذلك ليلاً فرده وكتب إليه: «لو قبلت هديتك ليلاً لقبلتها نهاراً، وما آتاني الله خير مما اتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون».

وكان سبب فتح المعتصم بالله مدينة عمورية أن امرأة من الثغر سُبيت فنادت وامحمداه، وامعتصماه، فبلغه الخبر، فركب لوقته وتبعه الجيش وضرب بكلام المنجِّمين عرض الحائط، فلما فتحها وتم له النصرقال: «لبّيْكِ أيتها المنادية».

ومن كبرت نفسه رجلاً يدعى قيس بن زهير روى أنه أصابته الفاقه واحتاج فكان يأكل الحنظل حتى قتله ولم يُخبر أحداً بحاجته.

* * *

ومن شرف الرياسة حفظ الجوار وحِمى الديار وكانت العرب ترى ذلك حقاً واجباً تحافظ عليه؛ وكان أبو سفيان بن حرب إذا نزل به جار قال: يا هذا إنك اخترتني جاراً، فداري دارك، وجناية يدك عليّ دونك عليك، وإن جنت عليك يد فاحتكم كحكم الصبي على أهله.

وكان الفرزدق (الشاعر) يجير من عاذ بقبر أبيه غالب بن صعصعة، فممن استجار بقبر أبيه امرأة من بني جعفر بن كلام، فقال الفرزدق:

عجوز تصلِّي الخمس عاذت بغالِب فلا والذي عاذت به لا أضيرها

* * *

وقيل إن الحجاج أخذ يزيد بن المهلب بن أبي صفرة واستأثر بوجوده وسجنه وعذبه، فتوصل يزيد بحُسن تلطفه إلى السجّان واستماله وهرب هو

والسجّان وقصد الشام إلى سليمان بن عبد الملك بن مروان وكـان الخليفة في ذلك الوقت الوليد بن عبد الملك فلما وصل يزيـد بن المهلب إلى سليمان بن عبد الملك أكرمه وأحسن إليه وأقامه عنده، فكتب الحجاج إلى الـوليد يعلمـه أن يزيد هرب من السجن وأنه عند سليمان بن عبـد الملك أخي أمير المؤمنين وولي عهد المسلمين وأن أمير المؤمنين أعلى رأياً.

فكتب الوليد إلى أخيـه سليمان يقـول: يا أميـر المؤمنين إني ما أجـرت يزيد بن المهلب إلا لأنه هو وأبوه وإخوته من صنائعنا قديماً وحديثـاً، ولم أجر عدواً لأمير المؤمنين، وإن الحجاج عذبـه وأغرمـه أربعة الآف درهم ظلمـاً ثم طالبه بعدها بثلاثة الآف درهم، فلما صار إلي واستجـار بي أجرتـه وأنا أغـرم عنه هذه الثلاثة الآف درهم، فإن رأى أمير المؤمنين أن لا يخـزيني في ضيفي فليفعل، فإنه أهل الفضل والكرم.

فكتب إليه الوليد أنه لا بد أن ترسل إلي يزيـد مغلولاً مقيداً، فلمـا ورد ذلك على سليمان أحضر ولده أيوب فقيده، ودعـا بيزيـد بن المهلب فقيده ثم شدّ قيدهما معاً بسلسلة وغلّهما بغليّن وأرسلهما إلى أخيه الوليد وكتب إليه:

«أما بعد، يا أمير المؤمنين فقـد وجهت إليك يـزيد وابن أخيـك أيوب، ولقـد هممتُ أن أكون ثـالثهما يـا أمير المؤمنين، فـإن أردت قتل يـزيد فبـالله عليـك ابدأ بـأيوب ولـدي أولاً ثم اجعل يـزيد ثـانيـاً واجعلني إذا شئت ثـالثـاً والسلام.

فلما دخل يزيد بن المهلب وأيوب بن سليمان في سلسلة واحدة، أطرق الوليد استحياء وقال: «لقد أسأنا إلى أبي أيوب إذ بلغنا به هذا المبلغ». فأراد يزيد أن يتكلم ليحتج عن نفسه فقـال له الـوليد: لا حـاجة إلى الكـلام، فقد قبلنا عذرك وعلمنـا ظلم الحجاج، ثم أحضـر حداداً وفـك قيودهمـا، وأحسن إليهما، فوصل أيوب ابن أخيـه بثلاثين ألف درهم، ووصـل يزيـد بن المهلب بعشـرين ألف درهم وكتب كتابـاً إلى الحجاج يقـول له: «لا سبيـل لـك على يـزيـد بن المهلب وإيّـاك أن تعـاودني فيــه بعـد اليــوم». وذهب يـزيــد إلى سليمان بن عبد الملك ثانيةً وأقام عنده في أعلى المراتب وأرفع المنازل.

* * *

وقصة الرجل الشيعي مع معن بن زائدة (كان سيداً في قومه)، وكان الرجل متهماً بالسعي في فساد الدولة، فجعل المهدي (الخليفة العباسي)، مكافأة كبيرة لمن يدل عليه (مائة ألف درهم)، فقام إليه رجل من بغداد مع بعض غلمانه وأخذوه إلى المهدي وبينما هم في طريقهم مروا على معن بن زائدة فاستجار به الرجل وقال: أجرني يا أبا الوليد أجارك الله فقال لهم معن: ما لكم وما له.

قالوا: إن أمير المؤمنين يطلبه.

قال معن: خلّوا سبيله.

قالوا: لا نفعل، فأمر معن غلمانه فأخذوه غصباً، وأردفه بعضهم خلفه، ومضى الرجل إلى أمير المؤمنين المهدي وأخبره بالقصة. فأرسل في طلب معن فأحضره فلما دخل عليه قال له: يا معن أتجير علي؟

قال: نعم يا أمير المؤمنين، قتلت في يوم واحد في طاعتكم خمسة الآف رجل هذا مع أيام كثيرة قدَّمتُ فيها طاعتي لكم، أفما تروني أهلاً أن تجيروا رجلاً واحداً استجار بي.

فاستحيا المهدي وأطرق طويلاً ثم رفع رأسه وقال: قد أجرنا من أجرت يا أبا الوليد.

قال: إن رأى أمير المؤمنين أن يصل من استجار بي فيكون قد أجاره وحباه.

قال: قد أمرت له بخمسين ألف درهم.

فقال معن: يا أمير المؤمنين ينبغي أن تكون صلات الخلفاء على قدر جنايات الرعية، وإن ذنب الرجل عظيم، فإن رأى أمير المؤمنين أن يجذل صلته فليفعل.

قال: قد أمرت له بمائة ألف درهم.

فرجع معن إلى منزله ودعا بالرجل ودفع له المال ووعظه وقال له: «لا تتعرض لمساخط الخلفاء».

* * *

وكان جعفر بن أبي طالب يقول لأبيه: «يا أبت إني لأستحي أن أُطعم طعاماً وجيراني لا يقدرون على مثله».

فكان أبوه يقول له: «إني لأرجو أن يكون فيك خلقٌ لعبد المطلب».

وقد صدقت نبوءة أبي طالب في ابنه جعفر ورزقه الله الشهادة وأبدل يديه بجناحين يطير بهما في الجنة فسُمي جعفر الطيار فارتفع إلى درجة الملائكة الأبرار، وكان ابنه عبدالله بن جعفر رضي الله عنهما خير خلف لخير سلف، وكان من أجود الأجواد وأسخى الأسخياء وكان ينفق كل ما تصل إليه يده وكان رضي الله عنه يقول: «أخشى أن امنع العادة فيقصع عنا المادة»، وكان لا يُرى إلا وعليه دين رضي الله تعالى عنه.

«نسألك اللهمَّ علوّ الهمة ونزاهة النفس والضمير، إنك على ما تشاء قدير وبالإجابة جدير وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم».

* * *

والآن ربما أصبح ميسوراً لك، بعد هذه الطائفة من المعاني والقيم النبيلة - ذات الأصالة - أن تختار أصدقاءك على هُداها وتسير على نهجها قدر المستطاع. قال الحسن رضي الله عنه: «الصديق من استروحت إليه النفس واطمأن إليه القلب، وكان محمد بن واسع وأصحابه يدخلون منزل الحسن فيأكلون ما يجدون بغير إذن، فكان الحسن يدخل فيرى ذلك فيسرّ به ويقول هكذا كنا.

وذهب قوم إلى منزل سفيان الثوري فلم يجدوه، ففتحوا الباب وأنزلوا السفرة، وجعلوا يأكلون... فدخل الثوري وقال ذكرتموني أخلاق السلف هكذا كانوا...!

وربما يكون من تغيّر العادات ما يجعل هذا التصدق غير لائق الآن وإنما يبقى الجود والكرم.

«أسأل الله أن يوفقك إلى اختيار أصدقائك ويبعدك عن رفقاء السوء والله المستعان».

الفصـــل التـــاســع

ولدي الحبيب

كيف تعيش حياتك؟

«الحياة العصرية الحديثة»

(ب)

بعض تجاربي

أهم ما جربت في حياتي أني رأيت قول الحق والتزامه، وتحري العدل وعمله، يُكسب الإنسان من المزايا ما لا يقدّر:

- واستفدت منه راحة الضمير، وثقة الناس بما أقول وما أعمل واستفدت منه حُسن ظنهم بما يصدر عني ولو لم يفهموا سببه، لقد وجدت أناساً كانوا يرضون رؤساءهم أكثر مما يرضون ضمائرهم، ويقولون ما يعجب الناس لا ما يعتقدون أنه الصدق، ويرتكبون الظلم طلباً للجاه أو العلو في المنصب ومع هذا فقد ربحوا قليلاً وخسروا كثيراً...

لقد خسروا الفضيلة، وخسروا الضمير، وفازوا بقليل من الحظ العاجل تبعه كثير من الفشل الآجل...

نعم رأيت من زملائي من تمسّكوا بهذه الفضيلة فخسروا وفشلوا!!

ولكن لم يكن عيبهم أنهم التزموا الحق والصدق والعدل بل عيبهم أنهم التزموا هذه الصفات في سماجة وقالوا الحق في غير أدب، والتزموا الصدق من غير لباقة، وتحرّوا العدل في غير لياقة، فلم يكن الذنب ذنب الحق، ولكن الذنب ذنب السماجة.

نتعلم من هذا... أن نقول الحق في أدب ونتحرى العدل والصدق في لباقة ولياقة، فمن غضب بعد ذلك كان الذنب ذنبه ولا ذنب عليك، ولا تتعجلن النتيجة، فقد تمس من الحق ناراً، ويهطل عليك من العدل لفحة

جحيم، ولكن ذلك أشبه ما يكون بالامتحان. إن صبرت له انقلبت النار جنة، واللفحة الحارة نسيماً عليلاً.

* * *

ومن أهم تجاربي أيضاً أني رأيت كثيراً من الناس يخطئون فيظنون أن المال هو كل شيء في الحياة. يبيعون أنفسهم للمال ويحاولون أن يتزوجوا للمال ويضيِّعون أعمارهم للمال، ويفرطون في الفضيلة للمال. وقد دلَّتني التجارب على أنّ أسعد الناس من وضع المال في موضعه اللائق به، فلم يرفضه رفضاً باتاً، ولم يذل له ذلاً تاماً، ونظر إلى المال على أنه وسيلة من وسائل السعادة لا كل السعادة، ولم يطلبه إلا مع الشرف والعزة والإباء، فإن تعارض معها ضحى المال للفضيلة والغنى والضمير.

* * *

ودلتني التجارب على أن عنصر الدين في الحياة من أهم أسباب السعادة في الحياة... ويعجبني من الدين أن يكون سمحاً لا غلظة فيه، وإلا يكون ضيِّق الأفق فيناهض العلم، بل يؤمن صاحبه أن له مجاله وللعلم مجاله، وأن الدين الصحيح لا يناقض العلم الصحيح، وأنه لا بد منهما جميعاً للإنسانية، والعلم لحياة العقل، والدين لحياة القلب.

* * *

نظم ذوقك

أي بني:

هـا نحن في أواخر مـارس، موسم الـربيـع، مـوسم الجمـال، ومـوسم البهجة، يقول البحتري:

أتاك الربيع الطلق يختال ضاحكاً   من الحُسن حتى كـاد أن يتكلمـا

وكما قال أبو تمام:

دنـيــا معــاش لـلورى حتـى إذا   جـاء الـربيـع فـإنمــا هي منـظر

ولشـد ما آسف إذ أرى مـدارسكم وجامعـاتكم تعنى بالعقـل فتضع لـه المنـاهـج الـطويلة العـريضـة في مختلف العلوم، وتعنى بـالجسم فتنـظم لـه الألعاب الرياضية المختلفة، ثم لا تقيم وزناً ولا تضع منهجاً للذوق وتـربيته، وهو الأحق بالعناية، والأجدر بالرعاية. فإن قصـرت مدارسـك وجامعـاتك في ذلك فتول أنت تربية ذوقـك بنفسك، ووجـه إليه كـل همك، فمـا الحياة بـلا ذوق؟، ومـا الـدنيـا بـلا جمـال؟ وجـزى الله خيـراً من وجهني إلى الجمـال، فأعجبت بالورد وجماله، وبديع ألوانه، وبالـزهور على اختـلاف أنواعهـا، في تناسُقها وانسجامها، فكان هذا متعة لنفسي وحياة لروحي بجانب متعة عقلي.

* * *

أي بني!

إن أهميـة الذوق في تـرقية الأفـراد والجماعـات أهم من عمـل العقل، فالفرق بين إنسان وضيع وإنسان رفيع، ليس فـرقاً في العقـل وحده، بـل أكثر

من ذلك فرق في الذوق، ولئن كان العقل أسس المدن ووضع تصميمها، فالذوق جمّلها وزينّها، إن شئت أن تعرف قيمة الذوق في الفرد، فجرّده من الطرب بالموسيقى والغناء، وجرّده من الاستمتاع بمناظر الطبيعة وجمال الأزهار، وجرّده من أن يهتز للشعر الجميل، والأدب الرفيع، والصورة الرائعة، وجرّده من الحب في جميع أشكاله ومناحيه، ثم انظر بعد ذلك ماذا عسى أن يكون؟ وماذا عسى أن تكون حياته؟

وإن شئت أن تعرف قيمة الذوق في الأمة، فجرّدها من دور فنونها، وجرّدها من حدائقها وبساتينها، وجرّدها من مساجدها الجميلة والجليلة، وكنائسها الفخمة، وعمائرها الضخمة، وجرّدها من نظافة شوارعها، وتنظيم متاحفها، ثم انظر بعد ذلك في قيمتها، وفيما يميزها من غيرها من الأمم المتوحشة والأمم البدائية.

* * *

أي بني!

إن للذوق مراحل كمراحل الطريق، ودرجات كدرجات السلم. فهو يبدأ بإدراك الجمال الحسّي: من صورة جميلة، ووجه جميل، وزهرة جميلة، وبستان جميل، ومنظر طبيعي جميل. ثم إذا أحسنت تربيته ارتقى إلى جميل المعاني؛ فهو يكره القُبح في الضعة والذلّة، ويعشق الجمال في الكرامة والعزة، ينفر من يظلم أو يُظلم، ويحب أن يعدل ويُعدل معه، ثم إذا هو ارتقى في الذوق كره القبح في أمته وأحب الجمال فيها، فهو ينفر من قبح البؤس والفقر والظلم فيها، وينشد جمال الرخاء والعدل في معاملتها، فيصعد به ذوقه إلى مستوى المصلحين. فالإصلاح المؤسس على العقل وحده لا يُجدي، وإنما يُجدي الإصلاح المؤسس على العقل والذوق جميعاً. ثم لا يزال الذوق يرقى إلى أن يبلغ درجة عبادة الجمال المطلق والفناء فيه...

فعلى هذا الأساس نظِّم ذوقك: استشعر الجمال في مأكلك وملبسك ومسكنك، وصادق الزهور وتعشقها، ثم أنشد الجمال في مجال الطبيعة وانسج بين قلبك ومناظر البساتين والحدائق والسماء ونجومها والشمس ومطلعها ومغيبها، والبحار وأمواجها، والجبال وجلالها، خيوطاً حريرية دقيقة

تتمـوج بموجـاتها، وتهتـز بهزاتهـا، ثم انـظر إلى الأخـلاق على أن فضـائلهـا جمـال، ورذائلهـا قُبـح، لا على أن فضـائلهـا منفعـة ورذائلهـا متلفـة ثم غنِ للجمال واهتف به حيث كان، واعبده وافن فيـه وأنا واثق أنـك ستسعد بـذلك سعادة لا يتذوقها ذوو الشهوات ولا أصحاب رؤوس الأموال، بل ولا الفلاسفة والعلماء.

* * *

أي بني!

إنـك محتاج إلى مجهـود جبار وإرادة قـوية لتـربيـة ذوقـك، وإرهـاص شعورك بالجمال، فكل ما حولك مفسد للذوق متلف للمشاعر السامية: بيوت لم يُعن فيها بالجمال، وشوارع لم يُعن فيها بنظافة ولا نظام، وأتوبيس تكدّس فيه الناس أسوأ مما تكـدست علب السردين، وهـرجلة وفوضى وضـوضاء في دور المحاضرات والسينما والتمثيل، ومهاترة غير نبيلة بين الجرائـد الحزبيـة، وارتباك واضطراب وسوء معامـلات في المكاتب الحكـومية وغيـر الحكوميـة، ورؤيـة البؤس والمرض والفقـر والجهل والقـذارة على الأرصفـة في المـدن، وبين الفـلاحين في القـرى، وبين العمّـال في المصـانـع، والفـاظ نـابيـة في أحـاديث المتحدثين، وفي النكت بين المتنـدرين، ومئات ومئـات غير ذلـك، وكلها كفيلة أن تفسد الـذوق وتقضي عليه، فتـربيتك لـذوقك واحتفـاظك بـه سامياً لا يتأثر بهذه المفاسد، أمر عسير لا يُنال إلا ببذل الجهد وقوة العزم.

* * *

أي بني!

إن الذوق إذا شاع في مكان، شاعت فيه السكينة والـطمأنينـة، ونعومـة المعاملة، وجمال السلوك. وإن انعدم أو قلَّ في مكان خشنت المعاملة وسـاء السلوك، وكثر هياج الأعصاب واضطرابها وارتباكها.

* * *

أي بني!

لقـد جربت النـاس فـوجـدتهم يخضعـون للذوق أكثـر ممـا يخضعـون للمنـطق، فبـالـذوق لا بـالعقـل تستـطيـع أن تستميلهم، وأن تـأسـرهم، وأن

تـوجههم وأن تصلحهم إن شئت، أما العقـل وحده فـلا يستطيـع أن يأسـر إلا الفلاسفة وقليل ماهم.

* * *

أي بني!

ليس عندي نصيحة لك أغلى من أن تكوِّن ذوقك ثم تنمِّيه وترقِّيه. فـإن فعلت ذلـك ضمنت لك سعـادة الحياة والاستمتـاع بهـا، وضمنت لـك سمّـو أخـلاقـك ونُبـل عـواطفـك، وضمنت لـك نجـاحـك على قــدر كفـايتــك، والله يوفقك.

* * *

التيارات السياسية

أي بني!

أشد ما يقلقني عليك في هذه الأيام وجودك وسط تيارات تتنازعك، وأمواج تتقاذفك، وأخشى أن تتغلب عليك فتغرقك، وأن تنال منك فتميتك، فكم رأيت لها من ضحايا أزعجتني، ومن مشاهد غرقى أفزعتني، وإني أرجو لك من صميم قلبي السلامة من هذه التيارات، والنجاة من هذه الأمواج فأول هذه التيارات؛ التيارات السياسية الحزبية، وأخطر هذه التيارات على الإطلاق؛ هو خطر التطرّف وقّاك الله شرَّه، والتي يتزعمهابعض المتهوسين؛ وأكثرهم من الفاشلين في حياتهم العلمية والعملية؛ ممن يتاجرون بالدين ويتخذون منه شعاراً للوصول إلى أغراضهم الخبيثة، من إثارة الشغَب لعرقلة سير الحكم، ودفع البلبلة بين صفوف الطلاب، والقيام بمظاهرات بغيضة، يستخدمون فيها ألفاظاً متدنية، مفسدة للذوق العام، وتعبِّر عن انحطاط في التربية، ولا تصدر إلا عن نفوس موتورة ملأها الغِلُّ؛ وأكل صدورها الحقد؛ والدين منهم براء.

هؤلاء المتهوِّسون يا بني: هم خوارج[1] هذا الزمان، وقد وصف لنا الإمام عليّ كرم الله وجهه؛ في كلمات مضيئه؛ موقفهم من الدين، حيث

---

(١) قال رسول الله ﷺ: «الخوارج كلاب النار». قال المناوي: الخوارج الذين يزعمون أن كل من أتى بكبيرة فهو كافر فخلد في النار أبداً (كلاب) ـ أي أهل، رواه الضياء المقدسي في المختارة، ورمز له بالصحة، عن أبي أمامة رضي الله عنه.

قـال: «كلمة الحق أُريـد بها بـاطل» وذلـك حين طالبـه إخوانهم من الخـوارج بالرجـوع إلى كتات الله!! ولا يخفى عليـك يا بني خـطر هؤلاء الخوارج على الأمة وعلى بَنِيها من أمثالك أنت وزملائك. إن هؤلاء الخوارج كانوا سبب فتنة كُبرى في الأمة الإسلامية أودت بحياة الكثيرين. أسأل الله أن يحفظنـا ويحفظ الأمة من شرهم، ويقي البلاد من أخطارهم.

أمـا إذا استعصى عليك فهم أمـر من أمور دينـك فعليـك بـالعلمـاء من شيوخنا الأجلاء قال تعالى: ﴿**فسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون**﴾[1].

* *

ولقـد أحزنني؛ هـذا العـام؛ أني رأيت الـطلبـة في الجـامعـة يقـومـون بمـظاهـرات لأتفـه الأسبـاب وأضعف الغـايـات يقـودهم بعض الفـاشلين من الطلاب، وقد انضم إليهم بعض السُذّج من الطلاب بغيـة مشاركتهم، ويـزداد الطين بلّة إذا كان من بين صفوفهم بعض المتهوِّسين.

وهكذا، يهدم بعضهم بعضـاً من غير كسب واضـح للأمـة، ولا تحقيق مصلحة عامة، هذا النوع من المظاهـرات يفسد الحيـاة العلمية من أسـاسها؛ فـلا ينتظم الـطالب في دراسته في الجـامعـات والمعـاهـد العليـا، فمـا معنى هذا؟. أليس معناه أن الطلبة إمـا أن يرسبـوا في الامتحان، فنكـون قد أضعنـا على كـل طالب رسب سنـة من حياتـه، وأضعنا على الأمـة عـدداً من السنين يسـاوي عدد الـراسبين... وإما أن ينجحـوا بسبب التساهـل في الامتحـان، فنكون قد منحنا الشهادات للعاجزين وأخرجنا لـلأمة طبيبـاً عاجـزاً، ومهندسـاً غير ناضج، وزراعياً غير مستأهـل... وفي هذا أكبـر الضرر على الأمـة. ولو نحن تحمّلنا هذه التضحية لتحقيق فائدة للأمة أكبر منها لهان الأمر، مثلما كان يحدث في الماضي، عندما قام الطلبة بأدوار رائعـة أفادت البـلاد وقرّبتهـا من الإستقلال، كمظاهـراتهم يوم اعتقـل سعد بـاشا، ونفي إلى جـزيرة سيشـل، ومظاهراتهم ضـد المستعمر وطـرد المحتل الغـاصب؛ ونحو ذلـك. وهي كما ترى أهداف قومية نبيلة.

---

(1) سورة الأنبياء، الآية: ٧.

أما أن نبذل المظاهرات لأتفه الأسباب وأضعف الغايات فهذا خطأ منك آسف له إن صدر عنك كابن لي، وكفرد في أمة.

* * *

أي بني!

إن أردت أن تعرف وجه الحق في هذا الأمر، فاستعرض ما كسبت الأمة من حركات الطلبة وما خسرته. لقد كسبت من حركاتهم يوم كانت موجهة إلى عدوهم الخارجي ويوم كانت حركة منظمة صادرة عن رأي الزعماء، وكانت لا تظهر إلا حين يجدّ الجد ويعزم الأمر. فإذا هم فرغوا من مهمتهم رجعوا إلى دراستهم في جدّ ونظام. وخسرت من حركاتهم يوم كان الطلبة يتظاهرون لا إحراجاً للعدو، ولكن ليضرب بعضهم بعضاً. وخسرت الأمة يوم كان الطلبة يتظاهرون لأتفه سبب وأضعف غاية.

في الحالة الأولى ربحت الأُمة واحتفظت الجامعات بكيانها وقوتها وأداء رسالتها، وفي الحالة الثانية خسرت الأمة وتفككت الجامعات وانحل رباطها وتدهور العلم فيها.

فإيّاك يا بني! أن تنساق وراء هذه المهاترات ولتكن حياتك العلمية أساساً لتحقيق هدفك، ووصولاً إلى غايتك، لتصبح فرداً نافعاً في أُمتك والله يحفظك.

* * *

أي بني!

أما السياسية الحزبية فإني أرتضيها لك رأياً ولا أرتضيها لك عملاً، فاعتنق آراء الحزب السياسي الذي تؤمن به ويدلك الدرس على صحتها.

ولا ينبغي أن يكون اختيارك للحزب مبنياً على أساس الأشخاص، فنظرة كنظرة الطفولة تعرف الأشخاص ولا تعرف المعاني، تعرف الأبيض ولا تعرف البياض، وتعرف الأب ولا تعرف الأبوة. أما الرجل الناضج فيقوِّم المعاني والمبادىء. وهذا ما يحدث في الأمم الراقية. وما لم يحدث في الأمم الشرقية جميعاً.

* * *

أي بني!

إنك وأمثالك تفهم السياسة على أنها فكرة عارضة ورأي عابر، وأنها من السهولة بحيث يمكنك الحكم على مسائلها بمجرد النظر إليها، والتفكير السطحي فيها، وهذا خطأ أي خطأ.

* * *

إن السياسة علم كسائر العلوم، كعلم الطب والهندسة والطبيعة والكيمياء، . فهل تبيح لمن لم يدرس الطب أن يكون طبيباً؟، ولمن لم يدرس الهندسة أن يكون مهندساً؟ فلماذا تستبيح لنفسك أن تكون سياسياً ولم تدرس علم السياسة؟ ولماذا ترضى أن تحكم على الأشياء حكماً سياسياً من غير درس؟ . . . بل أؤكد لك أن السياسة علم أصعب من هذه العلوم التي ذكرتها، تحتاج إلى دراسة تاريخ وجغرافيا واجتماع كمقدمات لها، ثم تحتاج إلى دراسة النظريات السياسية واختلاف الآراء فيها والتطبيق عليها، ومتى طُبِّقت بنجاح؟، ومتى طُبِّقت بفشل؟، وأسباب النجاح وأسباب الفشل. وكثيراً ما يُعرض الأمر السياسي، فيبدي فيه عامة الناس آراءهم، ثم يكون هذا الرأي خطأ فاحشاً وضرراً بليغاً، لأنهم لم يدرسوا الأمر درساً دقيقاً عميقاً في أسبابه ونتائجه. لهذا كله أبيح لك أن تشتغل بالسياسة على سبيل التجربة والمران، لا على سبيل الإشتراك الفعلي. فالبتّ في أمور السياسة من عمل الساسة الذين انقطعوا لها ودرسوها درساً وافياً، وبنوا أراءهم على دراستهم، فإذا رأوا أن يستعينوا بكم فلتستجيبوا. أما أن تتزعموا الحركات من غير قيادة. . . فطبيب يداوي من غير علم. . . ومهندس يبني من غير خبرة، وجندي يتزعم الجيش حتى الضباط والرؤساء. وهذا قَلب للوضع وإفساد للنظام.

* * *

أي بني!

كنت أود أن أُحدثك عن تيارات أخرى ليست بأقل خطراً مما حدثتك، ولكن طالت رسالتي وخشيت عليك الملل. فإلى اللقاء، والله يحفظك.

* * *

أثر الحروب

أي بني!

إني لأشفق عليك من زمنك الذي نشأت فيه، فقد كان زمن مَن قبلك هادئاً مستقراً، تجري شؤونه على وتيرة واحدة... وأملنا في المستقبل أن يكون زمناً هادئاً مستقراً كذلك.

أما زمنك هذا فقلق مضطرب حائر، كفر بالقديم؛ ثم لم يجد جديداً يؤمن به.

وإن أسوأ ما كان في زمنك حدوث الحروب... والحروب عادة تزلزل الأخلاق وتغذي النفوس الضعيفة بالشره والجشع، وتقدم لنا أمثلة كثيرة ممن اغتنوا بعد فقر لأسباب خسيسة أو أعمال وضيعة، ثم تضغط على صغار الموظفين والصناع والتجار فيرون أنهم لا يستطيعون العيش الكافي في مجال رزقهم المحدود، فإذا هم لم يتحصنوا بالخُلُق المتين مدّوا أيديهم وخربوا ذممهم. وكذلك كانت الحرب في أكثر الأمم مبعثاً لفساد الخُلُق وخراب الذمم، وهي في الأمم الضعيفة أشد فتكاً وأسوأ أثراً. وواجب المصلحين بعد الحرب أن ينشلوا الأمة من وهدتها وينقذوها من ورطتها ولذلك تحتاج أنت وأمثالك في مثل هذا الموقف إلى مجهود كبير يعلي مستواكم ويرفع مثلكم.

والأمل فيكم أكبر أمل، لأنكم رجال المستقبل وقادة الغد، فلا يستهوينكم من أثرى حولكم بالخداع والنفاق والكذب والرياء... وخير أن تعيشوا فقراء أعزاء من أن تعيشوا أغنياء أذلاء. إننا في هذا الزمان أحوج ما

نكون إلى منارات تضيء للسائرين في لجج الظلام، يكون شعارهم القيام بالواجب مهما كلفهم لأنه واجب.. لا طلباً للصيت ولا جرياً وراء المجد.. لا يعرفون المجاملة ولا النفاق، ولا يستهويهم وعد ولا يرهبهم وعيد، لسانهم مطابق لقلبهم، وعملهم متفق مع وحي ضميرهم... فكن إحدى هذه المنارات.

إن الاحتفاظ بالخلق الطيب في زمنك أصعب منه في زمننا لكثرة ما يحيط بك من مغريات بالشر، وأسباب اللهو ميسورة في زمنك وقد كانت صعبة في زمننا... وأفانين الخلاعة مغرية جذابة بفضل ما أدخلته المدنية الحديثة من أساليب فتانة. وقد كان الدين في زمننا حرزاً منيعاً من التدهور والسقوط، فلما ضعف شأن الدين في زمنكم ولم يحل محله ما يحفظ عليكم نفوسكم وقعتم بين شرين: قوة المغريات وضعف الحصون المانعات. ولا منجاة من هذا إلا بتقوية الإرادة وتدريبها على فعل الخير، ومقاومة بواعث الشر، ومكافحة الشهوات ومحاربة الأنانية.

* * *

أي بني!

بهذه المناسبة، أذكر لك أني شاهدت في حياتي كثيراً من الشبان كانوا صرعى الشهوات. كانوا في حياتهم الجامعية لامعي الذكاء، يدل جهدهم وسلوكهم على أن سيكون لهم مستقبل رائع. كانوا مثال الجد والنشاط والذكاء في دراستهم، ثم رأيتهم فجأة انحرفوا عن الطريق السوي وانغمسوا في شهواتهم، فخاب فيهم كل أمل، فقدوا ذكاءهم اللامع، ونشاطهم السبَّاق، وجدّهم الباهر.

وهؤلاء الصرعى كانوا أشكالاً وألواناً، فمنهم وقد يكون أسوأهم صرعى «الكيوف» وهو داء مع الأسف فشا في كثير من الشبان، فأضاعوا مستقبلهم، وفقدوا إرادتهم، وانحطت نفسيتهم، وأضحوا لا يرجى منهم خير. وكان أسوأ مثل لهذا وأدعاه للحزن والأسف ما رأيت من شاب كان من أوائل الناجحين في الثانوية العامة ثم التحق بكلية من الكليات العملية فكان من أوائل الناجحين في سنتيه الأولى والثانية، وكان ذا حظوة عند اساتذته وسمعة طيبة

في علمه وخلقه عند زملائه، وفي آخر عامه الثالث من الكلية سقط في الامتحان ثم لم ينفع بعد. وبحث عن أمره فإذا هو صريع «كيف» من «الكيوف» وبلغ به الأمر أن صار يتسكع في الشوارع، ثم صار يستجدي الناس، فأعيذك بالله أن تكون صريع «كيف».

وهناك صرعى حب المال والجاه والمجد... تخرجوا من جامعاتهم والتحقوا بالوظائف الحكومية أو الأهلية، ثم لم يقنعوا بمرتبهم الصغير ولا بطريقهم إلى الرقيّ البطيء؛ ورأوا زملاءهم اغتنوا عن طريق بيع ذممهم ، أو ارتقوا عن طريق تزلفهم وتملقهم، أو اشتهروا عن طريق النصب والاحتيال... فقلدوهم في ضلالهم وخسروا خسرانهم... وأعيذك بالله أيضاً أن تكون أحدهم.

* * *

إن طريقة هؤلاء في الحياة طريقة المقامرين، ولا أُريدك مقامراً، ولكني أُريدك تاجراً... ولا أُريدك مستهتراً، ولكن أُريدك عفيفاً معتدلاً.

لا يغرّنك مظهر الذين انغمسوا في شهواتهم واندفعوا وراء لذّاتهم، وما يخدعونك به من سرورهم وابتهاجهم وضحكهم... فحسبة بسيطة للذّات هؤلاء وآلامهم، تريك أن الاعتدال في اللذائذ كنار القش تلتهب سريعاً وتنطفىء سريعاً، والاعتدال في اللذائذ كنار الفحم تطول مدتها ويطول الانتفاع بها ولا تخمد إلا ببطء. أحسب حساب من اعتدل في لذائذه، كيف احتفظ بصحته واحتفظ بماله واحتفظ بسمعته، والتذّ في حياته لذة طويلة هادئة ممتعة لم يعقبها ألم...

واحسب حساب من افرط في لذاته، ففقد صحته وماله وسمعته، وكانت آلامه الطويلة أضعاف لذائذه القصيرة... حتى في حساب اللذة والألم نرى الاعتدال خيراً من الإفراط. فما بالك إذا قسنا ذلك بمقياس الخلق والفضيلة والنبل والمروءة؟

كذلك لا يغرّنك من علا صيتهم عن طريق التهريج، ولا من تخطوا زملاءهم عن طريق التزلف، ولا من كسبوا المال عن طريق مدّ اليد... فكل

هذه المظاهر الكاذبة، لو وزنت بحياة الضمير وعلوّ النفس وطمأنينة الاستقامة لم تساو شيئاً.

وليكن مبدأك الشعور بالواجب، والاعتدال في اللذائذ، وطهارة النفس، والحرص على السرف، والسعي وراء النبل والمروءة... ولتكن النتيجة بعد ما تكون... ومع ذلك فإني ضامن لك النجاح.

* * *

حيرة الشباب

أي بني!

لقد كان المظنون أن تكونوا أسعد حالاً وأهدأ بالاً وأكثر اغتباطاً بالحياة، فإن المدنية الحديثة قدمت إلى جيلكم من متع الحياة وترف العيش ووسائل الترفيه عن النفس أضعاف أضعاف ما كنا نجده في جيلنا... فلم يكن عندنا من وسائل الاتصال ما هو متاح لجيلكم، ولعلك الآن تستطيع أن ترى العالم بين يديك من خلال القناة الفضائية في التلفيزيون، وما توفر لجيلك من أجهزة حديثة ولم يكن متوفراً في الماضي مثل الراديو والتسجيل والفيديو والتلفيزيون والسينما. والتمثيل والسفور والموسيقى والرقص... ولم يكن يتدفق المال علينا كما يتدفق عليكم، ولا اتصلنا بالعالم وما فيه من لذائذ مثل اتصالكم، بل ولا نعمنا بالحرية كما نعمتم، ولا حققنا أنفسنا كما حققتم، فما الذي حيرّكم؟

لعل أهم ما حيَّركم وطمأننا، إننا كنا نركن إلى مبادىء وعقائد نؤمن بها كل الإيمان، ونسير عليها في حياتنا من غير شك، ونشجع السير عليها كل التشجيع، ونحتقر من خرج عليها كل التحقير... فكانت أعمالنا تصدر عنا كما يصدر العمل عن عادة، ليس يحتاج الإتيان به إلى رؤية ولا تفكير. ثم أتى جيلكم خضوعاً للمدنية الحديثة، فطوّح بهذه المبادىء والعقائد والتقاليد، ولم يُنشئ مكانها ما يسد مسدها... فكان من ذلك فراغ لم يملأ، ومبادىء زالت ولم تعوَّض، وعقائد تهدمت ولم يبن مكانها، والطبيعة

تكره الفراغ، وتكره السير على غير هدى، وتكره الهدم من غير بنيان، فكانت الحيرة والقلق والاضطراب.

لقد عصفت المدنية الحديثة بالمبادىء والعقائد والتقاليد فلم تجدوا أرضاً ترتكزون عليها ولا ركناً شديداً تأوون إليه.

من هنا كان الأنس بالدين فيه طبيعة النفس وراحة الروح، فإذا سلبت من تأنس به أحسست بالوحشه وتململت من الفراق. ولذلك هدأ المؤمن واضطرب المُلحد وهذا هو الشأن في الشرق والغرب، والمدنية القديمة والمدنية الحديثة.

* * *

لقد مر على العالم الغربي نحو قرنين، آمن الناس فيهما بالعلم كل الإيمان، واعتقدوا أن النظم السياسية والاقتصادية قادرة على إسعاد العالم... فلما تقدم العلم وتقدمت النظم السياسية والاقتصادية ولم يروا سعادة، بل شقاء تلو شقاء، وحرباً هائلة بعد حرب فاجعة، بدأ يتزلزل إيمانهم بأن العلم وحده غير كاف لإسعاف الناس، وأيقن كثير من العلماء بأن العلم في حاجة إلى الدين، وأن العقل في حاجة إلى القلب، وأن المنطق في حاجة إلى الحكمة.

وقد حكى أُستاذ أنه سأل طلبة متقدمين في جامعات مختلفة حول سنة ١٩٣٠: ماذا يؤملون في مستقبل العالم؟ فكانت أكثر إجابتهم مبنية على الأمل في العلم. فلما اضطربت الدنيا وتأهب العالم للحرب الثانية أعاد السؤال على أمثالهم، فكانت أكثر إجاباتهم أن لا أمل إلا بعون الله.

* * *

أي بني!

إن الإيمان بالله يملأ فراغ النفس، ويوحي بالطمأنينة، ويوثق الصلة بين الفرد وأهله ووطنه، كما يوثق الصلة بينهم جميعاً وبين الله.

فنصيحتي لك أن تؤمن ولو ألحد الناس، وتوثق الصلة بينك وبين الله ولو قطعها الناس.

وشيء آخر أحب أن أقصه عليك كان سبباً في حيرة جيلك واضطرابه، ذلكم أنكم لما فقدتم الدين لم تدخلوا الآخرة في حساب الحياة كما يتطلب الدين، وعشتم للدنيا وحدها من غير نظر إلى ثواب ولا عقاب... فنشأ عن ذلك مرض خطير وشر مستطير زاد في حيرتكم وقلقكم، وهذا هو ما ألمحه فيكم من أنانية مُفرطة وأثرة جامحة.

إني لأشعر أنَّ كل فرد منكم يريد أن ينال أكبر حظ من اللّذة وأقل حظ من الألم، حتى لو استطاع أن يستولي على ميزانية البيت كلها ويترك أهله يتضورون جوعاً لفَعَل؛ وهو في حياته الخارجية يجري وراء شهوته ولذّته مهما كانت العاقبة، ولو آذى أهله ولو آذى وطنه... وهو إذا وُظِّف بحث عن الترقية من أي سبيل شريف أو خسيس، بل وقد تضطره أنانيته إلى أن يمد يده. ثم هو لا يشعر بمسؤوليته نحو أهله ولا نحو وطنه ولا نحو أصحاب المصالح الذين يترددون على بابه... إنما يبحث عما يسد شهوته ويملأ أنانيته.

لقد آلمني جد الألم ما سمعت عن أُستاذ في كلية من كليات الجامعة كان يقرأ على طلبته فصلاً من كتاب لابن المقفّع يتكلم فيه عن الفضائل من صدق وعدل ونحو ذلك، ويذكر أن هذه هي الوسائل للنجاح في الحياة... فهاج بعض الطلبة وقالوا إن هذا الكلام «بدع» قديم، قد كان يصلح في العصر القديم. أما اليوم فوسيلة النجاح التهريج والوصول إلى المنفعة الشخصية من أقرب طريق... بالصدق أو بالكذب، بالحق أو بالنفاق أو الملق.

إن كان هذا هو شعار الجيل الجديد فويل لنا وللأُمة كلها من هذا الجيل الجديد!

إن جيلكم معذور بعض العذر لأنكم لم تجدوا أمامكم مُثلاً عليا كثيرة تضحي لخيركم، وتسير بالعدل والنزاهة والصدق والإخلاص لمصلحة وطنكم، ورأيتم أمثلة لمن التزموا الصدق والعدل والإيثار فعاشوا فقراء وماتوا فقراء، ومن هرّجوا وكذبوا ونافقوا تسلّقوا الحائط ووصلوا إلى الذروة، فكفرتم

بـالمبادىء الأخـلاقية والفضـائل النفسيـة؛ ولكن أليس هذا قِصَـراً في النظر، وسوءاً للتقدير وفساداً للتقويم؟

سائل نفسك: هل أسعد الناس أرقاهم درجة في وظيفته، وأكثرهم مـالاً في دخله مهما فسدت نفسه ومات ضميره؟

وسـائـل نفسـك: أي الـرجلين أسعـد حـالاً وأهـدأ بـالاً وأكثـر سكينـة وطمـأنينة... أمن مـات ضميره وزاد دخله من غيـر حساب لفضيلة ولا رذيلة ولا حلال ولا حرام؟ أم من حيي ضميره فتلذذ بشرفه وسعد بقناعته، واطمـأن إلى سيرته، واغتبط بما يجد به الله على يديه من خير لأهله ووطنه؟

تصوّر بيتاً يعيش فيه كل فـرد لنفسه. ألا يكـون جحيماً!، ويكـون أهله كاللصوص يتخطفون الغنائم ويتقاتلون على قسمتها؟ وتصوّر جيشاً يعمل كـل جندي وضابط فيه على أن ينجو بنفسه ويترك العبء على غيره...

هل يستطيع أن يقف في الميدان ساعة من غير هزيمة؟ وتصوّر أمـة كل أفـرادها يعيشـون على التهريـج ويبحث كل فـرد منها عن لـذائـذه الشخصيـة وانتهابها بأي وسيلة... هل تستـطيع أن تعيش طـويلاً؟ إن البيت إنمـا يعيش بتضحية الآباء والأمهات، والجيش إنما يعيش بمن يقـدم روحه فـداء لوطنـه، والأمة إنما تعيش بمن يتحمـل المسؤولية مهمـا لقي من جهد وعنـاء. والدنيـا كلها أمثلة على أن الجماعة الصالحة للبقاء من غلب إيثارها أثرتها وتضحيتهـا أنانيتها، وإلا فلا أمل فيها ولا خير يرجى منها. ولـولا تضحية أبيـك وأمك مـا كنت كما كنت، ولولا تضحيـة من حولـك ما عشت، أفمن العـدل أن تجازي الإحسان سوءا، والـرحمة قسـوة؛ والنعمة كفـراً؟ صدِّقني أنـه لا يتطلب اللّذة الوضيعة إلا النفس الوضيعة، وأن البحث عن اللذة الفردية نتيجـة قصر النـظر وضيق الأفق.

إن النفس إذا تسامت ورقِّيت وجدت لذتها في لذة الناس وسعـادتها في سعادة الناس. وإن هذا الكلام وإن كـان قديمـاً (كلام ابن المقفـع)؛ لا يزال جديداً، إن الحق حق في كل زمان ومكان، وأن الباطل باطل حيث كان.

* * *

أي بني!

إن كان لي نصيحة تذهب بحيرتك وحيرة جيلك وتعيد الطمأنينة لنفسك ولأمثالك. فـالإيمان تمـلأون به قلوبكم ويمـلأ فراغكم ويتفق مـع طبيعتكم، وأن تعيشوا لأنفسكم وللناس ولخيركم وخير الناس، فهذا هـو الذي يسـاير مـا طُبعتم عليه، وإلا انتقمت الطبيعـة منكم بمخالفتكم لقـوانينها فسلطت عليكم السأم والملل والحيرة والقلق... وقاكم الله شر ذلك.

* * *

أي بني!

لشـد مـا يؤسفني مـا أرى في جيلكم من إفـراط في اللهـو، كمـا كـان يؤلمني ما كنت أرى في جيلنا من إفراط في الجدّ.

لقد عشت أنا في جيـل كان أكثـر طلبته لا يعـرفون إلا بيـوتهم ودرسهم وكتبهم... فإذا أراد أحدهم أن يلهو وطاوعته ماليته ذهب إلى المسرح أو إلى السينمـا مرة أو مـرتين في السنة، وإذا قـرأ مجلات أو جـرائد فمجـلات جادّة وجرائد وطنية، وإذا عرف فتـاة فقريبتـه تزور بيتـه مع أمهـا، أو يزور بيتهـا مع أهله، وإذا اجتمع الطلبة وأرادوا أن يتسلوا تنادروا على كتبهم ودروسهم، وقد يتنـادرون ـ في أدب ـ على أساتـذتهم. وعشت أنت في جيل لا يشبـه الجيـل القديم في شيء، عماده الحـرية المـطلقة، وقلّة الشعـور بالمسؤوليـة، والنظر إلى اللذائـذ الماديّـة على أنها غـاية الغـايات؛ ينـظرون إلى الكتب والـدرس والأسـاتـذة على أنهـا دواء مُـرّ يتعـاطى للضـرورة، والضـــرورة هي الشهـادة فالوظيفة، ولإحساسكم بمـرارتها تـرحبون بكـل ما يـريحكم منها، مـظاهرات وفوضى ومطالبة بطول إجازات وإهمال لدروسكم ونحو ذلك. وإذا قرأتم شيئاً بجـانب دروسكم قـرأتم الكتب الـرخيصـة والمجـلات الـوضيعـة التي تلهب الغرائز، وتقوِّي الشهوات، وتضعف الذكاء وتبلِّد العقـل، وفي كل يـوم سينما أو تمثيـل، وفي كل سـاعة تليفـون يـرن لكم أو يـرن منكم لمقـابلة لاهيـة أو محادثة عابثة.

* * *

أي بني!

لقد غلونا في جدّنا، وعلوتم في هزلكم... غلونا في جدّنا حتى اكتأبت نفوسنا، وانقبضت صدورنا، ولم تتفتح للحياة كما يجب، ولم تبتهج لها كما ينبغي. وغلوتم في هزلكم حتى صرتم كالشيء التافه لا طعم له، وكالماء الفاترلا ساخن ولا بارد... وحتى صرتم شيئاً رخواً ينكسر لأدنى ملامسة، أو هشيماً تذروه الرياح. ويوم يجدّ الجد وتظهر المتاعب فتتطلب حمل المسؤولية، نجد لكم أيدياً مسترخية، وقلوباً متخاذلة، وإرادات واهية، أضعفتها كثرة الطلب للّذة، وقلة التعود لمواجهة المصاعب، وحب الترف والنعيم.

ومن أجل هذا كثرت ـ مع الأسف ـ ضحاياكم. هؤلاء صرعى «الكيوف» لا أمل فيهم، ولا خير يُرجى منهم، أصبحوا جثثاً تتحرك كالأشباح، ومواد محطمة بلا أرواح، أضاعوا صحتهم، وأتلفوا مالهم، وخرّبوا نفوسهم، وجنوا على أسرتهم وأمتهم.

وهؤلاء صرعى الحب البائس أو الحب اليائس، أو النزوة الوقتية من غير تقدير للمسؤولية... إلى غير ذلك من صرعى اللّذات، وكلهم في الهّم سواء.

وقد جرّهم إلى هذا الوبال أن رأوا بعض زملائهم ذوي المكانة ـ لسبب ما ـ قد استهتروا فقلّدوهم، وتوالت على سمعهم أن الدنيا لّذة فوجّهوا إليها كل قوتهم. ورأى هؤلاء القادة من زملائهم أنهم قد ضلوا، فأحبوا أن يشركوا معهم غيرهم فأضلوا.

وبعثت إلينا أوروبا وأمريكا بملاهيها فاستهوت شبابنا. ووقر في نفوسهم أن أوروبا وأمريكا أرقى منا مدنية وأعلى مقاماً وأعز جاهاً... فقالوا ما علينا إذا سرنا في لهوهم وسيرهم ونعمنا بملاهيهم ونعيمهم، وفاتهم أن في أوروبا وأمريكا علما يعادل اللهو، وجدّاً يوازن الهزل، وشعوراً بالمسؤولية يوازي الشعور بالحرية.

ولكن لم يجد جدّ أوروبا وأمريكا من يعرضه علينا كما يعرض الهزل، لأن وراء عرض الهزل أموالاً طائلة وأرباحاً وافرة، لا تؤاتي من يعرض الجد

والعلم والمسؤولية، فكان من الخطأ أن نأخذ جانباً وندع جانباً، وأن نتصور المدنية لعباً لا جدّ فيها، وحرية لا مسؤولية معها.

* * *

أي بني!

لست أريدك أن تكون راهباً، فمتى خلقت إنساناً لا ملكاً فلتكن إنساناً له ملذاته وشهواته في حدود عقله ومنفعته ومنفعة أمته. والقرآن يقول: **﴿قل من حرَّم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق﴾**[1].. أريدك أن تفهم معنى اللذة في حدودها الواسعة لا الضيقة... ان للذة درجات كدرجات السلم آخذة في الصعود، فأسفل درجاتها لذة الأكل والشرب واللباس، وما إلى ذلك. ومن غريب أمر هذه اللذة أنها تفقه قيمتها بعد الاستمتاع بقليل منها، فلكل إنسان طاقة من هذه اللذة يقف عندها، فإذا تعداها انقلبت ألماً... ثم هي ليست مرادفة للسعادة، فكثير ممن يأكلون الأكل الفاخر، ويلبسون اللباس الأنيق، ويسكنون القصور الفخمة، هم مع ذلك أشقياء... فسعادتهم إنما هي في نظر غيرهم لا في نظر أنفسهم، ولو كانت هذه اللذة هي السعادة لكان هؤلاء أسعد الناس دائماً.

ثم هذه اللذائذ قيمتها في الاعتدال فيها، وعدم التهافت على كسبها، إن شئت فاحسب حساب من أفرط فيها في فترة قصيرة من الزمن ثم فقد صحته، فلم يعد يستطيع أن يتابع لذته، وحساب من اعتدل فطال زمن لذته مضافاً إلى لذته من صحته.

وأرقى من هذه درجة؛ لذة العلم والبحث والقراءة والدرس... فهذه لذة العقل وتلك لذة الجسم، وهذه أطول زمناً، وأقل مُؤْنة، وأبعد عن المنافسة والمزاحمة، والتقاتل والتكالب، وصاحبها أقل عرضة لتلف النفس وضياع الصحة.

وإن أردت الدليل على أنها أرقى من اللذائذ المادية، فاسأل من جرّب اللذتين، ومارس النوعين، تجد العالم الباحث والفنان الماهر والفيلسوف

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٣٢.

المتعمق لا يهمهم مأكلهم وملبسهم بقدر ما تهمهم لذتهم من بحثهم وفنهم وتفكيرهم.

وسأسوق لك مثلاً من هؤلاء الذين جرّبوا اللذات في هذه الحياة والذي بدأ حياته ممثلاً، ثم اتجه إلى السياسة فأصبح صحفياً لامعاً، ولندعه يتكلم عن تجربته فيقول: «أما أنا فقد رثّ ذوقي وبلي من طول ما توجه يميناً وتوجه شمالاً، فمرّ بي على كل بلد فرأيته، وأطال في الرحلة فذقت الحلو والمر، وعرفت المتع واللذائذ، والمتاعب والآلام، عرفت لذة المال، ومتعة الشهرة وحلاوة المنصب، وإعجاب الجماهير، ووجدت أن أعظم هذه اللذات وأكثرها متعة؛ لذة الإيمان والقرب من الله واللجوء إليه في كل الأمور، سُئلت رابعة العدوية: كيف بلغت هذه المرتبة العالية في الحياة الروحية؟ فأجابت: بقولي دائماً: «اللهم إني أعوذ بك من كل ما يشغلني عنك، ومن كل حال يحول بيني وبينك». وروى ابن ماجه عن سهل بن سعد قال: «جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله دلني على عمل إذا عملته أحبني الله وأحبني الناس، فقال له الرسول عليه السلام: «ازهد في الدنيا يحبك الله وازهد فيما عند الناس يحبك الناس». وليكن لك في نصيحة أبي عمر بن العلاء ذخراً، يقول: كن من الكريم على حذر إذا أهنته، ومن اللئيم إذا أكرمته، ومن العاقل إذا أحرجته، ومن الأحمق إذا رحمته»، وبعد: أرجو من الله وعلى الله حق الرجاء؛ أن يرزقني حُسن الخاتمة، وأن يخلفني في أهلي وبناتي وهو نعم المولى ونعم النصير».

* * *

أي بني!

إنك خُلقت إنساناً ذا جسم وعقل وروح، وقد ربيت فنما جسمك، وثُقِّفت فنما عقلك، وأرجو أن يكون قد صادفك في بيئتك ما نمّى روحك. ولكل من هذه العناصر الثلاثة غذاؤه، ولكل لذته... ولذة اللذائذ أن تستطيع أن تمد العناصر الثلاثة بغذائها ولذاتها من غير أن يطغى عنصر على غيره، فيختل التوازن ويضيع التعادل.

وأرقى اللذات في هـذه الحياة لـذة من وهب نفسه لخـدمة مبـدأ يسعى لتحقيقـه، أو فكرة إنسـانية يجـاهد في إعـلانها واعتنـاقهـا، أو إصـلاح لـداء اجتماعي يبذل جهده للقضاء عليه. . . فهذه هي السعادة ولو مع الفقر، ولكن لا يصل إلى هذه الدرجة من اللذة إلا من رقي حسه وسَمَت نفسه.

* * *

أي بني!

طالما دعوت ربي جاهداً أن يجنِّبك الزلل، ويقيك شر أصدقاء السوء، ويمنحـك من قوة الإرادة مـا تتقي به شـر المغريـات، وأن يهـديـك الصـراط المستقيم والسلام.

* * *

بين جيلين

أي بني!

لقد جئت في مفترق الطرق بين جيلنا وجيل من قبلنا وجيلك، ويخيل إليّ أن الفرق بين جيلك وجيلنا أكبر جداً من الفرق بين جيلنا وجيل آبائنا، لأنك تتأثر بالمدنية الغربية أكثر مما كنا نتأثر ويتأثر آباؤنا.. بل إن المدنية الغربية نفسها تتطور تطوراً كبيراً، فهي في القرن العشرين غيرها في القرن التاسع عشر والثامن عشر.

لقد ظلت المدنية الغربية تتطور إلى أن كانت قِمَّتَها القنبلة الذرية والهيدروجينية، وقنبلة النيوترون وشتى أسلحة الدمار.. وهناك فرق كبير بين المدنية الغربية والمدنية الشرقية، فإن نحن تصورنا تعاليم الغرب هرماً، كان أساسه الدعوة إلى العلم والتجربة ودراسة الحقائق، وقمته القنبلة الهيدروجينية وقنبلة النيوترون، وإن تصورنا المدنية الشرقية هرماً كانت دعامته الروحانية والإلهام وما إلى ذلك، وكانت قمته النبوّة، وبناء على ذلك فرق كبير بين الفلسفة العربية والفلسفة الشرقية.

إن المدنية الغربية تتميز بشيئين يظهران جلياً في فلسفتها: الأول النظام وبحث المسائل بحثاً منطقياً منظماً تنبني نتائجه على مقدماته، ويتجلى ذلك في ديكارت، وكانت، وأوجست كونت، ونحوهم. والمسألة الثانية: عنايتها بالحقائق أكثر من عنايتها بالقيمة، على عكس الفلسفة الشرقية ليست خاضعة لنظام ولا مقدمات منطقية تتبعها نتائج، كما يتجلى ذلك في كلام الجاحظ

وابن المقفع والأحنف بن قيس ونحوهم، وهي أيضاً تعنى بالقيمة أكثر مما تعنى بالحقائق، وأعني بالفرق بين القيمة والحقائق كالفرق بين من يعنى بالقلب ووظيفته في الجسم، وبين من يعنى بالقلب من حيث تركيبه وموضعه من الرئة اليسرى ونحو ذلك.

* * *

أي بني!

إن العالم اليوم كبوتقة الصائغ، تصب فيها كل العناصر من شرق وغرب وقديم وحديث، ثم تُستعمل كلها ليؤخذ خيرها، وهي تتطلب من الإنسان أن يكون مرناً واسع الصدر.. لا يزدري ما في الشرق لشرقيته، ولا يمجِّد الغرب لغربيته، وإنما يمجِّد الحق حيث كان. فنصيحتي أن تكون مفتح العينين، مفتح الأذن، تتطلب الحق حيث كان، لا تأبه للجديد لجدّته، ولا تنفر من القديم لقدمه.

إن للشرق مزايا لا يستهان بها، فحكمته مركزة متبلورة، وهو يعتمد على الإلهام أكثر مما يعتمد على العلم والتجربة والحقيقة. وللغرب مزايا لا يستهان بها، فهو يعتمد على الحقيقة والتجربة والعلم، ولكن كانت نتيجة العلم الأوربي القنبلة الذرية..

وأخيراً حرب الكواكب وكلها تستعمل في الفتك لا في النفع، ولو تم إنفاق هذه الأموال التي صُرفت وتُصْرف في أسلحة الدمار وتطويرها، من أجل إسعاد البشرية، لعمّ الرخاء جميع العالم ولما وجد ما يُسمى بالعالم النامي وما نراه من كوارث تتمثل في الآلاف الذين يموتون من خطر المجاعة وسوء التغذية والتلوث وأخطار شتى يندى لها جبين البشرية. وهكذا نرى أن قصد الغلبة في العلم الأوربي يرمي إلى الفتك والدمار أكثر مما يرمي إلى خير الإنسانية.

* * *

أي بني!

إنك في زمن الآن قد مسحت فيه كل القيود، واختلط الشرق بالغرب، واختلطت المدنية الشرقية بالمدنية الغربية، وأصبح يمكنك أن تفظر في مصر

وتتغدى في فرنسـا، وتتعشى في انجلترا، وهي إحـدى الأعاجيب التي مـا كنا نحلم بهـا، وليس هذا بـالأمر الهين، فمعنـاه أن الحضارات تتقـابل، ومنـافع الناس تتلاقى. . وخيـر لك أن تقـابل عـالمك في ثـوبه الجيـد، فتتأقلم معـه وتسايره ولا تقف ضد التيار فيجرفك.

أي بني!

خير ما تواجه به هذا الزمان، سعة دراستك ووقوفك على حقائق الشرق والغرب، وانتفاعك بما في كـلٍّ من مزايـا. وعيب الشرقيين شعـورهم بمركب النقص أمام المدنية الحديثـة، فهم يقدرونهـا فوق قيمتهـا، ويقدرون أنفسهم أقـل من قيمتهم، ولو أنصفـوا لزادوا من قيمـة أنفسهم وقلَّلو من قيمة المـدنية الغربية.

فالمدنية الحقة إنمـا تقاس بـإسعاد النـاس لا بكثرة الاختـراع ولا بكثرة التجارب. نعم إن المدنية الغربية أكثر اختراعاً وأكثـر تجارب، ولكنهـا ليست أكثر إسعاداً للناس، فكثرة حروبها وكثرة تكاليف الحياة عندها وكثرة مـطالبها، جعلتها أشق على الحياة وأفقدتها قيمتها في السعادة.

أي بني!

لست أريد أن أبثك رأيي وألزمك به، فأنت حر في اختيار آرائك ووزنها بميـزانك، ولكن هـذا لا يمنعني من أن أبث إليك بعض آرائي لا عن طـريق إلزامك بها، ولكن رغبتي في نفعك جعلتني أعرض عليك كـل ما أرى لتـرى فيه ما ترى.

والسلام عليك ورحمة الله

* * *

الثقافة.. غذاء ضروري

أي بني!

إنك إنسان قبل أن تكون مهندساً أو طبيباً أو تاجراً أو نحو ذلك، وإنك إنسان ذو عقل، كما إنك إنسان ذو معدة، وكما يجب عليك تغذية معدتك يجب عليك تغذية عقلك، وليست الهندسة أو الطب أو نحو ذلك، تُغذِّي عقلك إلا في ناحية محدودة ضيقة. إن الطب يغذي مجموعة صغيرة من الغدد في المخ، أما سائر الغدد فلا تجد غذاءها في الطب ولا الهندسة. إنما تجد غذاءها في المعلومات العامة والثقافة العامة، ولذلك كثيراً ما تجد أطباء أو مهندسين أو نحوهم، وهم في معرفتهم الواسعة بمهنتهم عوام أو أشباه عوام، . . . فيما عدا فنهم الذي تخصصوا فيه. تسمع جدالهم أو آراءهم في غير فنهم، فيضحكك حديثهم كما يضحكك حديث من لم يتثقفوا. وليست الجرائد والمجلات الرخيصة كافية للغذاء الجيد الناصح في شيء، بل إن كثيراً من هذه المجلات الرخيصة تضر أكثر مما تنفع. . عمادها إثارة الغرائز الجنسية بحديثها وقصصها ومناظرها، فهي تعالجها ـ وتعالجها وحدها ـ كأن ليس في الوجود شيء غير هذه الغريزة، فأعيذك بالله من أن يكون أفقك في الحياة هذا الأفق الضيق المحدود.

* * *

أي بني!

لست أريد أن أقيم لك البراهين بأكثر من أن نقارن بين شباب قضوا أوقات فراغهم في لعب نرد أو شطرنج أو حديث فارغ في الأندية والمقاهي،

وبين شباب أحبوا الكتب والمطالعات، ووضعوا لهم برامج في تثقيف نفوسهم وتوسيع عقولهم، فغيروا عقليتهم. ومن ذلك الحين أصبحت لهم مكتبات تشمل النفائس من كتب التراث العربي، وكتبٌ من كتب «ادلر» في علم النفس، ومن كتب «موم» في الأدب، ومن كتب «برتراند راسل» في الفلسفة ونحو ذلك. أريد أن تقارن بين هاتين الطائفتين أيهما أكثر لذة ومتعة لأنفسهم، وأيهم أكثر نفعاً لأمتهم، وأيهما أجدر بلقب إنسان؟

* * *

أي بني!

لا تظن أنك تستطيع أن تكون طبيباً عظيماً بقراءتك في الطب وحده، ولا أن يكون زميلك مهندساً عظيماً بقراءته في الهندسة وحدها.. فالعقل وحده، وثقافته في أي موضوع آخر يفيده في الموضوع الذي تخصص فيه، فكم أتت فكرة طبية سامية من ثقافة اجتماعية أو فلسفية، وكم أتت فكرة هندسية عظيمة من قراءة كتاب في الأدب، أو في الاجتماع. ويُخيّل إليّ أن كثيراً من الأطباء ينقصهم المنطق مثلاً، فلو تعلّموا شيئاً من المنطق لاستطاعوا أن يحددوا بالضبط نوع المرض ونوع العلاج، وخاصة في الأمراض التي تتشابه أعراضها، وتتقارب أوصافها، فالمنطق وحده هو الذي يستطيع أن يقول ـ بناء على هذه الأعراض المشتابهة ـ إن هذا المرض كذا دون كذا. والطبيب الناجح هو الذي مُنح ملكة منطقية بالفطرة، ولو نُمِّيت هذه الملكة الفطرية بشيء من الفلسفة والمنطق التعليمي لكان صاحبها أنبغ وأعظم.

* * *

أي بني!

مفتاح هذه المشكلة أن تجتهد أول أمرك أن تكون لك هواية في فرع من فروع الثقافة العامة، كنوع من دراسة التاريخ، أو نوع من الدراسة النفسية أو الاجتماعية بجانب دراستك الخاصة.. تبدأ فيه على مهل، وتحبب نفسك فيه رويداً رويداً، كما يفعل من يريد أن يمرّن نفسه على هواية الزهور أو جمع أوراق البريد أو الرسم أو نحو ذلك، فإذا صبرت على هذا قليلاً قليلاً، وجدت أن لذتك تنمو شيئاً فشيئاً، ولا تزال كذلك حتى تصبح هذه الهواية

«كيفاً» لا تصبر عنه ولا تستطيع العيش بدونه، ولكنه «كيف» راق سام نبيل نافع، فإذا وصلت إلى هذه الدرجة استسخفت من يضيعون أوقات فراغهم في الحديث التافه واللعب السخيف والقراءة الرخيصة، وأحببت أن تصادق من قويت ثقافته ونضج تفكيره، ونعمت هذه الصداقة.

أليس عجيباً أن تسمع من زملائك أنهم يريدون قتل الوقت بلعب الورق، أو قتل الوقت بالحديث التافه، أو قتل الوقت بالكلام في أعراض الناس، أو نحو ذلك؟

كأن الوقت عدو يقاتل، مع أنه المادة الخام للحياة، وهو أجدر بأن يصادق لا أن يقاتل، ولكن كم يجني الإنسان على نفسه بمعاداة أحق شيء بالصداقة!

أي بني!

تصور أنك ستعيش بعد ذلك أربعين أو خمسين عاماً، وتصور ماذا تجني في هذه السنين الطوال. إذا أنت صرفت جزءاً كبيراً منها في تقويم نفسك وتثقيف عقلك، وتصور كيف تخسر إذا أنت صرفتها أو أكثرها فيما يضر ولا ينفع؟ بل أنت إذا حسبت بذلك حساب اللذة الشخصية فحسب، وجدتك تتلذذ أضعافاً مضاعفة من لذائذك العقلية أكثر من لذائذك الجسمية.

والسلام عليك ورحمة الله.

* * *

تنظيم حياتك

أي بني!

أكتب إليك اليوم فأخبرك:

١ ـ بأنه كان لك قريب من أعيان المحافظة ورث عن أبيه ثروة كبيرة تُقدر بنحو ثلاثمائة فدان، ولكنه وقع في عادة سيئة هي لعب القمار، وكان مغفلاً فكان يشتريه اللاعبون بعضهم من بعض وما زال به القمار حتى خسر كل أطيانه. وكان يستجدي أخته فلا تعطيه وتقول له إن ثروتك كانت ضعف ثروتي فأضعتها ثم كان يستجدي قريبة له ولك. فكانت تعطيه الخمسة جنيهات أو العشرة جنيهات شفقةً به حتى مات بائساً!!

* * *

٢ ـ وكان أحد معارفنا رجل قانون كبيراً وذا عقلية جبارة، كان إذا حدَّثك عن القمار شرحه شرحاً وافياً وفلسفه فلسفة دقيقة، ومع ذلك وقع في هذه العادة السيئة، فكان يسهر كل ليلة على مائدة القمار حتى أضاع ثروته، ثم اضطر آخر الأمر أن يبيع بيته ويصرف ثمنه في الميسر، ثم اضطر أن يبيع أثاث بيته حتى أضاع كل شيء، ثم مد يده لأقاربه الأغنياء فأعطوه مرة ثم كفّوا أيديهم عنه، وركبه الهم الثقيل فانفجر شريان في مخه فمات. ولا يزال بيته يذكرني بمأساته، رحمه الله.

٣ ـ أعرف مصلحاً اجتماعياً كبيراً، وعاقلاً دقيقاً لبقاً، هوى اللعب في البورصة فكسب نحو مائة ألف جنيه في لعبة. وابتنى منزلاً فخماً، وأثثه أثاثاً

جميلاً فخماً، ثم خسرها في لعبة أيضاً، وباع بيته الذي بناه، وأثاث بيته، وركبه الهم أيضاً، فالتجأ إلى الخمر يُسرِّي بها عن همه، فما زال كذلك حتى وقع في عادة الخمر كما وقع في عادة الميسر، وأفرط في الشرب حتى انفجر مخه فمات!

* * *

أي بني!

إني أحذرك أن تكون أحد هؤلاء تستهويهم المائدة فيلتفون حولها، وللشيطان مداخل في ذلك، فهو يستهوي أولاً بالجلوس على المائدة من غير لعب للتفرج على اللاعبين، ثم يستهويك باللعب من غير نقود، ثم يجرك إلى اللعب بالنقود، فإذا أنت مقامر، أعاذك الله.

* * *

أي بني!

وأعرف طبيباً ماهراً في صناعته، جرّه أصدقاؤه إلى اللعب فقضى ليله لاعباً يكسب كثيراً ويخسر كثيراً، ثم ضجت زوجته من طول سهره، ومن كثرة خسارته فطلبت منه الطلاق فطلقها، وسعدتْ، وندم.

* * *

أي بني!

يجب أن تكون لك ميزانية كميزانية الدولة المنظمة، تعرف مقدار دخلك وخرجك، ولا تصرف قرشاً أكثر من دخلك.

بل لا يصح أن تصرف كل دخلك. فالليالي من الزمان حبالى، لا تدري، ماذا يحدث؟ وكم من المال تحتاج. وقاك الله شر السوء.

* * *

أي بني!

وكان لنا أستاذ كبير في كلية الطب يتقاضى ألف جنيه في الشهر كمرتب، ويحصل على ثلاثة أمثاله من عيادته، ولكنه كان مسرفاً في بيته، يقيم كل أسبوع حفلات استقبال وحفلات رقص وموسيقى، ويستدين كل شهر

ما يحتاج إليه بيته من خبز ولحم ولبن وغير ذلك، فإذا جاء أول الشهر اصطف الدائنون على باب الكلية حتى يقبض الأستاذ مرتبه ويخرج فيوزع عليهم أكثر مرتبه، ولا يبقي منه إلا ما يكفي ثلاثة أيام، فكان يقول: لعن الله السبعة والعشرين يوماً آخر الشهر، وكان يمد يده إلى زملائه في الكلية فيقترض منهم.

* * *

أي بني!

حذار أيضاً أن تكون مثل هذا، بل لا بد أن تعيش عيشة اقتصادية لا إسراف فيها ولا تقتير، وأن تكون معيشتك منظمة وبمقدار ما تكسب، بل أقل مما تكسب: لا حرمان ولا بهرجة. واعلم أن اضطرابك وفساد ميزانيتك شهراً واحداً يجرّ عليك فساد العمر كله، وإذا فسدت ميزانيتك وأنت لم تتزوج بعد فأولى أن تفسد بعد الزواج، وقاك الله شرّ الدَّيْن.

واعلم أن ليست الأخلاق صدقاً وعدلاً وشجاعة فقط، بل إن من أهم الأخلاق تنظيم الحياة أيضاً، وسيرك في الحياة المالية بنظام وإتقان، ولأن يمد الناس أيديهم إليك يقترضون منك خير من أن تمد يدك تقترض منهم.

وفي الحديث الشريف عن رسول الله ﷺ: «اليدُ العليا خير من اليدُ السفلى». حفظك الله من هذه الشرور، وجعل يدك العُليا دائماً.

* * *

أي بني!

ها أنت قد عقدت العزم للسفر إلى الخارج في بعثة تدريبية بعد إتمامك الدكتوراه في مصر بنجاح، كي ينمو علمك وتزداد قدراتك، وتنال الخير لك وللوطن، فأما السفر فلا بأس من سفرك بشرط المحافظة على ضبط العقل، واعتزال الميل إلى اللذائذ وخضوعه لحكم العقل، فكن سيد نفسك ولا تكن عبداً لشهواتك، وضبط النفس يتطلب منك ألا تسرف في الشراهة والدعارة والطمع والغضب والسخط والثرثرة والإدمان، وقاك الله شرها جميعاً، ولست أريد أن تكون زاهداً فأمنعك من كل متعة، وإنما أريد أن تكون معتدلاً مقتصداً في اللذائذ، لا تفريط ولا إفراط ، ولا دعارة ولا رهبانية، وأحذرك

على الخصوص من أشياء ثلاثة: الخمر والنساء والقمار، فهي شر ما يبلى به الإنسان ويفسد عليه حياته، ويضعف روحانيته، ويقل من حريته، ويسوقه إلى أسوأ حال.

وسألتني هل تتزوج من فتاة أوربية أو لا؟

فأقول لك إني مع اعتقادي بمزايا الفتاة الأوربية من نظافة ونظام، وعناية كبرى بشؤون الزوج، أرى أكثر من حولي من المتزوجين بأوربيات غير سعداء، لأنهم رأوا أن زوجاتهم الأوربيات قد ساءهن ما شاهدن من الأمور في مصر فهن ينغصن على أزواجهن إذا رأين فقراء مقعدين بجانب أغنياء مترفين، ويسؤوهن أن يرين فوضى وقذارة وما إلى ذلك، وظهر أنهم كن يتصنعن التأكيد بسرورهن من الإقامة في مصر.

ومع هذا فسلطان الحب فوق كل سلطان، فأنا أترك لك وزن هذه الأمور. وأترك لك الاختيار بعد أن أبديت رأيي.

وأيضاً فالرجل إذا تزوج بأجنبية رأى نفسه مضطراً أن يؤنسها بسينما وتمثيل وهواء طلق ونحو ذلك، فكان ذلك مثار الشقاق المتصل. . .

ولكن حذار أن تنخدع بما تفعله الفتاة الأوربية من تصنّع وإظهار ودّ متعمد، وإعجاب بموسيقى تعجبك، وفن يروقك، فميّز بين الطبيعي والمصطنع، والسليقي والمُفتعل.

* أخوك وأختك بخير، وجارتنا فلانة حملت وهي في شهرها الرابع، ولكن تربية الأولاد وكثرة النفقات اضطرها إلى الذهاب لطبيب للتخلص من هذا الحمل البغيض، ولكن ذلك من غير علم أهلها. فأنا أعلم الخطر الشديد الذي تتعرّض له الفتاة، ولكن الله سلّم فنجت وفرحت بهذه النتيجة!

فمن أبى قلة الأولاد فذلك أحسن لتربيتهم وأصح بجسم أمهم، وأكثر تمكيناً للآباء من أن يُحسنوا تربية أولادهم، ولكني نصحتها بألا تعود إلى مثل هذه العملية الخطرة، فالوقاية بادىء ذي بدء خير من العلاج بعد فوات الأوان.

أرجو أن تخبرني بما استقر عليه رأيك والسلام.

* * *

زراني اليوم فنان مصري قال إنه اتخذ من بيته في الضواحي معبداً لفنه، ويتقن ما يرسم في بطء ولا يسأل عن الزمن، ولكن يسأل عن الإتقان، وقال إنه يحتفظ في رسمه بروح مصرية صميمة، ويؤلف بين النزعات المصرية القديمة ومقتضيات الوقت الحاضر، وأنه نجح في عمله وعرض ما صوّره في الخارج فأعجبوا به، وقالوا إنهم لا يستطيعون تقليد هذا الرسم الشرقي، لأنه وسط بين الفن الشرقي القديم والفن الغربي الحديث. وقالوا إنها تشبه عمل الآلات الميكانيكية اتقاناً وجودة، وأوصوه بالاستمرار في العمل وتمنّوا له النجاح.

وقال هذا الفنان إنه استطاع أن ينشئ مدرسة على مذهبه التحق بها سبعة عشر فناناً مصرياً، وقال إنه يشترط فيمن يتقدم إليه ألا ينظر مطلقاً إلى الناحية المادية، ومن أجل ذلك حرّم عليهم بيع اللوحات أو المطالبة بترقيات وعلاوات. فحمدت الله أن يكون في مصر ثمانية عشر راهباً فنياً. وأتمنى عند رجوعك أن تكون راهباً علمياً والسلام.

(حاشية):

أي بني!

نصيحتي لك أن يمتلئ قلبك رحمة على العامل الفقير الذي يتعرض للأخطار، وعلى البائس المسكين الذي لا يجد قوت يومه، وعلى المريض المسكين الذي لا يجد صحته، وعلى الجندي المسكين الذي يضحي بحياته في ميادين القتال.

أي بني!

بل إني لأرجو أن تتسع رحمتك فترثي للمجرم الذي وقع في إجرامه، وللغني الذي يبتز أموال الناس.. بل وللعاهرة التي اضطرتها حاجتها إلى أن تبيع جسمها، ولرجال السياسة الذين قست قلوبهم فدفعوا بالملايين من الناس

إلى مجزرة القتال!! فكل إنسان في الوجود فقيراً أو غنياً - يستحق الرحمة إذا اتسع أفقك وبعد نظرك.

أي بنيٍ!
ارحم تُرحم، وفَّقك الله وأصلح حالك والسلام.

* * *

العادات والقواعد

أي بني!

لو قلت إن الإنسان هو مجموعة عادات لم تكن بعيداً عن الصواب، فالعادة هي التي تكسب كل ذي حرفة سحنة خاصة، حتى لتدرك إن كان هذا مدرساً أو طبيباً أو خياطاً إذا أنت دققت النظرة في شكله، واعلم أن للعادة قوة كقوة الطبيعة، وقوة العادة هي التي تجعل المسنين كأبيك يرفضون الآراء الجديدة برغم ما عند بعضهم من المرونة، ثم إن العادة توفّر الزمن والانتباه، وتجعل الشبان أمثالك يسرعون في اعتناقها، ولذلك قلّ أن تجد عندنا شيوعياً شيخاً، لأن الشيوخ ألفوا من صغرهم آراء معينة اعتادوها، وأما أمثالك من الشبان فلم يألفوا نوعاً خاصاً من الآراء، فكانوا لذلك على استعداد لقبول ما تقوم البراهين على صحته، ومن أجل هذا قامت النصرانية والإسلام على أكتاف الشبان وأمثال فتية أهل الكهف، وأمثال عمر بن الخطاب وخالد بن الوليد وأمثالهما، لأن لهم من المرونة ما يجعلهم يقبلون الدعوة الجديدة بينما كان أمثال دريد بن الصمة الشيخ، والأعشى الشيخ أيضاً وأمثالهما لا يألفون الإسلام لأنهم شبّوا على غيره، وقال جان جاك روسو: «يولد الإنسان ويموت وهو مسترق مستعبد، يشد عليه القماط يوم يولد والكفن يوم يموت»، وهو يقصد بذلك إلى تقيده بالعادت من يوم أن يولد إلى يوم أن يموت، فهو حين كان في بطن أمه مقيد بعادات موروثة من أبويه، ثم بعادات تعوّدها مدى الحياة منذ أن كان طفلا إلى أن صار شيخاً.

ومن نعم الله عليك وعلى أمثالك أن كانت العادة سهلة التغيير، فيمكنك تغيير العادات السيئة التي ورثتها عن آبائك إلى عادات أحسن منها وجدتها في طريقك، فيجب لذلك اتّباع القواعد الآتية التي وضعها الأستاذان بين وجيمس وهي:

١ - اعزم عزماً قوياً لا يشوبه تردُّد، وضَعْ نفسك في المواضع التي لا تلائم العادة القديمة، وارتبط ارتباطات كثيرة منافية لها، وإذا رأيت إن إعلان عزمك على تركها مما يبعدك عن العودة إليها، فافعل، فمثلاً إذا أحببت أن تترك التدخين فتعمد جلوسك مع أصحاب لا يدخنون، واعلن بين أصدقائك أنك تركت التدخين، فهذا ما يعينك عليه.

٢ - لا تسمح لنفسك بمخالفة العادة الجديدة إلا بعد أن تتمكن جذورها من نفسك وحياتك، فإنك إذا سمحت لنفسك ولو مرة بالتدخين انفلت العيار، كالبكرة تلف خيطا عليها، فإذا سقطت الكرة ولو مرة واحدة انحلَّ من الخيط ما يحتاج لإعادة طيه إلى عشرات من اللفات، ولذلك كان العزم على ترك العادة السيئة مرة واحدة خيرا من تركها بالتدريج، لأن التدريج يشوقك إليها باستمرار.

٣ - انتهز أول فرصة لتنفيذ ما عزمت عليه، فإن الصعوبة ليست في العزم، وإنما هي في تنفيذه.

٤ - حافظ على قوات المقاومة واحفظها حية في نفسك، وذلك بأن تتبرع كل يوم بعمل صغير لا تقصد منه إلا مخالفة نفسك وآرائك، لأن هذا يعينك على مقاومة المصائب إذا حان حينها، وأرجو الله لك التوفيق دائما.

حاشية

مرضت أمك مرضا شديدا، ألزمها الفراش، وارتفاع درجة الحرارة، وألحت عليها استدعاء الطبيب فلم تقبل بحجتين:

الأولى: الاعتقاد في القدر، فإن ما كتب على الجبين تراه العيون، وما قدر على الإنسان فلا بد أن يراه.

الثانية: أن كثيرا من الأطباء قد اخطأوا فأماتوا المريض. ألم تسمع ما فعلوا بفلان إذ عالجوه فمات وبفلانة إذ عالجوها فماتت أيضا؟

فماذا يغني الأطباء ؟ وما زلت أقنعها في الحجتين

فقلت لها: إن المسلمين الأولين كانوا يعتقدون في ربط الأسباب بالمسببات، ونبي الإسلام يحض على التداوي ويأمر به (تداووا عباد الله تصحوا)، والأرض إنما تنبت الزرع بالبذر والغيث، فما لم تزرع وتبذر وتروى لا تنبت شيئا، ولذلك حارب المسلمون الأولون بكل ما استطاعوا من قوى حتى نجحوا، ثم غلوا في الاعتقاد بالقدر فلم يربطوا الأسباب بمسبباتها فضلوا في عقيدتهم، وأما من الناحية الثانية فإن بجانب الأطباء القليلين الذين أخطأوا، أطباء كثيرين نجحوا، وإني لا أزال أعتقد ان الذين يكذبون لا يزال صدقهم أكثر من كذبهم، والذين يظلمون يعدلون أكثر ما يظلمون، والأطباء الذي يُخطئون أقل ممن يصيبون، وهنالك أشياء لا يخطئون فيها إلا نادرا، كتحليل البول ومقياس درجة الحرارة ونحو ذلك، وما زلت بها حتى اقتنعت، فاستدعيت الطبيب، وقد عالجها فشفيت ولله الحمد.

المثل الأعلى

أي بني!

احرص على أن يكون لـك مثل أعلى تنشـده وترمي إليـه في حياتـك، وليكن هـذا المثل الأعلى مشتقـا من شخصية عـظيمة مصلحـة تتفق ونفسـك ومزاجك، فإني أعرف فيك الجد، والإفراط في عزة النفس، وقلّة المجـاملة، فليكن مثلك مناسباً لهذا كله.

إن تحديدك للمثل الأعلى يحدد سيرك، ويعيّن ما يقرب منه ومـا يبعد، فأنت إذا قصدت إلى الهـرم أمكنك أن تعـرف منه الـطريق المقرب والـطريق المبعد، أما إذا أنت سرت سبهللا ولم تحدد لك غاية، تخبطت في السير ولم تعرف ما يحسن وما لا يحسن.

* * *

والمثـل الأعلى كثير التـأثير، مـريـح للنفس من عنـاء التفكيـر في كـل لحظة، فهو دائم الشخوص أمام الإنسان يجذبـه نحوه، ويـدعوه لأن يحققـه؛ وإن أعمال الإنسان وطريقة سلوكه تدل على أن له مثلاً أو ليس له، وإذا كان، فماذا هو؟ وكل ما جرى من إصلاح للأفراد والأمم وتأليف لليوتوبيا أو المـدينة الفـاضلة، فمشنؤه المثل الأعلى، وبـدونـه يكـون الإنسـان كـالحيـوان يعيش ـ دائما ـ على وتيرة واحدة لا تتحسن.

وكل ما أستطيع أن أقوله لك إنه يحسن أن يكون مثلك وطنياً مصلحـاً، وقد شاهدت ولله الحمد أمثلة صالحة في مصر، ثم شاهـدت أمثلة خيراً منهـا

في الخارج، فيمكنك أن تشتق منها جميعا المثل الأعلى الذي يصلح لك ويصلح لبلدك وأمتك، فكثيراً ما يصلح الشيء لبلد ولا يصلح لآخر، وكثيراً ما يصلح مع مزاج ولا يصلح مع آخر؛ فليكن لك في اختيار المثل عينان: عين تنظر بها إلى أوربا، وعين تنظر بها إلى مصر، ثم تختار المثل بالعينين، ولتكن مرنا في اختيار المثل فكوِّنه مما شاهدته في مصر والخارج، ثم عدله بما ستشاهده في مستقبل الأيام وهكذا؛ ولا تحتقر شيئاً تقع عليه عينك فقد تستفيد الكثير من الأمر الصغير.

حاشية

يؤسفني أن أذكر لك أن فلاناً جارنا قد مات فجأة؛ وكان كثير الحركة وافر النشاط وكان دائم السؤال عنا وعن صحة جدك المريض، ثم مات الصحيح وبقي المريض، وقد حزنت عليه كثيراً لأنه كان جاداً في الحياة أكبر جد، ناجحا أكبر نجاح، وقد كان محظوظا في ماله، فكل شيء يشتريه تتضاعف أثمانه، ومر مرة في شارع من شوارع الإسكندرية فرأى في إحدى المحاكم إعلانا عن قطعة أرض فاشتراها من غير أن يراها، فإذا هي جنة، وإذا ثمنها أضعف مما اشترى، واشترى أيضا ورقة يانصيب فربحت، واشترى أيضا بيتاً في حلوان بأرخص ثمن، لأن الناس أشاعوا عنه أن به عفاريت.

ومع غناه وثروته التي تقدر بنحو ربع مليون كان شحيحاً على نفسه، فهو يذهب إلى عِزَبة إما بعربة الحكومة أو في عربة مارّة على الطريق الزراعي وتحت إبطه رغيف وقطعة جبن يأكلها إذا جاع، ولا يحدث نفسه بركوب جيد، أو أكل فاخر.

وهو مع إيمانه بالعلم مرض بالسكر، فلم يسمع للأطباء بالحمية والاستقرار، فمات بعد أيام رحمه الله.

وقاك الله شر المرض، وشر الشُّح، وشر الجهل مع العلم، أو ضعف الإرادة مع قوة العقل، والسلام.

* * *

أهمية النصائح

أي بني!

قرأت خطابك الذي تُنكر فيه عليَّ كثرة نُصحي ولا زلت أعتقد أني مُحقّ كل الحق، فكما يتأثر المرء بالبيئة التي حوله كما ذكرت يتأثر بالنصيحة أيضاً، ولذلك لا أزال أنصح، قبلت أو كرهت، وأنت حر في قبول النصيحة أو كرهها. وأحياناً تجد النصيحة محلها فتعمل عملها، ولولا ذلك ما نصح القرآن ولا النبي المؤمنين، فأمرهم بالعدل والصدق والعفة وما إلى ذلك، وقد أذكرني ذلك ما كنت أقرأه بالأمس في رسالة خطية لابن خلدون في التصوف، فقد عقد فصلاً في الحوار بين رجل يرى ألا فائدة من الشيخ، بل يكفي القراءة في الكتب، وبين شيخ يرى الاعتماد على المشايخ. وحجة الأولين أن كل شيء موجود في كتب التصوف، وحجة الآخرين أن الشيخ الحقيق بلقب الشيخ يستطيع أن يدرك نفسية السامع ومزالقه فيوجهه الوجهة الصالحة التي قد تخفى على المُريد نفسه، فما ينفع، لأحد قد لا ينفع الآخر بل يضره ولذلك لما كان كل واحد يسأل الشيخ الماهر عن أحسن خُلْق كان يجيب إجابات مختلفة: أحياناً الصدق، وأحياناً العدل، وأحياناً غير ذلك، باعتبار السائل.

* * *

ولأمر ما اتفقت الأمم وحكماؤها على العناية بالنصائح، فالحكيم قس بن ساعدة له نصيحته المشكورة، ولقمان الحكيم نصح ابنه كما هو

مذكور في القرآن، وملوك الفرس نصحوا الناس بنصائحهم المسماة «جويدان خـرد»؛ ولست أذهب بعيـداً، ففي القصص العـربي أن عبـد الله بن الـزبيـر ومصعب بن الزبير وأبا جعفر المنصور تذكروا أبياتاً من الشعر، فتشجعوا ورموا بأنفسهم في حومة القتال بعد إنشادها. وأنا نفسي قد جربت وقد قرأت نصائح من وصايا الصحابة الأجلاء رضي الله عنهم؛ وصايا أبي بكر الصدِّيق وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب وابنه الحسن رضوان الله عليهم أجمعين، ثم وصـايـا أم المؤمنين عـائشـة رضي الله عنهـا التي قـال عنهـا الـرسول ﷺ: «خـذوا نصف دينكم عن هذه الحُميـراء»، وغيرهـا، ثم قـرأت نصائح من كتاب مُرشـد المعلم، ومن كتاب سـر النجاح والأخـلاق لسمايلز، فوقفت عند بعض النصائح لهم وكـان لها الأثـر الكبير في نفسي. فقـولك إن البيئة كل شيء مغالطة، بل هي شيءٌ من أشياء، بل إن النصيحة التي أذكرها لك هي نفسها بيئة من البيئات، ولذلك فلن اعتمد على قولك، وسوف أستمر في النصيحـة ما دمت ابنـاً وما دمت أبـاً، ولك الخيـار في أن تقبـل مـا تقبـل وترفض ما ترفض.

* * *

حاشية ١:

بلغني أن فلاناً جارنا صديقك الذي تعرفه قد تورَّط في صحبة أصدقاء، كانوا أصدقاء سوء، وما زالوا به حتى علَّموه الكيوف الضارة، فأخـذ مأخـذهم وسار على منوالهم، وتـرك دروسه، وتعـوَّد السهر معهم كـل ليلة إلى منتصف الليـل، فلما تيقَّظ أبـوه لذلـك نصحه بكـل الوسـائل فلم ينجـح ثم استعاض بـأصدقـائه أصـدقاء آخـرين خيِّرين خلقهم خلقـاً، فساروا معـه سيراً حسنـاً، وأرشدوه إلى طريق الخير، حتى استقام والتفت إلى دروسه، فإن عددت ذلك إصلاحاً للبيئة فعلت، وإن عددته نصيحة جـاءت على نمط مقبول وفي شكـل مقبول فعلت.

* * *

حاشية ٢:

وبلغني أن فلاناً تعـرفه أيضـاً قد سقط في امتحـانه بسبب مـا تورَّط في أصدقائه، ثم عن طريق المصادفة شهـد رواية سينمـائية لفت نـظره منها جملة

خلقية قوية، فأتى وكتبها بخطه، وعَلَّقها في حجرة نومه، فكان يقرؤهـا إذا نام وإذا صحا من نومه حتى استقام أمره.

أفلا تعد هذه نصيحة من النصائح القوية الفعَّالة؟

* * *

الحقوق والواجبات

أي بني!

سادت عند أمثالك من الشبَّان فكرةٌ خاطئة، وهي شدَّة المطالبة بالحقوق، من غير التفات إلى أداء الواجبات مع تلازمها، فهما معاً ككفَّة الميزان، إن رجحت إحداهما خفَّت الأخرى، وهم يلجأون إلى كل الوسائل للمطالبة بحقوقهم: من مظاهرات إلى اعتصام إلى تخريب، إلى غير ذلك ولا نسمع منهم أبداً شيئاً عن فكرة أداء الواجب! فحذار من الوقوع في هذا الخطأ، فعلى كل إنسان أن يؤدي واجبه دائماً كما يطالب بحقوقه.

والإنسان في هذه الحياة لا يعيش لنفسه فحسب وإنما يعيش له وللناس، ولسعادته وسعادة الناس، وأداء الواجب، يؤدي إلى تحقيق السعادة؛ فالطالب الذي يؤدي واجبه لأسرته يُسعدها، والأغنياء بتأديتهم ما عليهم من بناء للمستشفيات، وتبرّع للخيرات، يزيدون في راحة الناس ورفاهيتهم؛ وعلى العكس من ذلك السارقون والسكّيرون، فإنهم بإهمالهم الواجب عليهم وعدم إطاعتهم قوانين البلاد، يزيدون في شقاء الناس وتعاستهم. ومقياس رقيّ الأمة إنما هو في أداء أفرادها ما عليهم من واجبات، فالذي يتّقي الله في صناعته يسعد الناس بإتقانه، ولا يبقى العالم ويرقى إلاَّ بأداء الواجب، ولو أنَّ مجتمعاً قصَّر في أداء كل واجباته لفَنِيَ في الحال. والأمة المتأخرة إنما بقيت لأنَّ أفرادها قاموا بأداء أكثر الواجبات وتأخرت بالقِسم الذي لم يُؤدَّ، ويجب أن يُؤدَّى الواجب لأنه واجب، لا طمعاً في ربح ولا هرباً من خسارة إنما نؤديه

راحة لوجداننا، والذين يؤدون واجبهم رغبة أو رهبة، إنما هم تُجَّار يبيعون اليوم ما يقبضون ثمنه غداً.

ومثلنا الأعلى أن نتلذذ من أداء الواجب كما نتلذذ من خير ينالُنا، وشر يزول عنا، ويجب أن ننشد مع أبي العلاء قوله:

فلا هطلت عليَّ ولا بأرضي سحائب ليس تنتظم البلادا

ونقول كما قال رسول الله ﷺ في صهيب: «نعم العبدُ صهيب، لو لم يخَفِ الله لم يعصه». ونقول مع البارودي:

أَدعو إلى الدار بالسقيا وبي ظمأ أحقُّ بالرِّي لكنِّي أخو كرم

وكثيراً ما يكلفنا القيام بأداء الواجبات مشقات كثيرة ينبغي أن نتحملها، أو يتطلب منا تضحية يلزمنا تقديمها، فالقاضي العادل قد يُضطر إلى الحكم على صديقه أو قريبه فيؤلمه ذلك، وقد يحمله حبُّ العدل على إغضاب أفراد عظام أو هيئات مختلفة، فيعرِّض بذلك نفسه لشتى الآلام، ومع ذلك يجب أن يتحملها بابتسام، بل أكثر من ذلك، الجندي، فقد يقف في ميدان القتال موقفاً قد يُعرِّض فيه نفسه للموت فيفعل ذلك عن طيب خاطر فِداءً لأمته. ورئيس السفينة إذا عطبت يجب أن يبقى فيها حتى ينتقل ركابها إلى قوارب النجاة، ثم يكون آخر من ينزل. وكثيراً ما يكون إعلان الإنسان رأيه وتمسّكه بمبدئه قد يبعده عن منصب ويحرمه من فائدة، ومع ذلك يجب أن يتحمل التضحية مهما آلمت عن رضاً وارتياح، ويجب أن يَعُدَّ مكافأة الضمير فوق كل مكافأة ولكن يجب أن يُنبَّه هنا إلى أمرين خطيرين، كثيراً ما يُخطِئُ الناس فيهما:

* أولهما: أن بعض الناس يفهم التضحية واجبة لذاتها، مع أنها لا تُستحب إلا حين يطلبها الواجب، فما يفعله بعض زُهاد الهنود من إيلامهم أنفسهم ولو من غير مقابل عملٌ لا يُسْتَحبُّ، وكذلك من يحرم نفسه من التمتع بلذات الحياة، لا لغرض يُرتجى من ورائه إلا المثوبة عمل خاطئٌ، وقد نهى رسول الله ﷺ من نذر أن يصوم قائماً في الشمس، فأمره بالصيام ونهاه عن القيام في الشمس، لأنه تعذيب لا مُسوِّغ له. ومن الخطأ ما يدور

على ألسنة الناس من قولهم الثواب على قدر المشقة، فهو ليس صحيحاً إطلاقاً، إنما يصحُّ حين تُتَحَمَّل المشقة لعمل خير لا يمكن أن يُنال إلاَّ بهذه المشقة.

* والثاني: أن ليس لأداء أي واجب تبذل أنه تضحية، بل لا بدَّ من الموازنة بين الواجب والتضحية، فمن تألم من أسنانه مثلاً لا يصح أن يفرَّ من الألم بتضحيته بحياته، ولكن يصح أن يُقلِّم أشجاره ليزيد في إثمارها، كالطبيب يهجر نومه ويتعرض للتعب لإنقاذ مريض، والعالم يهجر راحته من أجل إخراج كتاب أو فكرة أو استكشاف ينفع الناس، ومتى اقتنع الإنسان بخيرية التضحية بعد هذه الموازنة وجبت عليه، وإلاَّ كان الفرار منها جبناً، وكلما عظم الواجب عظمت التضحية كالذي نشاهده في الحروب الدفاعية نبذُل الكثير من الأرواح في المحافظة على سلامة الوطن.

وسيرة عظماء الرجال مملوءة بالشواهد على هذه التضحية، فلا نكاد نجد عظيماً لم يُضحِّ كثيراً.

والله يهديك ويوفِّقك، فهذه التضحية هي التي تكوِّنك كما كوَّنت من قبلك، واحذر أن تستسلم للنعيم، وتخْلُد للراحة، فمن استسلم للنعيم وأخلد للراحة لم يُرْج منه خيرٌ. ورحم الله شوقي بك إذ يقول في وصف زملائك:

شبابٌ قُنَّعٌ لا خير فيهم وبورك في الشباب الطامحينا

* * *

الصبر مفتاح العلم

أي بني!

أقتصر هنا على نصائحك في التعليم الجامعي، ليكن أهم ما تصبو إليه حُبّ الحقيقة فلا تقدس القديم لقدمه ولا الجديد لجدّته، واطلب الحقيقة لذاتها، صادفت القديم أو الجديد، أعجب الناس بك أو كرهوك ومقتوك، وكن ذا شعور علميّ دقيق، فإن الطبيعة لا توحي بحقائقها إلا لمن دقَّ حسُّه وتنبه عقله، وقد أعجبني ما ذكرت من أنهم في الجامعة يعلمونك العلم ويعلمونك بجانبه الصبر، فالصبر حقيقة هو مفتاح العلم، فلا تمل منه ولا تستكبر أي صبر يوصل إلى أية حقيقة.

عوِّد نفسك النظام في العمل، والدقة فيه وحسن الترتيب، ولأقص عليك شيئاً من تجاربي في هذا الباب.

* * *

فقد بدأت حياتي في الدراسات العليا، بدراسة الماجستير، بعد تعييني معيداً بكلية الطب في القسم الذي تعرفه، وشاءت إرادة الله وحظي الحسن أن أكون بصحبة أستاذ نابه يعرف له الجميع قدره وفضله، فكان لي أباً ومعلماً، وكان يوجهني إلى كثرة القراءة والاطلاع في المراجع المختلفة والدوريات التي لها علاقة بالبحث، فكنت أعمد إلى مظان البحث في الكتب والدوريات التي أظن أنها تتعرض للموضوع الذي أريده، فإذا قرأتها أعملت فكري فيها ثم كتبت الموضوع ثم أعرضه على أستاذي فيناقشني فيه بصدر

رحب وعطف بالغ لم أجد معه عناء طيلة أيام البحث؛ ثم يعمد إلى ما فيه خير البحث من إضافة لآرائه القيِّمة المستنيرة، وحذفٍ لما يراه ليس منه فائدة، ثم يشير علي أن أُعيد كتابته من جديد وهكذا. .

فلما ترقّيت بعض الشيء عمدت؛ وبتوجيه من أستاذي إلى طريقة أنظم، وهي أني قسَّمت موضوع الرسالة إلى فصول، وأعددت لكل فصل «دوسيهاً» وقرأت المراجع المختلفة والدوريات، وكلما عثرت على فكرة قيِّمة لخصتها ووضعت التلخيص في «الدوسيه» المناسب وأشرت إلى الصحيفة والكتاب، فلما فرغت من ذلك بدأت في الكتابة فاستخرجت «دوسيه» كل موضوع وقرأت ما فيه من وريقات ورتبتها وهضمتها ثم أخرجتها كتابة، وانتقلت بعد ذلك إلى الذي يليه، ثم الذي يليه وهكذا إلى نهاية رسالة الماجستير، وقد أفادتني هذه الطريقة كثيراً في رسالة الدكتوراه بعد ذلك ووجدت أن مثل هذه الطريقة أنظم وأفضل فاعمد إلى مثل هذه الطريقة في بحثك.

* * *

ولخير لك أن تختار نقطة صغيرة تُلقي عليها أضواء كثيرة، من أن تعمد إلى مسألة كبيرة تُلقي عليها أضواء قليلة تتشعَّع فيها نفسك ويتشعب فيها عقلك.

* * *

وأعود فأقول لك الصبرالصبر فيما يتلجلج في صدرك، فإذا شككت في أمر فابحث عنه في كل مظانه واستفتِ أساتذتك فيه، وإذا كان لك جهاز أو أجهزة فجرّبها عملياً عليها لتعرف مقدار صدقها من كذبها، لا تكتب إلا وأنت واثق مما تكتب، مالئ يدك من البرهان عليه والحجة المقنعة لك ولمن يناقشك.

إن كثيراً من إخوانك لا يرغبون في البحث للبحث، ولكن يرغبون في البحث للشهادة، فخالفهم واطلب البحث للبحث، والفرق بينك وبينهم إذاً أنهم إذا حصلوا على الشهادة ناموا وأنت إن حصلت على الشهادة داومت بحثك وعشت طول عمرك باحثاً منقِّباً متعلماً.

إني أعلم أن استعدادك للبحث كبير، واستعدادك للأعمال اليدوية من رسم وتصوير ونحو ذلك صغير، فلا يغرينك حسن استعدادك للبحث أن تُمعن فيه حباً له واستسهالاً لشأنه فتهمل الجانب الآخر، بل الأمر بالعكس، لا تعمد إلى الملكة القوية فتزيد في قوتها، وإلى الملكة الضعيفة فتهملها، بل اعمد إلى موضع نقصك فقوّه، فخير لك أن تكمل نقصك وتقوي ملكاتك جميعاً، من أن تقوي ملكة على حساب أخرى، كالذي يقوّي إحدى يديه فيضعف الأخرى وهكذا.

ثم لا تكن مغروراً تعتقد أنك على حق مطلق، وأن غيرك إن خالفك على باطل مطلق، بل وسِّع صدرك فاجعل حقك يحتمل الخطأ وباطل غيرك يحتمل الصواب، وقلما يعرف أحد الحق كل الحق ويقع أخوه في الباطل كل الباطل، فحقك مشوب بباطل كثير، وباطل غيرك مشوب بحق كثير، فاصغ إلى رأيه واعمل عقلك فيه، واستخرج منه خير ما فيه، وإن أداك ذلك إلى أن تعدل عن رأيك إلى رأيه فافعل، ولا تشمئز من ذلك فالحق يعلو ولا يعلى عليه، وإنك إن فعلت ذلك نجحت وأتتك أعراض الدنيا بعد ذلك تبعاً، والصوفية يقولون في أمثالهم: «صاحب الخصوصية لا بد أن يظهر يوماً ما» فلا تتعجل المكافأة، ولا تغضب من عرض يفوتك فتلذذك من الحقيقة والبحث عنها محسوب عليك، وهي أكبر لذة في الحياة، أتتك بعدها أعراض الدنيا أم لم تأتِ.

* * *

وكنت أعرف صديقاً، ملأه في عيني صغر الدنيا في عينه، كان وطنياً مخلصاً، ومحباً للعلم مخلصاً، يفرغ من عمله فيكمل نفسه بحضور حلقات الدروس في الجامع الأزهر، وأحياناً في مسجد سيدنا الحسين أو السيدة زينب أو السيدة نفيسة رضوان الله عليهم أجمعين، يسأل العلماء ويستفهم عما لا يفهم، ويعلّم من يجهل، وضم إلى العلم الوطنية، وكانت وطنيته أرفع من أن تنغمس في حزب فكان فوق الأحزاب، وكان يعمل أكثر مما يقول، ويتبع قول المرحوم قاسم بك أمين: «إن الوطنية الصادقة تعمل في صمت». وَجدَّ في تربية زوجه وأولاده على مبادئه، فكان يصلي بهم الفجر حاضراً،

ويلزمهم الصدق في كل ما يقولون والعدل في كل ما يفعلون، سواء عليه في ذلك بنته أو ابنه، فعوَّضه الله عن مجهوده بصلاح أبنائه وبناته، ونجاحهم جميعاً في الحياة، ومن الأسف أن استقامته أغضبت كثيراً من إخوانه ورؤسائه فكانوا ينقلونه من القاهرة إلى أقصى الصعيد، ولكنه مع ذلك يحتمل ويحتمل، ويصلح ما فسد في أي مكان رحل إليه، فيزيدهم ذلك غيظاً وهو لا يبالي، حتى مات رحمه الله، راضياً عن نفسه مطيعاً لربه، ومثل ذلك قليل. فاعمل لتكون مثله، وفقك الله وأيدك وأمدك بروح منه والسلام.

(حاشية):

أتذكر فلاناً صديقك؟ إنه كان يعمل في كلية الهندسة في مصر فأدار آلة ميكانيكية كبيرة ولم يحتط الاحتياط الكافي، فمس سلكاً كهربائياً فيها فصعق ومات، رحمه الله، وإني لا أقص عليك هذه القصة لأزعجك ولكن لأحذرك، فاتق شر ما عمل، وأعط كل عقلك وانتباهك إلى العمل الذي تعمله، وكن جاداً كل الجد في أوقات الجد، ولا بأس أن تكون هازلاً بعد في أوقات الهزل، وقد ذكرت لي في إحدى خطاباتك أنك غضبت على أحد تلاميذك لأنه أخطأ خطأً بالغاً، فصرخت في وجهه صرخة قوية، وظللت أسبوعاً لا تجد أعصابك، فحمدت لك ذلك، وأردت أن أنبهك على غلطة زميلك وهو ما نسميه بالخطأ القاتل!

والسلام عليك من والد يريد لك الخير دائماً

* * *

الفصل العاشر

رسالة إلى ابنتي



رسالة إلى ابنتي

أي بُنَيَّتي:

شاءت الظروف أن ترحلي إلى أوربا، وقد كنت في مصر مهدمة الأعصاب شديدة الانفعال، تبكين لأتفه سبب، وتضحكين لأتفه سبب، وترضين وتغضبين وتحزنين وتفرحين، والآن أصبحت في ثلاجة، فتعلَّمي أن تثلج أعصابك وتبرد عواطفك، ثم إن كل شيء حولك يدعو إلى الهدوء، وجو بارد، ونظام دقيق، ومعاملة حسنة.

وقد كنت في مصر تعمتدين على الخدم في قضاء الحوائج من الخارج، وعمل ما يلزم في الداخل، واليوم أنت في أوربا لا تجدين خدماً فتقضين حوائجك بنفسك، وتغسلين صحونك بنفسك، وتطبخين وتكنسين بنفسك ولكن ثقي أن هذا يعلِّمك الاستقلال، ويبعثك على النشاط، ويملأ فراغك ووقتك، وفي ذلك خير عظيم.

* * *

أي بنيتي!

ثقي أنك تحملين ـ شئت أم أبيت ـ اسم والدك، فعملك لاصق به، وخيرك وشرك هو مسؤول عنه، فاحفظي اسمك واسم والدك، وعلى الإجمال كوني شريفة، فإن لم يكن شرفك لنفسك فاشرفي لأبيك.

نصيحتي لك ألا تكثري من الأولاد، فيكفيك ولد وبنت، أو ابنان أ بنتان، وقد جرّبت قبلك كثرة الأولاد فإذا هم كما قال الأعرابي: «إن عاشو

كدّوا، وإن ماتو هدّوا»، وذلك أعون لك على حُسن تربيتهم، وسعة الإنفاق عليهم، وهو أجدى على أعصابك، وأنفع في انفعالاتك، ثم لا كثير خير يُرْجَى منهم، ولا حُسن معونة ينتظر منهم، فهم إذا تزوجوا فكروا في زوجاتهم قبل أن يفكروا في آبائهم، والمثوبة عند الله.

* * *

وسِّعي عينيك ودقِّقي النظر في عادات القوم، وخذي ما تستحسنين وتجنَّبي ما تكرهين، ولا يغرَّنك أنهم أجانب، فكل قوم لهم خيرهم ولهم شرهم، ولهم محاسنهم ومساويهم، فالإنجليز مثلاً اشتهروا بالمرح وعدم التفكير في المستقبل، وأن لهم يومهم الذي هم فيه، ثم ليكن غد ما يكون من ألطف عوائدهم، وأنت ينقصك الكثير من الفرح وشدة المرح فتخلَّقي بذلك ما أمكن.

وكم تمنيت أن يكون جونا بارداً ليكون لنا مدافىء نتجمع حولها ونسمر بجانبها، فهي تجمع شملنا وتجري دمنا، ويصلح حديثنا، ولكن فقدناها لقلة البرد، ولم نستعض عنها شيئاً فحُرمنا الخير الكثير.

زرت مرة أوربا فدققت النظر في رقيِّهم وانحطاطنا، فقلت إن رقيِّهم سببه ميمان: المرأة والمطر؛ فالمرأة برقيِّها رقت أمتها، والمطر ألطف الجو، وكسا الجبال والأشجار والزرع، وخلق الغابات التي حرمناها، فكوني امرأة من هذا القبيل، فتربي فتُحسن التربية، وتسعد من حولها فتُحسن الإسعاد.

* * *

أي بنيَّتي!

كوني مصدر خير لزوجك وبناتك، فيجد حاجاته موفورة، وسعادته مهيأة، ويجدن فيك خير أم لخير بنت.

وتحمَّلي الغربة فإنها بغيضة ثقيلة، ولكن هوِّني على نفسك، واعلمي أن الغربة إلى قرب، والبعد إلى نهاية، واجتهدي أن تجعلي غربتك أحسن درس وأفيد علم، فترجعي إلى وطنك خيراً مما كنتِ، وتكوني مصدر إصلاح لمن حولك ولقومك، وأرجو أن أراك قريباً وقد زال حزنك، وجمدت

أعصابك، وتحسنت عاداتك، فتحمدي السفر، وتشكري الغربة، وحذار أن تغيِّري عاداتك الطيبة التي كسبتها، فلا من إقامة أقمنا؛ ولا من غربة استفدنا، وإنما احتفظي بشخصيتك، وأصلحي ما فسد من قومك، ولا تفسدي ما صلح من نفسك، واجتهدي أن تتركي بلاد القوم وقد خلفت سيرة حسنة، وذكريات حميدة، ولا تكوني كما قال القائل:

وكنت إذا نزلت بدار قوم رحلت بخزية وتركت عارا

ولكن اجعلي من حولك يبكون عليك ولا يبكون لك، ويشعرون بفراغ لفقدك ووحشة لفرقتك، وفقك الله.

* * *

اجتهدي أن تملئي فراغك بالقراءة النافعة من قصص ممتعة وتاريخ مفيد، وإن استطعت أن تستمعي لبعض محاضرات في إحدى الجامعات فافعلي، فلا خير في حياة جافة فارغة ليس فيها غذاء للعقل.. قيل لبزرجمهر حكيم الفُرس: العلماء أفضل أم الأغنياء؟ قال: العلماء.

فقيل له: فما بال العلماء بأبواب الأغنياء أكثر من الأغنياء بأبواب العلماء؟

قال: لمعرفة العلماء بفضل الغنى، وجهل الأغنياء بفضل العلماء.

* * *

في بستان الأدب

يقول «ابن المقفع»:

* «خير الأدب ما حصل لك ثمره، وظهر عليك أثره».

* «من تعزَّز بالله لم يذلَّه سلطان، ومن توكل عليه لم يضرّه إنسان».

* «ليكن منهجك إلى الحق، ومنزعك إلى الصدق، فالحق أقوى معين، والصدق أفضل قرين».

* «من لم يرحم منعه الله من رحمته، ومن استطال بسلطانه سلبه الله قدرته».

* «إن العدل ميزان الله وضعه للخلق، ونصبه للحق فلا تخالفه في ميزانه، ولا تعارضه في سلطانه، واستعن على العدل بحلّتين، قلّة الطمع؛ وشدة الورع».

* «من طال كلامه سئم، ومن قلَّ احترامه شُتم».

* «باطل من لا يقوِّم حق، وكذوب ما لا ينتصف منه صدق».

* «لا تحاجَّ من يذهلك خوفه، ويملك سبقه، فرُبَّ حجة تأتي على مُهْجة، وفرصة تؤدي إلى غُصَّة، وإيَّاك واللجاج فإنه يوغر القلوب، وينتج الحروب».

* «عِيّ[1] تسلم به، خير من نطق تندم عليه، فاقتصر من الكلام ما يقيم حُجتك، ويبلغك حاجتك، وإيَّاك وفضول الكلام فيه تزلّ القدم، وتورث الندم».

* «عيّ يُزري بك، خير من براعة تأتي عليك».

* «وقال الأحنف بن قيس: «من ظلم نفسه كان لغيره أظلم، ومن هدم دينه كان لمجده أهدم».

* * *

(١) عيّ: يقصد به إمساك اللسان وقلّة الكلام.

الفصل الحادي عشر

نداء إلى الآباء

نـداء إلى الآبـاء

إننا نهيب برب الأسرة ورُبّان السفينة ومُسير دفتّها أن يرعى الله في تربية بنـاته التـربية الإسـلامية الصـافية الخـالية من الشـوائب، والنابعـة من عاداتنـا وتقـاليدنـا الأصيلة الممتدة عبـر القرون، والقيم النبيلة، والأخـلاق الفـاضلة، ورحم الله شوقي إذ قال:

الأم مــدرسـة إذا أعــددتهــا　　　أعـددت شعباً طيب الأعـراق

وماذا يمكن للأب أو الزوج أو الأخ أن يقول إذا قالت الفتاة أو البنت أو الزوجة أو الأم يوم القيامة: يا رب خذ حقي من هؤلاء الذين لم يتّقوك فيّ ولم يُعلموني الأدب والدين.

قال رسول الله ﷺ: «ما من عبد يستـرعيه الله رعيـه، يموت يـوم يموت وهو غاشٌّ لرعيته إلاّ حرَّم الله عليه الجنة».

* * *

فـإذا نشأت الفتـاة على المسلسلات وتقـليـد الممثـلات وحفظ أسمـاء المطربين والمطربات، ولا تعرف من الحياة إلا «ميكي ماوس» و«توم جيري» و«مستـر تي» و«السندبـاد» وما إلى ذلـك من التفاهـات والسخـافـات، وآفـة الآفات ما تسميه جهاز الفيديو وغيرها.. فأي خير نرجو أن نجنيـه منها عنـدما تكبر وتصبح زوجة وأماً لأبناء!

إن الغصــون إذا قوّمتهـا اعتدلت　　　ولا يستقيم إذا قــوّمتــه الخشب

* * *

كم أتمنى أن يـزيـد جهـازنـا الإعـلامي من إذاعـة وتليفـزيـون بفضــل توجيهات شيوخنا الأجـلاء، من جرعـة التوجيـه الإسلامي والإعـداد التربـوي السليم ليساعد الأسرة فيما تصبو إليه من تربية أبنائها وبخـاصة الفتيـات تربيـة سليمة لا عوج فيها.

ونعود إلى دور الآباء.. قال رسول الله ﷺ: «كفى بالمرء إثماً أن يضيّع من يعـول». وقال ﷺ: «من عـال ثلاث بنـات: فـأدبهن، وزوجهن، وأحسن إليهن، فله الجنة». رواه الترمـذي من حديث أبي سعيـد رضي الله عنه وجـاء في (رسالة لافـن: بدون أخلاق).. الأنوثة لم تبدع الإنسانية جسداً وصـورة فحسب، بـل قد سكبت في الإنسـانية أيضـاً مع لبن الـرضاع من ذوب حبهـا وحنينها ما أحـال غموض الـطفولـة وغفلتها إلى وضـوح وعبقريـة في استيحاء معاني الإنسانية، من النظرات والبسمات وقسمات الوجوه، وفي إيحائها.

لا، بل من هذب الرجولة في بواكيرها فبـدّلها بـالغلظة شهامـة ومروءة، وبالوحشة أنساً وفرحاً، وبالأنانية فيضاً وفداءً، وبالـلامبالاة تعلقـاً وتمسكاً؟ من ثقفهـا في فجرهـا فكشف لها عن أسـرار الحياة؟ من فهّمهـا نجـوى الـطيـر، وهمس النجـوم، ووشوشـات الغدران؟ من أحـال لها خيـام الناس وأكـواخهم فراديس تقبض على الوجود غبطة ونُعمى وسلاماً؟ أيـة ساحـرة مست بأنـاملها العبقرية هذه الفتوة البكر، توقظ فيها البطل خلوقاً فنانـاً، فتستعيد الحيـاة على يديه جدتها وصبوتها، همة وتوثباً وفيضاً بالمعاني، لحظة بعد لحظة وجيلاً بعد جيل إلى أن تفنى الحياة ولا فناء؟!

من فعل فينا كل ذلك غيـر طيف الأنوثـة يوم تـراءت لنا بقـامتها الـطلقة وقسمات وجهها المهذبة، مع أحلام الشباب وأمانيه العذاب؟

* * *

فالأنوثة ليست جسداً فحسب، بل هي قبل ذلك تجسد للحب المقدس والجمال والدقة والروح المهذبة والتعلق النبيل.

فلو استطاع الرجـل العبقري أو غيـر العبقري أن يعيش هـذه المظاهـرة الإنسانية الأصيلة في رسالة أو هـواية، فـإنه قـد يستطيـع أن يستعيض بها عن

المـرأة، ولكن استعاضـة الـظمـآن عن الماء القـراح بمقـطر الفـواكـه وعصيرها!... وهيهات!!

* * *

«فتاة الجامعة لا تفرق بين حرم الجامعة وصالة عرض الأزياء». هذا ما قـالته إحـدى الكاتبـات في الأخبـار، وهي تعتب على بنـات جنسهـا، وتنعى عليهم هذا التصرف المعيب، ثم تضيف: «فهي تـذهب إلى الجامعـة في عز الصبـاح، بفستان ضيق يكـاد ضيقه يمنعهـا من الحركـة، مـع الكعب العـالي الذي ترتديه... وعندما تغيره تستبدل به فستاناً واسعاً تحته أكثر من «جيبـونه» تشل بدورها حركة صاحبتها، وتجعلها أشبه بالأباجورة المتحـركة، وهي فـوق هذا ـ إن نسيت كتبها ومجلد محاضراتها فهي ـ لا تنسى أبداً الحلق، والعقد، والسوار، والبروش، الذي تحلي به أذنيها وصدرها وذراعها وشعـرها في غيـر تناسق أو ذوق!!!

ثم مضت الكـاتبـة تقـول، وهـذا كله يـرجـع في رأيي إلى أن الفتـاة الجامعية عندنا لا تأخذ الدراسة الجـامعية مـأخذ الجـد... فهي تضع فـوقها زينتها وأناقتها... والمفروض أن يكون العكس هو الصحيح، في وقت نالت فيـه ثقافـة المرأة أعلى تقـدير ـ ليس معنى هـذا أنني أطالب الفتـاة الجامعيـة بـأهمال مـلابسها وزينتهـا ـ... إنني أطـالب بـالاهتمـام أولاً بـدروسهـا، ثم بتخفيف ماكياج وجهها، إن لم يكن مراعاة لحرم الجامعة، فعلى الأقل مراعاة لبشرتها التي يفسدها كثرة الماكياج، في سن تكون نضـارة الوجـه فيها أجمـل بكثير من الماكيـاج المصطنـع... ثم بعد ذلـك أطالبهـا بالحـد من استعمال الحلى»كما قال بعض شعراء العرب:

ومـا الحُلي إلا زينـة من نقيـصـة	يتمم من حُسْن إذا الـحُسـن قصّـرا
وأمـا إذا كـان الـجمـال مـوفـراً	كحسنـك لم يحتـج إلى أن يـزوَّرا

وتضيف: أطالبها بارتداء الملابس البسيطة التي تنـاسب الفتاة الجـامعية كالفستان «الشيزيه» و«التايير» ذي الخطوط البسيطة، والفستـان الذي تنسـدل جوبته إلى أسفل، في وسع خفيف لا يعرقل حـركتها... والجـوب والبلوزة،

أو الجوب والبلوفر، أو الجوب والجاكيت. وأن ترعى في اختيارها لهذه الأزياء الألوان الهادئه التي لا تثير «القيل والقال» بين زملائها الطلبة.

* * *

إنني أطالب الفتاة الجامعية باتباع هذا... وأطلب أولياء أمورها بضرورة الإشراف التام على ثياب بناتهم، فالفتاة في العهد الجديد لم يعد هدفها الأول والأخير في الحياة جلب الأنظار إليها «بالدندشة والشخلعة»... إنها اليوم يجب أن تصقل بالثقافة والعلم والذوق السليم، فلم يعد أقصى ما تصبو إليه هو مكتب سكرتيرة تجلس عليه لترد على تليفونات المدير، وإنما المجال قد فتح أمامها وجلست إلى مكتب الوزارة...».

وهذه الحالة قد أثارت اهتمام زائرات القاهرة من الأجنبيات، أفصحت عن ذلك الرأي صحفية انجليزية زارت القاهرة أخيراً، وكتبت مقالاً في مجلتها تحت عنوان: المرأة الغربية غير راضية عن تقليد المرأة الشرقية لها... تقول: «لقد صُدمت جداً بمجرد نزولي أرض المطار، فقد كنت أتصور المرأة الشرقية المتحضرة التي ترتدي الأزياء العملية التي تتسم بالطابع الشرقي، وتتصرف بطريقة شرقية، ولكنني لم أجد شيئاً من هذا، فالمرأة هناك هي نفسها المرأة التي تجدها عندما تنزل إلى أي مطار أوربي، فالأزياء هي نفسها، والمكياج هو نفسه، حتى طريقة الكلام والمشية، وفي بعض الأحيان اللغة، إما الفرنسية أو الانجليزية.

وقد صدمني من المرأة الشرقية أنها تصورت أن التمدين والتحضر هو تقليد المرأة الغربية، ونسيت أنها تستطيع أن تتطور وأن تتقدم كما شاءت، مع الاحتفاظ بطابعها الشرقي الجميل».

* * *

وهناك صحفية أمريكية مشهورة أمضت عدة أسابيع في القاهرة، وزارت خلالها المدارس، والجامعات، ومعسكرات الشباب والمؤسسات الاجتماعية، ومراكز الاحداث، والمرأة والأطفال وبعض الأسر في مختلف الأحياء، وذلك في رحلة دراسية لبحث مشاكل الشباب، والأسرة في المجتمع العربي... وهي تعمل صحفية متجولة، تراسل أكثر من ٢٥٠ صحيفة

أمريكية، ولها مقال يومي، يقرأه الملايين ويتناول مشاكل الشباب تحت سن العشرين، وعملت في الإذاعة والتليفزيون، وفي الصحافة أكثر من عشرين عاماً، وزارت جميع بلاد العالم.

تقول الصحفية الأمريكية بعد أن أمضت شهراً في القاهرة: «إن المجتمع العربي كامل وسليم، ومن الخليق بهذا المجتمع أن يتمسك بتقاليده التي تفيد الفتاة والشاب في حدود المعقول. وهذا المجتمع يختلف عن المجتمع الأوربي والأمريكي، فعندكم تقاليد موروثة تحتم تقييد المرأة، وتحتم احترام الأب والأم، وتحتم أكثر من ذلك، عدم الإباحية الغربية التي تهدد اليوم المجتمع والأسرة في أوربا وأمريكا. ولذلك فإن القيود التي يفرضها المجتمع العربي على الفتاة الصغيرة وأقصد ما تحت العشرين - هذه القيود صالحة ونافعة، لهذا أنصح بأن تتمسكوا بتقاليدكم وأخلاقكم، وامنعوا الاختلاط وقيدوا حرية الفتاة، بل ارجعوا إلى عصر الحجاب، فهذا خير لكم من إباحية وانطلاق، ومُجون أوربا وأمريكا. امنعوا الاختلاط قبل سن العشرين، فقد عانينا منه في أمريكا الكثير، لقد أصبح المجتمع الأمريكي مجتمعاً معقداً، مليئاً بكل صور الإباحية والخلاعة، وإن ضحايا الاختلاط والحرية قبل سن العشرين، يملأون السجون والأرصفة والبارات والبيوت السرِّية. إن الحرية التي أعطيناها لفتياتنا وأبنائنا الصغار قد جعلت منهم عصابات أحداث وعصابات «جيمس دين» وعصابات للمخدرات، والرقيق... إن الاختلاط والإباحية والحرية في المجتمع الأوربي والأمريكي قد هدد الأسر، وزلزل القيم والأخلاق فالفتاة الصغيرة تحت سن العشرين في المجتمع الحديث تخالط الشُبان، وترقص «تشاتشا» وتشرب الخمر والسجاير، وتتعاطى المخدرات باسم المدنية والحرية والإباحية.

* * *

والعجيب في أوربا وأمريكا أن الفتاة الصغيرة تحت العشرين تلعب... تلهو وتعاشر من تشاء تحت سمع عائلتها وبصرها، بل وتتحدى والديها ومدرسيها والمشرفين عليها، تتحداهم باسم الحرية والاختلاط، تتحداهم باسم الإباحية والانطلاق، تتزوج في دقائق... وتطلق بعد ساعات، ولا

يكلفها هذا أكثر من إمضاء وبعض جنيهات وعريس ليلة - أو لبضع ليال، وبعدها الطلاق - وربما الزواج فالطلاق مرة أخرى».

* * *

لقد صرخت النساء في الغرب... وفي بلاد دعوة التحرير الزائف في مظاهرة ضخمة للنساء عام ١٩٧٠ م في شوارع ستوكهولم عاصمة الدانمارك... صرخن في مظاهرة عارمة، ورفعن لافتات ينددن فيها بالإباحية، وهذا التحرر الذي لا يقصد منه سوى تدمير المرأة:

* نرفض أن نكون أشياء.
* نرفض أن نكون سلعاً لتجارة الإباحية.
* أعيدوا إلينا أنوثتنا.
* نريد أن تعود المرأة إلى البيت.
* سعادتنا لا تكون إلا في المطبخ.

ولقد انتحرت «داليدا» صاحبة ما يزيد على خمسين مليون اسطوانة! ولقد قالتها «مارلين مونرو» نجمة وملكة الإغراء كما يسمونها... قالت في رسالتها التي كتبتها قبل انتحارها «إني أتعس امرأة على سطح هذه الأرض... لم أستطع أن أكون أماً... إني امرأة... أفضل البيت... الحياة العائلية الطاهرة الشريفة لأن هذه الحياة هي سرّ ورمز سعادة المرأة بل الإنسانية بأسرها... لقد ظلمني المجتمع لأنه أخذ مني كل شيء ولم يعطني أي شيء»... أليس في هذه الشواهد الحية الواقعية من العبرة والحكمة والتجربة ما يوفر على المسافرات في قطار التحرير المسافة وذات المصير؟!

* * *

ويحلو لبعض الناس أن يسايروا التيار ويمشون مع الركب، زاعمين أن ذلك تطور حتمي اقتضته ظروف المدنية الحديثة.

ونحن لا نمنع أن يسير التطور في طريقه، وأن يصل إلى مداه. ولكنا نخشى أن يُفسَّر التطور على حساب الدين والأخلاق والآداب، فإن الدين وما يتبعه من تعاليم خلقية وأدبية، إنما هو من وحي الله، شرعه لكل عصر ولكل

زمان ومكان. . . فإذا كان التطور جائزاً في أُمور الدنيا، وشؤون الحياة، فليس ذلك مما يجوز في دين الله.

* * *

إن الدين نفسه هو الذي فتح للعقل الإنساني آفاق الكـون، لينظر فيـه، وينتفع بما فيه من قوى وبركات ويطور حياته لتصل إلى أقصى مـا قُدِّر لـه من تقدّم ورقي. . . فثمة فرق كبير بين ما يقبل التطور وبين ما لا يقبله. . .

والدين ليس لعبة تخضع للأهواء ـ وتوجهها الشهوات والرغبات.

العلاج

يقدم لنا روشتة العلاج أحد شيوخنا الأجلاء[1] حيث يقول: «ولا مناص من وضع خطة حازمة للخلاص من هذه الموبقات، وذلك باتخاذ ما يأتي:

١ ـ نشر الوعي الديني وتبصير الناس بخطورة الاندفاع في هذا التيار الشديد.

٢ ـ المطالبة بسن قانون يحمي الأخلاق والآداب، ومعاقبة من يخرج عليه بشدة وحزم.

٣ ـ منع الصحف وجميع أدوات الإعلام من نشر الصور العارية، ووضع رقابة على مصممي الأزياء.

٤ ـ منع مسابقات الجمال والرقص الفاجر، وتحقير كل ما يتصل بهذا الأمر.

٥ ـ اختيار ملابس مناسبة أشبه بملابس الراهبات وتكليف كل من يشتغل بعمل رسمي بارتدائها.

٦ ـ يبدأ كل فرد بنفسه، ثم يدعو غيره.

٧ ـ الإشارة بالفضيلة والحشمة والصيانة والتستر.

٨ ـ العمل على شغل أوقات الفراغ حتى لا يبقى متسع من الوقت لمثل هذا العبث.

---

(١) فضيلة الشيخ السيد سابق: فقه السنة ج ٢.

٩ ـ اعتبار الزمن جزءاً من العلاج، إذ أنها تحتاج إلى وقت طويل.

* * *

ويقول الدكتور (هافلبرج)، مدير مستشفى الأمراض العقلية بنيويورك: إن عدد الذين يدخلون المستشفيات العقلية نسبتهم عادة أربعة من غير المتزوجين إلى واحد من المتزوجين! وتدل الإحصائيات التي قام بها (برتلون)، على أن حوادث الانتحار بين غير المتزوجين أكثر منها بين المتزوجين، وإن المتزوجين يتصفون عادة بالاتزان العقلي والخلقي، وحياتهم هادئة ولا يشوبها الشذوذ والسويداء اللذان يتصف بهما عدد غير قليل من غير المتزوجين. كما أن النساء المتزوجات ـ مع ما يعانينيه من متاعب الولادة والأمومة ومشاكل الحياة الزوجية والمنزل ـ غالباً ما يعمرن أطول من زميلاتهن اللواتي يقضين حياتهن عانسات!»[1].

* * *

«فالزوجة ملاذ الزوج يأوي إليه بعد جهاده اليومي في سبيل تحصيل لقمة العيش ويركن إلى مؤانسته بعد كده وجهده وسعيه ودأبه... يُلقي في نهاية مطافه بمتاعبه إلى هذا الملاذ... إلى زوجته التي ينبغي أن تتلقاه فرحة مرحة، طلقة الوجه، ضاحكة الأسارير... يجد منها آنئذ أذناً صاغية، وقلباً حانياً، وحديثاً من الحب والمودة والطهارة، فيسكن القلب عن الحرام، وتسكن الجوارح عن التردِّي في حمأة الرزيلة والانزلاق في مهاوي الخطيئة»[2].

* * *

وها هي أسماء بنت يزيد الأنصارية خطيبة النساء الفصيحة التي أتت في يوم من الأيام إلى رسول الله ﷺ وقد جلس ووجهه كفلقة قمر وحوله أصحابه كالنجوم الزاهرة، فرسان الليل، ورهبان النهار... قالت: «يا رسول الله.. أنا وافدة النساء إليك وقد بعثك الله إلينا رجالاً ونساءً ولكنكم

---

(١) من كتاب: «نحن المُعَمَّرون».
(٢) الإسلام والحياة الجنسية ص ٢١ ـ ٢٢ لمحمود بن الشريف.

معشر الرجال فُضِّلتم عنا بالجُمع والجماعات والحج والجهاد... ونحن قعيدات بيوتكم... نغزل ثيابكم... ونصنع طعامكم... ونصون إذا غبتم... أفلا أجر لنا معكم؟» فالتفت النبي ﷺ بوجهه الشريف إلى أصحابه وقال لهم: «أسمعتم مقالة إمرأة في دينها كهذه؟» قالوا: لا يا رسول الله فقال لها ﷺ: «أيتها المرأة إعلمي وأَعلِمي من خلفك من النساء أن طاعة الزوج واعترافاً بحقه يعدل ذلك كله وقليل منكن من يفعله»!

* * *

قال أنس رضي الله عنه: كان أصحاب رسول الله ﷺ إذا زفُّوا امرأة على زوجها، يأمرونها بخدمة الزوج ورعاية حقه.

* * *

وصية الأب لابنته عند الزواج

أوصى عبـد الله بن جعفر بن أبي طـالب رضي الله عنهما، ابنتـه فقال: «ايَّاك والغيرة، فإنها مفتاح الطلاق، وإياك وكثرة العبث، فإنه يورِّث البغضاء، وعليك بالكحل فإنه أزين الزينة، وأطيب الطيب الماء».

ويجب أن يُراعي الآباء عدم المغالاة في المهـور وعن عائشـة رضي الله عنهـا أن النبي ﷺ قال: «إن أعـظم النكاح بـركة، أيسـره مؤنة» وقـال: «يُمن المرأة خِفَّة مهرها، ويُسر نكاحها، وحُسُن خُلُقها، وشؤمها غلاء مهرها، وعُسر نكاحها، وسوء خُلُقها».

* * *

وصية الزوج لزوجته

قال أبو الدرداء رضي الله عنه لامرأته:

«إذا رأيتني غضبتُ فرضّني»

«وإذا رأيتك غضبى رضيتك»

«وإلا لم نصطحب»

وقال أحد الأزواج لزوجته:

خذي العفو مني تستديمي مودتي ... ولا تنطقي في سوْرتي حين أغضب

ولا تنقريني نقرك الدف مرة ... فإنك لا تدرين كيف المغيّب

ولا تُكثري الشكوى فتذهب بالقوى ... ويأباك قلبي، والقلوب تقلّب

فإني رأيتُ الحب في القلب والأذى ... إذا اجتمعا لم يلبث الحب يذهب

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «إني لأتزين لامرأتي كما تتزين لي، وما أُحب أن استنظف[1] كل حقي الذي لي عليها، فتستوجب حقها الذي لها علي».

قال القرطبي في قول ابن عباس هذا: قال العلماء: «أما زينة الرجال فعلى تفاوت أحوالهم، فإنهم يعملون ذلك على الليق[2] والوفاق، فربما كانت زينة تليق في وقت، ولا تليق في وقت، وزينة تليق بالشباب، وزينة تليق بالشيوخ ولا تليق بالشباب»

(١) استنظف: آخذ الحق كله.

(٢) الليق: اللياقة والحذق.

قال: «وكذلك في شأن الكسوة، ففي هذا كله ابتغاء الحقوق، فإنما يعمل اللائق والوفاق، ليكون عند امرأته في زينة تسرّها، ويعفها عن غيره من الرجال»

قال: «وأما الطِيب، والسواك، والخلال، ونظافة البدن، والتطهر، وقلم الأظفار، فهو بيِّن موافق للجميع، والخضاب للشيوخ، والخاتم[1] للجميع من الشباب والشيوخ زينة، وهو حلي الرجال. ثم عليه أن يتوخى أوقات حاجتها... فيعفها، ويغنيها عن التطلع إلى غيره... وإن رأى الرجل من نفسه عجْزاً عن إقامة حقها في مضجعها، أخذ من الأدوية التي تزيد في باهه، وتقوّي شهوته حتى يعفها».

* * *

ومن المؤسف أن بعض الناس درجوا على تعاطي المخدرات كالحشيش والأفيون وسواها، واستناموا لها استنامة لا إفاقة منها، وهم في الحقيقة جانون على أنفسهم وعائلاتهم جناية ليست وراءها جناية.

ومن المؤسف أنهم يترخصون في هذا إشباعاً لشهواتهم وخضوعاً لأهوائهم، وقد ذهب العلماء إلى أن الحشيش مُحّرم وأن متعاطيه يستحق حد شارب الخمر، وأن مستحله خارج عن الإسلام، وأن زوجته تبين منه (تُطلق)، هذا فضلاً عن إضعافه البدن فيفقد نشاطه وقوته.

* * *

وقد جاء الطب ليؤكد حكمة الإسلام في تحريمه من الناحية الصحية، فأضراره على الجسم بصفة عامة كثيرة، مثلا اختلال وظائف الجهاز العصبي المركزي مما يؤدي إلى الدوار وزغللة العينين وطنين الأذن، كما يؤدي إلى ضعف التركيز والذاكرة وفقدان الشهية للطعام والتهابات وقرح المعدة وتليف الكبد وأمراض نقص الغذاء. ثم فقدان الوعي والتسمم الذي قد يؤدي للوفاة.

---

(١) الذهب محرّم على الرجال.

كمـا يؤدي تعـاطي هـذه المـواد إلى الإصـابـة بـالعنّـة ـ أي ضعف الانتصاب ـ وذلك لعدة أسباب مثـل سوء التغـذية نتيجـة فقد الشهيـة وكنتيجة لتلّيف الكبـد، أو بسبب الأمراض العصبيـه التي يسببهـا تعـاطي هـذه المـواد المخّدره لهذا قيـل «إن هذه المـواد تزيـد من الرغبـة الجنسية ولكنهـا تعرقـل حُسن أدائها.»

* * *

وروى الطبراني عن عمار بن ياسر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاثة لا يدخلون الجنة أبداً: الديُّوث، والرجلة من النسـاء، ومُدمن الخمـر. قالوا يا رسول الله: أما مدمن الخمر فقد عرفناه. فما الديّـوث؟... قال الـذي لا يبالي من دخل على أهله. قلنـا: فما الـرجِلَة من النساء؟ قـال: التي تشَبَّهُ بالرجال. وأيضاً العاق لوالـديه لا يـدخل الجنـة. وكان الحسن رضي الله عنـه يقول: «أتدعون نساءكم ليزاحـمن العـلـوج فـي الأسواق؟!

قبّح الله من لا يغار، وينبغي عـدم الإكثار من الغيـرة قـال الإمـام عليّ كرم الله وجهه: «لا تُكثر الغيرة على أهلك؛ فتُرْمَى بالسوء من أجلك».

* * *

وأخرج ابن سعد عن أسمـاء بنت أبي بكر الصـدّيق[1] رضي الله عنهما قالت: تزوجني الزبير رضي الله عنـه وما لـه في الأرض من مال، ولا مملوك، ولا شيء غيـر فرسـه وناضحـة[2] قالت: فكنت أعلف فـرسه، وأكفيـه مؤنته، وأسوسه، وأدق النوى لناضحـه، وأعلفه، وأستسقي المـاء، واخرز غـربه[3]، وأعجن ولم أكن أحسن أخبز فكان يخبـز جاراتي لي من الأنصـار. وكن نسوة صدق، قالت: وكنت أنقل النوى من أرض الـزبير التي أقـطعه الـرسول إيّـاها على رأسي، وهي على ثلثي فـرسخ، قـالت: فجئت يومـاً والنوى على رأسي فلقيت رسـول الله ومعه نفـر من أصحابـه فدعـا لي ثم قال: أخ أخ! ليحملني خلفه، فاستحييت أن أسير مع الرجال وذكرت الزبير وغيرته؛ قالت: وكان من

(١) حديث أسماء متفق عليه.
(٢) ناضحة: بعيره الذي يحمل عليه الماء.
(٣) غربه: دلوه.

أغير الناس، قالت: فعرف رسول الله أني قد استحييت فمضى فجئت الزبير فقلت: لقيني رسول الله وعلى رأسي النوى ومعه نفر من أصحابه فأناخ لأركب معه فاستحييت وعرفت غيرتك، فقال: والله لحملك النوى كان أشد عليَّ من ركوبك معه!

قالت: حتى أرسل إليَّ أبو بكر بخادم (جارية) فكفتني سياسة الفرس فكأنما اعتقني. وعنده أيضاً عن عكرمة أن أسماء بنت أبي بكر الصدّيق رضي الله عنهما كانت متزوجة من الزبير بن العوام رضي الله عنه وهو ابن عمة الرسول صفية، وحواريّه، وأحد العشرة المُبشرين بالجنة، يقول عكرمة: «وكان شديداً عليها فأتت أباها وهو خليفة رسول الله ﷺ على المسلمين، فشكت ذلك إليه فقال رضي الله عنه: «يا بُنيَّة اصبري! فإن المرأة إذا كان لها زوج صالح ثم مات عنها فلم تُزوج بعده، جُمع بينهما في الجنة».

وشيء آخر أردت أن أنبه إليه رواه أحمد وأبو داود في حديث أبي هريرة رضي الله عنه «أن رسول الله ﷺ صلىّ، فلما سَلَّمَ (انتهى من صلاته)، أقبل عليهم بوجهه فقال: مجالسكم هل منكم الرجل إذا أتى أهله أغلق بابه وأرخى ستره ، ثم يخرج فيُحدثُ فيقول: فعلت بأهلي كذا وفعلت بأهلي كذا؟!... فسكتوا. فأقبل على النساء، فقال: هل منكن من تحدِّث؟... فجثت فتاة كعاب على إحدى ركبتيها، وتطاولت ليراها الرسول ﷺ وليسمع كلامها، فقالت: أي والله. إنهم يتحدثون، وإنهنَّ ليتحدثن. فقال: هل تدرون ما مثل من فعل ذلك؟ إن مثل من فعل ذلك مثل شيطان وشيطانة لقي أحدهما صاحبه بالسِّكة، فقضى حاجته منها والناس ينظرون إليه».

ويهتم الإسلام بزي المرأة، فيحدد السن التي تبدأ بها المرأة في الاحتشام فيقول الرسول ﷺ: «يا أسماء، إن المرأة إذا بلغت المحيض لم يصلح أن يُرى منها إلا هذا وهذا.. «وأشار إلى وجهه وكفيه ونهى المرأة عن لبس الزِّينة والتبختر في المسجد. والإسلام يربي المرأة على مكارم الأخلاق، فيدعو إلى التواضع واحترام الآخرين، وعدم التحقير منهم أو الاقلال من شأنهم، أخرج أبو نعيم في الحلية عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، قالت: دخلت عليّ امرأة مسكينة ومعها شيء تهديه إليّ فكرهت أن أقبله منها

رحمة لها، فقال لي رسول الله ﷺ: «فهلا قبلتيه وكافأتيها! فأرى أنكِ حقّرتيها، فتواضعي يا عائشة! فإن الله يحب المتواضعين ويبغض المستكبرين».

* * *

وبعد: فهذا قليل من كثير، بل أقل القليل، ومن أراد أن يستزيد فليرجع إلى المختصين قال تعالى: **﴿فسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾**[1]، ومصر بعون الله وتوفيقه عامرة بعلمائها الأجلاء في شتى فروع المعرفة.

﴿ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا، ربنا ولا تحمل علينا إصْراً كما حملته على الذين من قبلنا، ربنا ولا تُحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين﴾، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

* * *

(١) سورة النحل، الآية: ٤٣.

خاتمة

قال جرير بن عبد الله رضي الله عنه: «أتيت النبي ﷺ، فقلت: أبايعك على الإسلام، فشرط عليّ: والنصح لكل مسلم فبايعته على هذا».

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ما انتفعت بشيء بعد النبي ﷺ انتفاعي بكلمات كتبهن إليّ أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، قال: كتب إليّ: بسم الله الرحمن الرحيم. أما بعد: فإن المرء يفرح بإدراك ما لم يكن ليفوته... ويغتم بفوت ما لم يكن ليدركه! فإذا أتاك الله من الدنيا شيئاً فلا تكثرن به فرحاً، وإذا منعك منها فلا تكثرن عليه حزناً، وليكن همك لما بعد الموت والسلام.

وكتب سلمان الفارسي إلى أبي الدرداء رضي الله عنهما رسالة. أما بعد: فإنك لن تنال ما تريد، إلا بترك ما تشتهي، ولن تنال ما تأمل؛ إلا بالصبر على ما تكره، فليكن كلامك ذكراً، وصمتك فكراً، ونظرك عبراً، فإن الدنيا تتقلّب، فلا تغتر بها، وليكن بيتك المسجد والسلام.

فأجابه أبو الدراداء رضي الله عنه، برسالة قال فيها: «سلام الله عليك، أما بعد: فإني أوصيك بتقوى الله، وأن تأخذ من صحتك لسقمك، ومن شبابك لهرمك، ومن فراغك لشغلك، ومن حياتك لموتك، ومن جفائك لمودتك، واذكر حياة لا موت فيها؛ في إحدى المنزلتين: إمَّا في الجنة، وإما في النار، فإنك لا تدري لأيهما تصير».

والله وحده أعلم بالصـواب وإليه المـرجع، والمـآب، وحسبنا الله ونعم الوكيل، وهـو نعم المولى ونعم النصيـر، وصلى الله على سيدنـا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

*   *   *

المراجع

١ ـ القرآن الكريم كتاب الله تعالى .
٢ ـ السيرة النبوية لابن هشام .
٣ ـ محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار ج ١ ، ٢ لابن عربي .
٤ ـ إنه الإنسان للأستاذ خالد محمد خالد .
٥ ـ إلى ولدي للأستاذ أحمد أمين .
٦ ـ ديوان الإمام على رضي الله عنه .
٧ ـ التربية الاستقلالية لمؤلفه الفونس اسكيروس ترجمة الأستاذ عبد العزيز محمد .
٨ ـ إلى حواء .
٩ ـ فقه السنة ج ٢ لمؤلفه فضيلة الشيخ سيد سابق .
١٠ ـ المستطرف في كل فن مستظرف لشهاب الدين الأبشيهي .
١١ ـ الزواج الإسلامي السعيد تحقيق محمد عثمان الخشب .
١٢ ـ كيف تكسب الأصدقاء للعالم الأمريكي دايل كارنيجي .

فهـرس

الإهداء ٥
تقديم ٧
الفصل الأول: رسائل في تربية الشباب والمجتمع ٩
الفصل الثاني: الشباب والحب ٢٧
الفصل الثالث: وصية من الحياة ٤٧
الفصل الرابع: كلمات مضيئة ٥٧
الفصل الخامس: طرائف ولطائف ٧٣
الفصل السادس: كيف تعاملين زوجك؟ ٨٥
الفصل السابع: كيف تحقق السعادة الزوجية المنشودة ٩١
الفصل الثامن: كيف تختار أصدقاءك وتتعامل معهم ١١١
الفصل التاسع: ولدي الحبيب كيف تعيش حياتك؟ ١٩٧
الفصل العاشر: رسالة إلى ابنتي ٢٤٩
الفصل الحادي عشر: نداء إلى الآباء ٢٥٧
خاتمة ٢٧٥
المراجع ٢٧٧
الفهرس ٢٧٩